

عصر المأمون

المجلد الثالث

أحمد فريد رفاعي

٢٠٢٥م





رئيس مجلس الإدارة
م. رزق عبد السميع أحمد

المشرف العام على النشر
إيهاب الملاح

كتب ثقافية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

فريد الرفاعي، أحمد فريد الرفاعي، ١٩٥٦ - ٠٠٠.
عصر المأمون / أحمد فريد رفاعي - القاهرة: دار المعارف،
٢٠٢٥.
مج ٣ - ، ٢٣.٥ سم.
تدمك ٢ ٩٥٣٤ ٠٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - العالم العربي، تاريخ - العصر العباسي الأول.
٢ - المأمون العباسي، عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد
المهدي بن ابي جعفر المنصور، ابو العباس، ٧٨٦ - ٨٣٣.
أ - العنوان
تصنيف ديوي: ٩٥٣,٠٤
رقم الإيداع: ٢٠٢٥ / ٣٣٦٨
رقم أمر التشغيل: ١ / ٢٠٢٤ / ١٠٥
رقم الكونجرس: ٠ - ٨٤٢١٠٥ - ٠١ - ٢

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

باب المنتور

(١) نصوص كتب الأمين والمأمون

نص كتاب الأمين إلى المأمون؛ وهو الكتاب الذي أشرنا إليه في الجزء الأول: إذا ورد عليك كتاب أخيك — أعاذه الله من فقدك — عند حلول ما لا مردَّ له ولا مدفع، مما قد أخلف وتناسخ الأمم الخالية، والقرون الماضية، بما عزَّاك الله به. واعلم أن الله جلَّ ثناؤه، قد اختار لأمر المؤمنين أفضل الدارين، وأجزل الحظين، فقبضه الله طاهرًا زاكياً، قد شكر سعيه، وغفر ذنبه، إن شاء الله. فقم في أمرك قيام ذي الحزم والعزم، والناظر لأخيه ونفسه، وسلطانه وعامة المسلمين. وإياك أن يغلب عليك الجزع، فإنه يُحبط الأجر، ويُعقب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيًّا وميتًا، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وخذ البيعة على من قبلك، من قوادك وجندك، وخاصتك وعامتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين: من نسخها له وإثباتها، فإنك مقلد من ذاك، ما قلدك الله وخليفته.

وأعلم من قبلك رأيي في صلاحهم، وسدَّ خلَّتهم، والتوسعة عليهم؛ فمن أنكرته عند بيعته، أو اتهمته على طاعته، فابعث إليَّ برأسه مع خبره. وإياك وإقالته، فإنَّ النار أولى به. واكتب إلى عمال ثغورك، وأمراء أجنادك، بما طرقتك من المصيبة بأمر المؤمنين؛ وأعلمهم أن الله لم يرخص الدنيا له ثوابًا، حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنته، مغبوطًا محمودًا، قائدًا لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله، ومُرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم، وخواصهم

وعوامهم، على مثل ما أمرتك به، من أخذها على من قبلك؛ وأوعز إليهم في ضبط ثُغُورهم، والقوة على عدوهم، إني متفقٌ حالاتهم، ولأتم شعثهم، وموسّع عليهم، ولا آن في تقوية أجنادي وأنصاري. ولتكن كتبك إليهم كتباً عامة لتُقرأ عليهم، فإن ذلك ما يسكنهم، ويسيطر أملهم. واعمل بما نأمر به لمن حضرك، أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد. فإن أخاك يعرف حسن اختيارك، وصحة رأيك، وبُعد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يشد بك عضده، ويجمع بك أمره، إنه لطيف لما يشاء. وكتب بكر بن المعتمر بين يدي وإملائي في شوال سنة ١٩٢ هـ.

وهذا كتاب محمد الأمين إلى أخيه صالح:

5

إذا ورد عليك كتابي هذا، عند وقوع ما قد سبق في علم الله، ونفذ من قضائه، في خلفائه وأوليائه، وجرت به سنته في الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص: ٨٨. فاحمدوا الله على ما صار إليه أمير المؤمنين، من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه، صلوات الله عليهم، إنا إليه راجعون؛ وإياه نسأل أن يحسن الخلافة على أمة نبيه محمد ﷺ. وقد كان لهم عصمة وكهفًا، وبهم رءوفًا رحيمًا.

فشمّر في أمرك، وإياك أن تُلقني بيدك، فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له، وهو متفقٌ مواقع فقدانك، فحقق ظنّه، ونسأل الله التوفيق. وخذ البيعة على من قبلك، من ولد أمير المؤمنين، وأهل بيته ومواليه وخاصته

وعامته لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسخها على القاسم أو إثباتها. فإن السعادة واليُمن في الأخذ بعهده والمُضي على مناهجه.

وَأَعْلِمَ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ رَأْيِي فِي اسْتِصْلَاحِهِمْ، وَرَدَّ مَظَالِمَهُمْ، وَتَفَقَّدَ حَالَاتِهِمْ، وَأَدَاءَ أَرْزَاقِهِمْ، وَأَعْطَايَتِهِمْ عَلَيْهِمْ. فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ، أَوْ نَعَرَ نَاعِرٌ، فَاسْطُ بِهِ سَطْوَةً تَجْعَلُهُ نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ. وَاضْمِمْ إِلَى الْمِيمُونِ ابْنَ الْمِيمُونِ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ وَلَدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَخُدَمَهُ وَأَهْلَهُ؛ وَمُرَّهِ بِالْمَسِيرِ مَعَهُمْ فَيَمْنُ مَعَهُ، وَجَنْدَهُ وَرَابِطَتَهُ؛ وَصَيِّرْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ أَمْرَ الْعَسْكَرِ وَأَحْدَاثَهُ، فَإِنَّهُ ثَقَّةٌ عَلَى مَا يَلِي، مَقْبُولٌ عِنْدَ الْعَامَةِ؛ وَاضْمِمْ إِلَيْهِ جَمِيعَ جَدِّ الشَّرْطِ، مِنَ الرُّوَابِطِ وَغَيْرِهِمْ، إِلَى مَنْ مَعَهُ مِنْ جَنْدِهِ؛ وَمُرَّهِ بِالْجَدِّ وَالتِّيْقِظِ، وَتَقْدِيمِ الْحَزْمِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ. فَإِنْ أَهْلُ الْعَدَاوَةِ وَالنِّفَاقِ لِهَذَا السُّلْطَانِ يَغْتَنِمُونَ مِثْلَ حُلُولِ هَذِهِ الْمَصِيبَةِ؛ وَأَقَرَّ حَاتِمُ بْنُ هَرِثْمَةَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَمُرَّهِ بِحِرَاسَةِ مَا يَحْفَظُ بِهِ قُصُورَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُعْرِفُ إِلَّا بِالطَّاعَةِ، وَلَا يَدِينُ إِلَّا بِهَا، بِمَعَاقِدِ مِنَ اللَّهِ، مِمَّا قَدَّمَ لَهُ مِنْ حَالِ أَبِيهِ الْمَحْمُودِ عِنْدَ الْخُلَفَاءِ؛ وَمُرَّهِ بِالْخُدَمِ بِإِحْضَارِ رَوَابِطِهِمْ، مَنْ يُسَدُّ بِهِمْ وَبِأَجْنَادِهِمْ مَوَاضِعَ الْخُلَلِ مِنْ عَسْكَرِكَ، فَإِنَّهُمْ حَدٌّ مِنْ حَدُودِكَ؛ وَصَيِّرْ مَقَدِّمَتَكَ إِلَى أَسَدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَزِيدَ، وَسَاقَتَكَ إِلَى يَحْيَى بْنِ مَعَاذٍ، فَيَمْنُ مَعَهُ مِنَ الْجُنُودِ، وَمُرَّهِمَا بِمَنَاوِبَتِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ.

وَالزَّمِ الطَّرِيقَ الْأَعْظَمَ، وَلَا تَعْدُونَ الْمَرَاحِلَ، فَإِنْ ذَلِكَ أَرْفَقَ بِكَ؛ وَمُرَّهِ أَسَدَ بْنَ يَزِيدَ، أَنْ يَتَخَيَّرَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ أَوْ قَوَادِهِ، فَيَصِيرَ إِلَى مَقَدِّمَتِهِ، ثُمَّ

يصير أمامه، لتهيئة المنازل، أو بعض الطريق، فإن لم يحضر في عسكريك بعض من سميت، فاختر لمواضعهم من تثق بطاعته، ونصيحته وهيبته، عند العوام؛ فإن ذلك لن يُعوزك، من قوادك وأنصارك، إن شاء الله.

وإياك أن تُنفذ رأيًا، أو تُبرم أمرًا، إلا برأي شيخك، وبقيّة آبائك، الفضل ابن الربيع، وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك؛ ولا تخرجن أحدًا منهم، من ضمن ما يلي، إلى أن تقدم علي. وقد أوصيت بكر بن المعتمر بما سيبلغه؛ واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترى. وإن أمرت لأهل العسكر بعتاء أو رزق فليكن الفضل ابن الربيع المتولي لإعطائهم، على دواوين يتخذها لنفسه، بمحضر من أصحاب الدواوين؛ فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور. وأنفذ إلي عند وصول كتابي هذا إليك إسماعيل بن صبيح، وبكر بن المعتمر، على مركبيهما من البريد؛ ولا يكون لك عُرجة ولا مهلة، بموضعك الذي أنت فيه، حتى تُوجّه إلي بعسكريك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله. أخوك يستدفع الله عنك، ويسأله لك حسن التأييد برحمته. وكتب بكر بن المعتمر بين يدي وإملائي في شوال سنة ١٩٢ هـ.

(٢) القول بخلق القرآن

وهاك مثلًا مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عالمه إسحاق بن إبراهيم وما يرويه لنا الطبري مما حصل.

أما الكتاب فهو:

أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي

استودعهم، والعمل بالحق في رعيّتهم، والتشهير لطاعة الله فيهم؛ والله يسأل أمير المؤمنين، أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته، والإقسط فيما ولاه الله من رعيّته، برحمته ومِنّته؛ وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو الرعية، وسفلة العامة، ممن لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكير والتذكر؛ وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، واتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول، لم يخلقه الله، ويُحدثه ويخترعه، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه، الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمةً وهدى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الزخرف: ٣ فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ الأنعام: ١ وقال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ طه: ٩٩ فأخبر أنه قصصٌ لأمر أحدثه بعدها، وتلا به متقدمها، وقال: ﴿الرَّكَتُبُ أُحْكِمَتْ أَيْنُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود: ١ وكل مُحكم مفصّل، فله مُحكم مفصّل، والله مُحكم كتابه ومفصّله، فهو خالقه ومبتدعه؛ ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنّة، وفي كل فصل من كتاب الله قصصٌ من تلاوته، مبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرُدُّ عليهم قولهم ونِحلتهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة؛ فاستطالوا بذلك على الناس،

وغرَّوا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السميت الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيئ آرائهم، تزئناً بذلك عندهم، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم، على دغل دينهم، ونغل أديمهم، وفساد نيّاتهم وبقينهم؛ وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا، وإياها طلبوا في متابعتهم، والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمّهم الله، وأعمى أبصارهم، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد: ٢٤ فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورءوس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حظاً، والمخسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحقّ من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد؛ ومن عمي عن رشده وحظه، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده، كان عما سوى ذلك من عمله، والقصد في شهادته، أعمى وأضل سبيلاً.

ولعمر أمير المؤمنين، إن أحجى الناس بالكذب في قوله، وتخرص الباطل في شهادته من كذب على الله ووحيه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وأن أولاهم برد شهادته، في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه، وبهت حق الله بباطله، فاجمع من بحضرتك من القضاة، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في

عمله، ولا واثق فيما قلَّده الله، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده وبقينه، فإذا أقرُّوا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمُرَّهم بنص مَنْ يحضرهم من الشهود على الناس، ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يُقرَّ أنه مخلوق مُحدَّث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده؛ واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك، عن قضاة أهل عملك في مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرَف عليهم، وتفقد آثارهم، حتى لا تُنفذ أحكام الله، إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد؛ واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله. وكتب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨هـ.

وكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في إشخاص سبعة نفر، منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مُستملي يزيد بن هارون، ويحيى ابن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدورقي، فأشخصوا إليه، فامتحنهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، فشهرَّ أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقرُّوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلَّى سبيلهم، وكان ما فعل إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون.

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم؛

أما بعد، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه على عبادته، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحملهم رعاية خلقه، وإمضاء حكمه وسننه، والالتزام بعدله في بريته، أن يجهدوا الله أنفسهم، وينصحوا له فيما

استحفظهم وقلّدهم، ويدُلُّوا عليه — تبارك اسمه وتعالى — بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويهدوا إليه من زاغ عنه، ويردوا من أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم سَمْتَ نجاتهم، ويقفُوهم على حدود إيمانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم عن مُغْطَيَات أمورهم، ومشتبهاتها عليهم، بما يدفعون الريب عنهم، ويعود بالضياء والبيّنة على كافتهم؛ وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعاً لفنون مصانعهم، ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكروا أن الله مُرْصِدٌ من مساءلتهم عما حُمِّلوه، ومجازاتهم بما أسلفوه، وقدموا عنده؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به. ومما بيّنه أمير المؤمنين برويّته، وطالعه بفكره، فتبيّن عظيم خطره، وجليل ما يرجع في الدين من وَكْفِهِ وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم، وأثراً من رسول الله وصفيّه محمد ﷺ باقياً لهم، واشتباهه على كثير منهم، حتى حُسِنَ عندهم، وتزَيَّنَ في عقولهم، ألا يكون مخلوقاً، فتعرَّضوا بذلك لدفع خلق الله، الذي بان به عن خلقه، وتقرَّدَ بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته، التي لا يُبلِّغ أولاهها، ولا يدرك مداها، وكان كل شيء دونه، خلقاً من خلقه، وحدثاً هو المحدث له، وإن كان القرآن ناطقاً به، ودالاً عليه، وقاطعاً للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى، في ادعائهم في عيسى ابن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً﴾ الزخرف: ٣ وتأويل ذلك: إنا خلقناه، كما قال جل جلاله: ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الأعراف: ١٨٩ وقال: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَبَاساً﴾ ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ

مَعَاشًا ﴿النَّبَأُ: ١٠ - ١١﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ﴿الأنبياء: ٣٠﴾ فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق، التي ذكرها في شِيعَةِ الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٣١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ ﴿البروج: ٢١ - ٢٢﴾ فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ﴾ ﴿القيامة: ١٦﴾ وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ ﴿الأنبياء: ٢﴾ وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ﴿الأعراف: ٣٧﴾ وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم، أنهم قالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿الأنعام: ٩١﴾ ثم أكذبهم على لسان رسوله، فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ ﴿الأنعام: ٩١﴾ فسمى الله تعالى القرآن قرآنًا وذكرًا، وإيمانًا ونورًا وهدى ومباركًا وعربيًا وقصصًا، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ ﴿يوسف: ٣﴾ وقال: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ لَكَ﴾ ﴿الإسراء: ٨٨﴾ وقال: ﴿قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ﴾ ﴿هود: ١٣﴾ وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ ﴿فصلت: ٤٢﴾ فجعل له أولاً وآخرًا، ودلَّ عليه، أنه محدود مخلوق، وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن؛ الثَّم في دينهم، والحرَج في أمانتهم، وسهَّلوا السبيل لعدو الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا، ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده وشبَّهوه به، والإشباه أولى بخلقه، وليس يرى أمير المؤمنين، لمن قال بهذه المقالة حظًا في الدين، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يُحِلَّ أحدًا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة، ولا صدق في قول ولا حكاية، ولا تولية لشيء من أمر الرعية؛ وإن

ظهر قصد بعضهم، وعُرف بالسداد مُسدّد فيهم، فإن الفروع مردودة إلى أصولها، ومحمولة في الحمد والذم عليها، ومَن كان جاهلاً بأمر دينه، الذي أمره الله به، من وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جهلاً، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلاً.

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين، بما كتب به إليك، وانصصهما عن علمهما في القرآن، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يُقرَّ بأن القرآن مخلوق، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدّم إليهما في امتحان مَن يحضر مجالسهما، بالشهادات على الحقوق، ونصهم عن قولهم في القرآن، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق، أبطلاً شهادته، ولم يقطعاً حكماً بقوله، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره، وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله.

ثم لننظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبري قال: فأحضر إسحاق ابن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين، وأحضر أبا حسان الزياتي، وبشر بن الوليد الكندي، وعلي بن أبي مقاتل، والفضل ابن غانم، والذيان بن الهيثم، وسجادة، والقواريري، وأحمد بن حنبل، وقتيبة، وسعدويه الواسطي، وعلي بن الجعد، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وابن الهرش، وابن عليّة الأكبر، ويحيى بن عبد الرحمن العمري، وشيخاً آخر من ولد عمر بن الخطاب، كان قاضي الرقة وأبا نصر التمار وأبا

معمر القطيعي، ومحمد بن حاتم بن ميمون، ومحمد بن نوح المضروب، وابن الفرخان، وجماعة منهم النضر بن شميل، وابن علي بن عاصم، وأبو العوام البزاز، وابن شجاع، وعبد الرحمن بن إسحاق؛ فأدخلوا جميعاً على إسحاق، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين، حتى فهموه، ثم قال لبشر ابن الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: قد عرفت مقالتي لأمر المؤمنين غير مرة. قال: فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى. فقال: أقول القرآن كلام الله. قال: لم أسألك عن هذا، أخلق هو؟ قال: الله خالق كل شيء. قال: ما القرآن شيء؟ قال: هو شيء. قال: فمخلوق؟ قال: ليس بخالق. قال: ليس أسألك عن هذا، أخلق هو؟ قال: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك. فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه، فقرأها عليه، ووقفه عليها، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء، ولا بعده شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه، في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه. قال: نعم، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا. فقال للكاتب: اكتب ما قال. ثم قال لعلي بن أبي مقاتل: ما تقول يا علي؟ قال: قد سمعتُ كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة، وما عندي غير ما سمع. فامتحنه بالرقعة، فأقرَّ بما فيها، ثم قال: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله. قال: لم أسألك عن هذا. قال: هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا. فقال للكاتب: اكتب مقالته.

ثم قال للذيال نحواً من مقالته لعلي بن أبي مقاتل، فقال له مثل ذلك، ثم قال لأبي حسان الزياتي: ما عندك؟ قال: سل عما شئت. فقرأ عليه

الرُّقعة، وَوَقَّفه عليها فأَقَرَّ بها فيها. ثم قال: من لم يقل هذا القول فهو كافر. فقال: القرآن مخلوق هو؟ قال: القرآن كلام الله، والله خالق كل شيء، وما دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا، وبسببه سمعنا عامة العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلَّده الله أمرنا، فصار يُقيم حَجَّنا وصلاتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامة، وإن أمرنا اتَّمَرنا، وإن نهانا انتَهِينا، وإن دعانا أجَبنا. قال: القرآن مخلوق هو؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته، قال: إن هذه مقالة أمير المؤمنين. قال: قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس، ولا يدعوهم إليها، وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلتُ ما أمرتني به، فإنك الثقة، المأمون عليه فيما أبلغتني عنه من شيء، فإن أبلغتني عنه بشيء صرْتُ إليه. قال: ما أمرني أن أبلغك شيئاً. قال علي بن أبي مقاتل: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها. قال له أبو حسان: ما عندي إلا السمع والطاعة، فمَرِنِي آمَر. قال: ما أمرني أن آمرك، وإنما أمرني أن أمتحنك. ثم عاد إلى أحمد بن حنبل، فقال له: ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله. قال: أخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد عليها. فامتنحه بما في الرُّقعة، فلما أتى إلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى: ١١ وأمسك عن لا يُشَبَّهه شيءٌ من خلقه، في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه؛ فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر، فقال: أصلحك الله! إنه يقول: سميعٌ من أذن، بصيرٌ من عين. فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله سميع بصير؟ قال: هو كما وصف نفسه. قال: فما معناه؟ قال: لا أدري، هو كما وصف نفسه. ثم دعا بهم رجلاً رجلاً كلهم يقول: القرآن كلام الله، إلا

هؤلاء نفر: قتيبة، وعبيد الله بن محمد بن الحسن، وابن عليّة الأكبر، وابن البكاء، وعبد المنعم بن إدريس بن بنت وهب بن منبه، والمظفر ابن مرجا، ورجلاً ضريراً ليس من أهل الفقه، ولا يُعرف بشيء منه إلا أنه دُسَّ في ذلك الموضع، ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة، وابن الأحمر، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الزخرف: ٣، والقرآن مُحدَث لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ الأنبياء: ٢ قال له إسحاق: فالمجعول مخلوق؟ قال: نعم. قال: فالقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق ولكنه مجعول. فكتب مقالته، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر فقال: أصلحك الله! إن هذين القاضيين أئمة، فلو أمرتهما فأعادا الكلام! قال له إسحاق: هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين. قال: فلو أمرتهما أن يُسمعانا مقالتهما لنحكي ذلك عنهما! قال له إسحاق: إن شهدت عندهما بشهادة فستعلم مقالتهما إن شاء الله. فكتب مقالة القوم رجلاً رجلاً ووَجَّهَتْ إلى المأمون، فمكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم. وقد ورد كتاب المأمون، جوابُ كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم. وهاك هو ما نجعله ختاماً لكلمتنا.

5

أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك جوابُ كتابه، كان إليك فيما ذهب إليه مُتَصَنِّعة أهل القبلة، ومُلْتَمِسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة، من القول في القرآن، وأمرُك به أمير المؤمنين، من امتحانهم، وتكشيف

أحوالهم، وإحلالهم محالهم، تذكر إحضارك جعفر بن عيسى، وعبد الرحمن ابن إسحاق، عند ورود كتاب أمير المؤمنين، مع من أحضرت ممن كان يُنسب إلى الفقه، ويُعرف بالجلوس للحديث، ويُنصب نفسه للفتيا بمدينة السلام، وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن، والدلالة لهم على حظهم، وإطباقتهم على نفي التشبيه، واختلافهم في القرآن، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى، في السر والعلانية، وتقدمك إلى السندي، وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين، من امتحان مَنْ يَحْضُر مجالسهما من الشهود، وبث الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك، لتحملهم وتمتحنهم على ما حدّه أمير المؤمنين، وتثبتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت؛ وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً كما هو أهله، ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد ﷺ، ويرغب إلى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة، على صالح نيته برحمته.

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجع إليك فيه كل امرئ منهم، وما شرحت من مقالاتهم؛ فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وادعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاد أمير المؤمنين، فقد كذب بشر في ذلك، وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك، ولا في غيره، عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق، فادعُ به إليك، وأعلمه ما أعلمك به

أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله في القرآن، واستتبَّه منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتب من قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرَّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم ابن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشراً، فإنه كان يقول بقوله، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره واكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله. وأما علي بن أبي مقاتل فقل له: ألسْتَ القائل لأمر المؤمنين إنك تحلل وتحرم والمكلم له بمثل ما كلمته به، مما لم يذهب عنه ذكره؟! وأما الذيال بن الهيثم، فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار، وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله، وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه، وسالكا مناهجهم، ومحتذياً سبيلهم، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه. وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام، وقوله إنه لا يُحسن الجواب في القرآن، فأعلمه أنه صبي في عقله، لا في سنه، جاهل، وأنه إن كان لا يُحسن الجواب في القرآن فسيحسنه، إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل، وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة، وسبيله فيها، واستدلَّ على جهله، وآفته بها؛ وأما الفضل بن غانم، فأعلمه أنه لم يخفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة، وما شجر بينه وبين المطلب بن

عبد الله في ذلك، فإنه من كان شأنه شأنه، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما، وإيثاراً لعاجل نفعهما، وإنه مع ذلك القائل لعلي بن هشام ما قال، والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذي حال به عن ذلك، ونقله إلى غيره؟ وأما الزيادي، فأعلمه أنه كان منتحلاً لأول دعي كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ، وكان جديرًا أن يسلك مسلكه فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد، أو يكون مولى لأحد من الناس — وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبي نصر التمار، فإن أمير المؤمنين شبهه خساسة عقله بخساسة متجره؛ وأما الفضل بن الفرخان، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره، تربصًا بمن استودعه، وطمعًا في الاستكثار لما صار في يده، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده، وتناول الأيام به، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق: لا جزاك الله خيرًا عن تقويتك مثل هذا، وائتمانك إياه، وهو معتقد للشرك، منسلخ من التوحيد. وأما محمد بن حاتم، وابن نوح، والمعروف بأبي معمر، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا، عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم، إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركًا، وصاروا للنصارى مثلاً؛ وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحله من مال علي بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه؛ وأما سعدويه الواسطي فقل له: قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث، والتزين به، والحرص على طلب

الرياسة فيه، أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها: متى يُمتحن فيجلس للحديث. وأما المعروف بسجادة، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى، وحكّه لإصلاح سجادته، وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وأهلاه، ثم سلّه عما كان يوسف بن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريري ففيها تكشف من أحواله، وقبوله الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وسخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسيني مسائله، فتقدم إلى جعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به، والاستئمان إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف؛ وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه، وإنه بعد صبيّ يحتاج إلى تعلم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبي مُسهر، بعد أن نصّه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن، فجمجم عنها، وجلج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقر ذميماً، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيماً عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله؛ ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فاحملهم أجمعين، موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم، وحراستهم في طريقهم، حتى يؤديهم إلى

عسكر أمير المؤمنين، ويسلّمهم إلى مَنْ يُؤمّر بتسليمهم إليه، لينصّبهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله؛ وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلاً به، تقريباً إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم، ورجاء ما اعتمد، وإدراك ما أمل، من جزيل ثواب الله عليه، فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين، وعجّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط، لتعرّف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله. وكتب سنة ٢١٨ هـ.

(٣) عهد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور: ولما عهد طاهر بن الحسين إلى عبد الله ابنه هذا العهد، تنازعه الناس وكتبوه وتدأرسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمون، فدعا به وقرئ عليه، وقال: ما أبقي أبو الطيب شيئاً من الدين والدنيا، والتدبير والرأي، وإصلاح الملك والرعية، وحفظ البيعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه، وأوصى به، وتقدّم فيه. وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال. ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منا في ألا يخلو كتابنا من هذا الأثر العظيم القيمة والخطر، وهاكه: عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه، وحفظ رعيته، والزم ما ألبسك الله في العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه، وموقوف عليه، ومسئول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه،

فإن الله قد أحسن إليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم، والذب عنهم، والدفع عن حريمهم وبيضتهم، والحقن لدمائهم، والأمن لسبيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم، ومُواخِذَكَ بما فرض عليك من ذلك، ومُوقِفَكَ عليه، ومُسَائِلَكَ عنه، ومُثِيبَكَ عليه بما قَدَّمت وأَخَّرت، ففرِّغْ لذلك فكرَكَ وعقلَكَ وبصرَكَ ورويتَكَ، ولا يُذهِلَكَ عنه ذهل، ولا يشغلك عنه شغل، فإنه رأس أمرِكَ ومِلاكُ شأنِكَ، وأول ما يوفقكَ الله به لرشدكَ، وليكن أول ما تُلْزِم به نفسك وتُسَبِّ إليه فِعْالَكَ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قَبْلَكَ في مواقيتها على سننها في إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها، وترتّل في قراءتك، وتمكّن في ركوعك وسجودك وتشهدك، ولتُصدّق فيها لربك نيتك، واحضض عليها جماعة مَنْ معك وتحت يدك، وادأب عليها فإنها — كما قال الله — تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله ﷺ، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده. وإذا ورد عليك أمر فاستعنْ عليه باستخارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله في كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن النبي ﷺ، ثم قم فيه بما يحقُّ لله عليك، ولا تَمَلَّ عن العدل فيما أحببت أو كرهت، لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحملته، وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضل ما تزيّن به المرءُ الفقه في دين الله، والطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، والقائد له، والامر به، والناهي عن المعاصي والموبقات

كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العبادُ معرفةً بالله — عز وجل — وإجلالاً له ودَرْكاً للدرجات العلى في المعاد، مع ما في ظهوره للناس من التوفيق لأمرك واهيبة لسلطانك، والأنسة بك والثقة بعدلك. وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء أبين نفعاً ولا أحضر أمناً ولا أجمع فضلاً من القصد، والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق منقاد إلى السعادة، وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد، فأثره في دنياك كلها، ولا تُقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة، والسنن المعروفة ومعالم الرشد، فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له، إذا كان يُطلبُ به وجهُ الله ومرضاته، ومرافقة أوليائه، في دار كرامته.

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز، ويحصن من الذنوب، وأنتك لن تحوط نفسك ومن يليك، ولا تستصلح أمورك، بأفضل منه، فأتته، واهتد به تتم أمورك، وتزد مقدرتك، وتصلح خاصتك وعامتك، وأحسن الظن بالله عز وجل تستقيم لك رعتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدِم به النعمة عليك، ولا تُنهض أحداً من الناس، فيما توليه من عملك، قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مآثم، واجعل من شأنك، حسن الظن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه عنهم، يُعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم، ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزاً، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم، في سوء الظن، ما يُنغص عليك لذاعة عيشك، واعلم أنك تجد بحسن الظن، قوة وراحة، وتكفى به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو به الناس إلى محبتك، والاستقامة في الأمور كلها لك.

ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك، والرأفة برعيتك، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأُمور الأولياء، والحيطة للرعية، والنظر فيما يقيمها ويصلحها، بل لتكن المباشرة لأُمور الأولياء، والحيطة للرعية، والنظر في حوائجهم، وحمل مئوناتهم، أثرَ عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين، وأحيا للسنة. وأخلص نيتك في جميع هذا، وتفرد بتقويم نفسك، تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع، ومجزي بما أحسن، فإن الله جعل الدين حرزاً وعزاً، ورفع من اتبعه وعززه، فاسلك بمن تسوسه وترعاه، نهج الدين، وطريقة الهدى، وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم، وما استحقوه، ولا تعطل ذلك ولا تهأون به، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك، لما يفسد عليك حسن ظنك، واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة، وجانب الشبه والبدعات، يسلم لك دينك، وتقم لك مروءتك، وإذا عاهدت عهداً فف به، وإذا وعدت الخير فأنجزه، واقبل الحسنة، وادفع بها، وأغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهله، وأقص أهل النميمة، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها، تقريب الكذوب، والجرأة على الكذب، لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمها، لأن النميمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم لمطيعها أمر. وأحب أهل الصدق والصلاح، وأعن الأشراف بالحق، وواصل الضعفاء، وصل الرحم، وابتغ بذلك وجه الله، وعزة أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة، واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرِفْ عنهما رأيك، وأظهر من ذلك لرعيتك، وأنعم بالعدل سياستهم،

وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى، واملِك نفسك عند الغضب، وآثِرِ الوقار والحلم.

وإياك والحِدَّة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله، وإياك أن تقول إني مسلطٌ أفعل ما أشاء؛ فإن ذلك سريع فيك إلى نقص الرأي، وقِلَّة اليقين بالله وحده لا شريك له. وأخلصْ لله وحده النية فيه، واليقين به، واعلم أن الملك لله، يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ولن تجد تغير النعمة، وحلول النعمة، إلى أحدٍ أسرع منه، إلى حَمَلَةِ النعمة، من أصحاب السلطان، والمبسوط لهم في الدولة، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه، واستطالوا بها آتاهم الله من فضله. ودَعْ عنك شرَّه نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدَّخر وتكنز، البرَّ والتقوى، والمعدلة، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم، والتفقد لأموارهم، والحفظ لدمائهم، والإغاثة للمهوفهم، واعلم أن الأموال إذا كثرت ودُخِرَت في الخزائن، لا تُثمر، وإذا كانت في إصلاح الرعية، وإعطاء حقوقهم، وكفِّ المئونة عنهم، نَمَتْ وَرَبَّتْ، وَصَلَحَتْ به العامة، وتزَيَّنَتْ به الولاية، وطاب به الزمان، واعتُقِدَ فيه العز والمُنفعة، فليكن كنز خزائلك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله، ووفِّر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم، وأوفِ رعيته من ذلك حصصهم، وتعهَّد بما يُصلح أُمورهم ومعايشهم، فإنك إذا فعلت ذلك قرَّت النعمة عليك، واستوجبت المزيد من الله، وكنت بذلك على جباية خراجك، وجمع أموال رعيته وعملك أقدر، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك، وأطيب نفسًا بكل ما أردت، فاجهْد نفسك، فيما حدَّدت لك في هذا الباب، ولتُعْظَم حِسْبَتُكَ فيه، فإنما يبقى من المال، ما أنفق في سبيل حقه.

واعرف للشاكرين شكرهم، وأثبتهم عليه، وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة، فتتهاون بما يحقُّ عليك، فإن التهاون يوجب التفريط، والتفريط يورث البوار. وليكن عملك لله، وفيه تبارك وتعالى، وارحُ الثواب، فإن الله قد أسبغَ عليك نعمته في الدنيا، وأظهرَ لديك فضله، فاعتصم بالشكر، وعليه فاعتمد، يَزِدْكَ اللهُ خَيْرًا وإحسانًا؛ فإن الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين، وقضاء الحق فيما حمل من النعم. والبس من العافية والكرامة، ولا تحتقرن ذنبًا، ولا تمالئن حاسدًا، ولا ترحمن فاجرًا، ولا تصلن كفورًا، ولا تدهنن عدوًّا، ولا تصدقن نمامًا، ولا تأمنن غدارًا، ولا توالين فاسقًا، ولا تتبعن غاويًا، ولا تحمدن مرائيًا، ولا تحقرن إنسانًا، ولا تردن سائلًا فقيرًا، ولا تحيين باطلا، ولا تلاحظن مضحكًا، ولا تخلفن وعدًا، ولا تذهبن فخرًا، ولا تظهرن غضبًا، ولا تأتين بذخًا، ولا تمشين مرحًا، ولا تركبن سفها، ولا تفرطن في طلب الآخرة، ولا تدفع الأيام عيانًا، ولا تغمضن عن الظالم رهبةً منه، أو مخافةً، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا، وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة، ولا تدخلن في مشورتك أهل الدقة والبخل، ولا تسمعن لهم قولًا، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم، وليس شيء أسرع فسادًا لما استقبلت في أمر رعيته من الشح، واعلم أنك إذا كنت حريصًا، كنت كثير الأخذ، قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلًا، فإن رعيته إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم، وترك الجور عليهم، ويدوم صفاء أوليائك لك، بالإفضال عليهم، وحسن العطية لهم. فاجتنب الشح، واعلم أنه أول ما

عصى به الإنسان ربه، وأن العاصي بمنزلة خزي، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر: ٩ فسهل طريق الجود بالحق، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد، فأعدده لنفسك خُلُقاً، وارضَ به عملاً ومذهباً. وتفقد أمور الجند في دواوينهم، ومكاتبهم، وأدرِ عليهم أرزاقهم، ووسّع عليهم في معاشهم، ليذهب بذلك الله فاقتهم، ويقوم لك أمرهم، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك، خُلوصاً وانشراحاً، وحسبُ ذي سلطان من السعادة، أن يكون على جنده ورعيته، رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته، وشفقته وبره وتوسعته، فزایلُ مكروه إحدى البليتين، باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به، تلقَ — إن شاء الله — نجاحاً وصلاًحاً وفلاحاً.

واعلم أن القضاء من الله، بالمكان الذي ليس مثله شيء من الأمور؛ لأنه ميزان الله الذي تعادل عليه الأحوال في الأرض، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلحُ الرعية، وتؤمنُ السبل، وينتصفُ المظلوم، ويأخذُ الناس حقوقهم، وتحسنُ المعيشة، ويؤدّي حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقومُ الدين، وتجري السنن والشرائع، وعلى مجاريها يُنتجَز الحق والعدل في القضاء. واشتدَّ في أمر الله وتورّع عن النطف، وامض لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وابعُد من الضجر والقلق، واقنع بالقسم، ولتسكن ريحك، ويقرَّ جدك، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، واسدّد في منطقك، وأنصف الخصم، وقِف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة.

ولا يأخذك في أحد من رعيته محابة ولا مجاملة، ولا لوم لائم. وثبتت وتأن، وراقب وانظر، وتدبّر وتفكر، واعتبر وتواضع لرّبك، وارأف بجميع

الرعية، وسلط الحق على نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم، فإن الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكاً لها بغير حقها، وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعموم فيه، ولا تدفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، وعن غني لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصتك، فلا تأخذن منه، فوق الاحتمال له، ولا تكلفن أمراً فيه شطط، واحمل الناس كلهم على مِرِّ الحق، فإن ذلك أجمع لألفتهم، وألزم لرضى العامة. واعلم أنك جُعِلت بولايتك خازناً وحافظاً، وراعياً، وإنما سُمي أهل عملك رعيتك، لأنك راعيتهم، وقِيمهم، تأخذ منهم ما أعطوك، من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم. فاستعمل عليهم في كُور عملك، ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل، والعلم بالسياسة والعفاف، ووسّع عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرفنك عنه صارف، فإنك متى أثرته، وقمت فيه بالوجب، استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحداث في عملك، واستجرت به المحبة من رعيتك، وأعنت على الصلاح، فدرت الخيرات ببلدك، وفشت العماره بناحيتك، وظهر الخصب في كورك، وكثرت خراجك، وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جندك، وإرضاء العامة، بإفاضة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة، مرضي العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها، ذا عدل وقوة، وآلة وعدة، فنافس في هذا، ولا تقدّم عليه شيئاً، تحمّد مغبة أمرك، إن شاء الله.

واجعل في كل كورة من عملك أميناً، يخبرك أخبار عمالك، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كل عامل في عمله، مُعين لأمره كله، وإن أردت أن تأمره بأمر، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع، والنصح والصنع فأْمُضِهِ، وإلا فتوقّف عنه، وراجع أهل البصر والعلم، ثم خذ فيه عدته، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره، قد واتاه على ما يهوى، فقوّاه على ذلك وأعجبه، وإن لم ينظر في عواقبه أهْلَكَهُ، ونُقِضَ عليه أمره، فاستعمل الحزم في كل ما أردت، وبأشْرُهُ بعد عون الله بالقوة، وأكثر استخارة ربك، في جميع أمورك، وافرغ من عمل يومك، ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرة بنفسك، فإن لغد أموراً وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذي أخرت، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين، فشغلك ذلك حتى تُعرض عنه، فإذا أمضيت لكل يوم عمله، أرحت نفسك وبدنك، وأحكمت أمور سلطانك. وانظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم، ثم استيقن صفاء طويتهم، وتهذيب مودتهم لك، ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك، فاستخلصهم، وأحسن إليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مئونتهم وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا خللتهم مساً، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فاسأل عنه أخفى مسألة، ووكّل بأمثاله أهل الصلاح من رعيّتك، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم، وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداءً بأمير المؤمنين أعزّه الله في العطف عليهم والصلة

لهم، ليُصلح الله بذلك عيشتهم، ويرزقك به بركة وزيادة، وأجرٌ للأمرء من بيت المال، وقدّم حملة القرآن منهم، والحافظين لأكثره، في الجراية على غيرهم، وأنصّب لمرضى المسلمين دُوراً تُثويهم، وقوَّاماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يؤدّ ذلك إلى سرف في بيت المال، واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم، وأفضل أمانيتهم لم يرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رفع حوائجهم إلى وُلاتهم؛ طمعاً في نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما برم المتصفّح لأُمور الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل فكره وذهنه، ومنها ما يناله به مئونة ومشقة، وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل، كالذي يستقبل ما يقربه إلى الله، ويلتمس رحمته به.

وأكثر الإذن للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وسكّن لهم أحراسك، واخفّض لهم جناحك، وأظهر لهم بشرّك، ولِن لهم في المسألة والمنطق، واعطف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيت فأعطِ بسماحة وطيب نفس، والتمس الصنعة والأجر، غير مكدر ولا متّان، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله. واعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى من قبلك، من أهل السلطان والرياسة، في القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه، ودعا إلى سخط الله، واعرف ما تجمع عمالك من الأموال، ويُنفقون منها، ولا تجمع حراماً، ولا تنفق إسرافاً. وأكثر مجالسة العلماء، ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء

ذلك إليك، في سرٍّ، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك، وأنظر عمالك الذين بحضرتك، وكتّابك، فوّت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك، ثم فرّغ لما يُورده عليك من ذلك سمعك وبصرك، وفهمك وعقلك، وكرّر النظر إليه والتدبير له، فما كان موافقاً للحزم والحق فامض به واستخر الله فيه، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمساءلة عنه، ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك، وتفهم كتابي إليك، وأكثر النظر فيه، والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره، فإن الله مع الصلاح وأهله، وليكن أعظم سيرتك، وأفضل رغبتك، ما كان لله رضا، ولدينه نظاماً، ولأهله عزاً وتمكيناً، وللزمة والملة عدلاً وصلاًحاً. وأنا أسأل الله أن يُحسن عونك وتوفيقك، ورشدك وكلاءك، وأن ينزل عليك فضله ورحمته، بتمام فضله عليك، وكرامته لك، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً، وأوفرهم حظاً، وأسناهم ذكراً وأمرأ، وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبغى عليك، ويرزقك من رعيتك العافية، ويحجز الشيطان عنك ووساوسه، حتى يستعلي أمرك بالعز والقوة والتوفيق، إنه قريب مجيب.

(٤) رسالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، إلى المبايعين على الحق، والناصرين للدين، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام: سلام عليكم، فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله.

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذي العز والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول على أهلها، قبل استحقاقهم لمثوبته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذي جعل ما أودع عباده من نعمته، دليلاً هادياً لهم إلى معرفته، بما أفادهم من الأبواب، التي يفهمون بها فصل الخطاب، حتى اقتنوا علم موارد الاختبار، وثقفوا مصادر الاعتبار، وحكموا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر؛ واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومُتَقَن صناعته، وحاجة متزائل خلقه ومُتَوَاصِلِهِ، إلى القوم^(١) بما يُلِمُّه ويصلحُه، على أن له بارئاً أنشأه وابتدأه، ويسر بعضه لبعض. فكان من أقرب وجودهم، ما يباشرون به من أنفسهم في تصرُّف أحوالهم، وفنون انتقالهم، وما يظهرون عليه من العجز عن التَّائِي لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواتهم؛ مع أثر تدبير الله — عز وجل — وتقديره فيهم، حتى صاروا إلى الخِلقة المحَكِّمة، والصورة المعجبة، ليس لهم في شيء منها تُلطف يتممونه، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم؛ فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ^(٣) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ^(٤) الانفطار: ٦ - ٨ ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات، وما يجري فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات، على مسير لا يُثْبِت العالم إلا به من تصاريف الأزمنة التي بها صلاح الحرث والنسل، وإحياء الأرض، ولفاح النبات والأشجار، وتعاور الليل والنهار، ومَرَّ الأيام والشهور والسنين التي تُحْصَى بها الأوقات؛ ثم ما يوجد من دلائل التركيب في طبقات السقف المرفوع، والمهاد الموضوع، باختلاف أجزائه والتتامها، وخلق الأنهار، وإرساء الجبال.

ومن البيان الشاهد ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق، وحدوثه بعد أن لم يكن مترقيًا في النماء، وثباته إلى أجله في البقاء، ثم محاربه مُنْقَضِيًا إلى غاية الفناء. ولو لم يكن له مُفْتَتَحُ عددٍ ولا مُنْقَطَعُ أمدٍ، ما ازداد بنشوء، ولا تحيَّفه نقصان، ولا تفاوت على الأزمان؛ لأن ما لا حدَّ له ولا نهاية، غير ممكن الاحتمال للنقص والزيادة. ثم ما يوجد عليه منفعته من ثبات بعضه لبعض، وقوام كل شيء منه بما يَسَّرَ له، في بدء استمداده إلى منتهى نفاده؛ كما احتجَّ الله عز وجل على خلقه، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ مريم: ٦٧ وقال عز وجل: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَاِنَّ (٦٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن: ٢٦ - ٢٧ وكل ما تقدم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بنى، وأطباق الأرض التي دحا، وآثار صنعه فيما برأ وذرا، ثابتٌ في فطر العقول، حتى يُسَخَّرَ أولي الزيف ما يدخلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد. جلَّ عما يُشْرَكُونَ. ولولا توخُّده بالتدبير، عن كل معين وظهير، لكان الشركاء جُدرَاء أن تختلف بهم إرادتهم فيما يَخْلُقُونَ، ولم يكن التخلف في إثباته وإزالته لِيُخْلُو من أحد وجهيه، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه وبرَّاه. جلَّ البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علوًّا كبيرًا؛ كما قال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ المؤمنون: ٩١ ثم من عظيم نعمة الله عز وجل على خلقه افتقاده إياهم، وأنه يسدُّدهم ويدلِّهم على منافعهم، ويحجِّبهم مضارَّهم، ويهديهم لما فيه صلاحهم، ويرغبهم في المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل الذي جعله عصمة لهم وحاجزًا بينهم.

ولولا ما تقدّم به من تلافيتهم واستدراكهم بفضل رحمته، لاجتاحهم التلف، لقصور معرفتهم عن التّأني لأقواتهم ومعاشيتهم، ولم يكونوا ليقتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بنوا عليه من الجمع والرغبة، ولتّهالكوا ببغي بعضهم على بعض، وعدوان قويّهم على ضعيفهم، ولكنه بعد تعريفه إياهم مُلك قدرته وجلالة عزته، بعث إليهم أنبياءه ورسله مبشّرين ومنذرين، بالآيات التي لا تنالها أيدي المخلوقين؛ فرضوا بما قُسطَ بينهم، وارتدعوا عن التباغي والتظالم، لما وُعدوا من الثواب الجسيم وخُوفوا من العقاب الأليم؛ ولم يكونوا ليُطيعوا أمراً لآمر ولا نهياً لنه، إلا بحجة تبيّن بها الحق على من خالفه من المبطلين، وتخويف يتّقون به مقارفة ما حُرّم عليهم، ورجاء يتجشّمون له مئونة ما تُعبّدوا به. فافتتح الله عز وجل بأبيهم آدم — عليه السلام — فعلمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له — كما اقتصّ في وحيه المنزل — وكرّم ولده وفضّلهم، فقال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَدِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٧٠ وجعل ما فطرهم عليه من العطف على ذراريهم وأبنائهم سبباً لما أراد من بقائهم وتناسلهم، وما اختصّهم به من العلم والفهم حجة عليهم، ليمتحن طاعتهم، ويبلّوهم أيهم أحسن عملاً.

ولم تزل رسل الله عز وجل إلى خلقه تترى بالنور الساطع، والبرهان القاطع، لا يجدون لما يُوردون عليهم من الحق القاهر مردّاً ولا مدفعاً؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أُجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم: ٤٧ فلم يجد المكذبون مساعاً

إلى دفع ما أُقيم عليهم من لازم الحجة، إلا المعاندة والمجاهدة. وكان أنبياء الله — صلوات الله عليهم — يُبعثون في أعصار الحقب، نُذراً للأمم، حتى ختمهم الله عز وجل بالنبى الأُمى محمد ﷺ، فبعثه فرداً وحيداً لا عاضد له ولا رافد، إلى قوم يعبدون أصناماً بُكماً، وحجارة صماً، فكذب به القوم الذين بُعث فيهم أول ما دعاهم، ورامه ملوك أقطار البلاد بتوجيه الأجناد، ومُرافدة القوة والعتاد وبغي الغوائل، ونصب الحبائل، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به، إذ يقول تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل: ١٢٥ ثم جاهد بمن أطاعه من عصاه، وبمن اتبعه من خالفه، حتى أعزَّ الله كلمته، وأظهر دعوته، وأكمل لعباده دينهم الذي ارتضى لهم. فلما اختار الله له ما لديه، واختصه بما عنده: من النعيم المقيم، والجزاء الكريم، بعد استقامة الدين ودخول الناس فيه أفواجاً، خلفه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أدانيه ولحمته، لإقامة الشرائع المفترضة، وإنفاذ حكم الله المنزل، واقتفاء السنة الماثورة وحفظاً له في قرابته ومحبيي دعوته، وإتماماً لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وانجازاً لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذي اصطفاه وارتضاه. وكان اختيار أولي الفضل من لحمته وعصبته لإرث خلافته، ومن عظيم الزُلف التي رَغِبَ إلى الله فيها أنبياءه، وبما اقتص في منزل وحيه، واختص — تبارك وتعالى — نبيه ﷺ بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودته في القربى جزاء ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة؛ فكانت فضيلتهم عزيمة من الله عز وجل دون طلب رسول الله ﷺ؛ ألزمه تأديته إلى خلقه وألزمهم أداءه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ الشورى: ٢٣ ودلَّ بما

أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم وإذهابه الرجس عنهم، على اصطفائه لهم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب: ٣٣ وكان مما أوجب لهم به حق الوراثة في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ﴾ الأنفال: ٧٥ ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال: أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ. وأحلهم من النباهة والصيت بالمحل الذي أعلى به أمرهم ورفع به ذكرهم، لما أحب من النبين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة: ١٨٥.

ولو كان الأئمة المقلدون أمر عباده خاملة أنسابهم، متقطعة أسبابهم، غير مخصوصين بفضيلة يرونهم بها دون غيرهم، لم تعد طلبتهم عقد الخلافة لهم، وأن تكون من المفترضات على كافة الأمة، أو على بعض دون بعض؛ فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوي النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس في اجتماع آرائهم مع تفرقهم واختلافهم طمع آخر أيام الدهر. وإن كان إلى خاصة دون عامة، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال إلى مثل ما احتاجوا إليه في أئمتهم، إذ لم يكن أهل الارتباب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطئوا على اتفاق، لنفاد آجالهم قبل بلوغهم غاية الاجتهاد في الفحص والتكشيف، وحاجتهم إلى اختبار البلدان، وتمحيص أولي الفضائل بالامتحان، وما هو حاق عليهم من الشبه في اختيارهم، والاختلاف فيمن عسوا أن يجتبوه ويقدموه، حتى تنهالك الرعية بتظالمها بينها، ويترك من يليها من الأمم إياها؛ إذ لا ذائد عنها ولا محامي. فإذا ألزمت الأمة الحاجة إلى نصب الحكام لإقامة الدين، وتقسيط الحقوق من

المسلمين، ومجاهدة عدوهم من المشركين، لم يكن لهم في الإمام عليهم مجازٌ إلى التخلص من حقه إليهم، ولا ريب عند المعرفة برأفة الله ورحمته، ولطفه وحكمه، في دفعه عن عباده ما لم يجعل في حيلتهم له وسعاً، ولا في حيلتهم له دركاً، وكفايته إياهم ما يعجزهم من البحث والتنقيب عن ولادة أمرهم، بنصبه إياهم، وما رفعهم إليه من الدرجة التي أعلاها وأسناها، إذ وصل نسبهم برسول الله ﷺ، وافترض مودتهم على خلقه، ولم يشنهم جهلهم للغرض الذي لزمهم له، ولم يجب عليهم فرضٌ في معرفة من سواهم. ولم يزل سياق أئمة الهدى مطرداً، ونظامهم متصلاً، يتلقاه كابرٌ عن كابر، ويؤديه أول إلى آخر، حتى تناهى إلى أمير المؤمنين، وهو حال دار دعوته، وبين أنصاره من أهل خراسان، فنظر به خيرهم، وعرفوا ما تصرف به أحوالهم، وظهر لهم من بيان حجته على من نازعه في الأمر، وشاهدوا من إبلاغه في العذر، واستظهاره بالتأني والصبر، ما أزاح عنهم الشبهة وكشط الحيرة، حتى استزالوا^(٢) نهوضه بحقه، وخافوا الزيف على أديانهم فيما أعطوه من صفقة أيمانهم؛ وهو ماضٍ على عادته، مستديمٌ للمواعدة، متلومٌ على المراجعة، بالغ غاية ما في وسعه من الرخصة في دفع الولاية التي نهته بها الرعية، حتى ضاق عليه في دينه ترك القيام بما أنهضه الله به من ثقلها وقلده من حملها، وخاف المخلوعُ فانبعث بالشرِّ والغرّة، فتناول أولياء الحق باغياً طاعياً، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والحجة التي يجب لها قلبه، ويُفتُّ بها في عضده، ويقبل الله ما شرفكم به من النصر والغلبة فيه التي جعلها الله للمتقين. فاجتمع لكم معشر أهل خراسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث خلال اختصكم الله بفضيلتها، وسني مراتبها، دون ثلاث شملتكم وغيركم.

أما الأولى: من اللواتي خَصَّكم الله بهنَّ؛ فما تقدَّم لأسلافكم من نُصرة أهل بيت النبي، والقائمين بميراثه من آباء أمير المؤمنين.

وأما الثانية: فما آثركم الله به من نُصرته في دعوته الثانية.

وأما الثالثة: فما تقدَّمتم به من صحة ضمائركم، ومحض مُناصحتكم.

وأما الثلاث اللواتي هنَّ لكم ولغيركم:

فمنهنَّ ما أكَّد الله لأُمير المؤمنين في أعناق المسلمين: من العهد الذي أخذ إصره، وألهمهم الوفاء به والتمسُّك بوثائق عصمته، عند محاولة المخلوع ما حاول من الإعلان بالردة، والتمس من تبديل معالم الدين وتَعْفِيَةِ آثاره، فلم يُلَفِ الرعية سدى مهملين، لا جامع لأمرهم، ولا ضامٍّ لشُرهم.

ومنهنَّ ما أفادكم الله وإياهم من العبر، عند حلول الغير بمنْ غدر وختر، تذكرةً لأولي النُّهى، وحجة بالغة على من أدبر وتولَّى، ليهتدي متحيِّر ويتعظُّ مُزدَجِر، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران:

١٤١. ومنهنَّ اجتماع أهل الفضل من المسلمين: ممن لم يكن له نُصر ولا أزر في الدعوة الأولى على المشايعة في الدعوة الثانية؛ فأصبح دعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمُصرِّين ومدينة السلام والمشرق والمغرب ممن غار أو أنجد من المتمسكين بذمهم الموفين بنذورهم، من إخوانكم؛ وإن كان الله قد قدَّمكم في الأمرين جميعاً بتفوق حالكم على غيركم، يعتدُّون من معاضدتكم ومكانفتكم بما جعله الله عز وجل ألفةً لكم ومودةً بينكم، يبيد بها ما كان الشيطان يَنزِعُ به بين أهل التباعد في الأنساب، والتناهي في الأوطان من إيقاع العداوة والبغضاء، والانطواء على الأحقاد والدَّمن، وطلب تقديم الإِحن، وصار أهل السمو إلى الدرجة العليا والاعتصام

بالعروة الوثقى من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، منشحة صدورهم بمكانفته، مُنسطة أيديهم بمعاونته على حقه، منفسحة آمالهم في إذكاء ناره على عدوه والإثخان في بلاده وافتتاح ممتنع حصونه، بما جمعهم الله عليه من الألفة، ورفع عنهم من الحمية والعصبية؛ راجين عودتهم إلى أحسن ما مضى عليه سلفهم، في عهد نبيه ﷺ، من سلامة الصدور، وصلاح ذات البين، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم؛ قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب والتجاذب، وجعل ما كان يسعى به بعضهم من الإعداد لبعض، زيادة في ريحهم، وحداً في شوكتهم، لا تتلافهم في دولة أمير المؤمنين المحدودة المؤيدة بصدق الضمائر، ونفاذ البصائر. وإلى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانتة على صالح نيته، وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته، في إعزاز دينه وإذلال من صدَّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب.

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكُّر ما كانت عليه الحال قبلها، فاستديموا الإفاضة فيما رفع الله من خُصاصتكم وأعلى من أقداركم، بُنصرة أهل بيت نبيكم ﷺ، وما أبلاكم الله في الدعوة الأولى مما لا يؤدَّى حقه إلا بعون الله وتوفيقه، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه، فأنالهم رغائب الأقسام وسني الخطوات، ورفع درجهم ودرج خلوفهم وأعقابهم من بعدهم، بعد إذ هم مُستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس، مذعنون بقهر عدوهم واستثاره عليهم، ثم لم يلبثوا أن صاروا إلى الحال التي يرونهم بها من الغبطة والبهجة، إلا أنهم أخذوها بحقها؛ وكانت في أيدي الظلمة من أهل بيت اللعنة وأتباعهم بخُسنَة^(٣) الباطل ومحنة الابتلاء، ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرِفُهُ، وَرُسُلَهُ، يَا لَعْنَتِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد: ٢٥ وليس أحد منكم

بخارج من المحنة بما أُلْبَسَ من النعمة، وإن كنتم أهلها الآخذين لها بحقتها، بل الذي يلزمكم استدانتها والقيام بحفظها، على حسب ما أولاكم الله منها، فربما كان الذي يُعَقَّبُ أهلها من الغفلة والاغترار، ويلهيهم بها من حبورها وسرورها، أعظم إثماً وحباً مما يخاف على أهل البطالة والصبر من ضعف العزم وقلة الصبر، لما يستولي عليهم من استكانة الذلة، والاغترار بالتقصير، والفرع إلى ربهم في تنفيس كُرْبِهِمْ، فإنه تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَكَحَ بَجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُودَعَاً غَرِيضٍ﴾ فصلت: ٥١ فحاجتكم إذا أنجح الله سعيكم وأظفركم بطلبتكم، إلى حيطة ما أودعكم الله من مننه وحراسة ما آتاكم من فضله، بالشكر الممتري للمزيد. فتعهدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسكم بتذكر ما سهل الله لكم من الحزونة، وذللكم من الصعوبة، وحكم لكم به من النصر، على مُرَّاقِ الملة ومخالفِي أهل القبلة، وأباحكم من ديارهم وأمواهم؛ فأصبحتم بمن الله عليكم حماة الدين، وأنصار الأئمة الراشدين، وحصون كافة المسلمين، بعدما اجتث الله بكم قرون النفاق، وأباد بكم صناديد الضلالة، وشرّد مَنْ لم تستحمله سيوفكم، وأضرع إليكم من أذعن واستسلم، وقد استشر فكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشنآن، ولا حظوكم بأعين الحسد والمنافسة، فبين ذلك مُجَهَّرٌ مُعَالِنٌ، ومُسْتَسِرٌّ مُدَاهِنٌ، وداخلٌ في عدادكم، ووالج في سوادكم، يرى أَمْنَهُ بين ظهوركم، فطعنهُ عليكم في دولتكم بريئة التمويه وخُذَعِ التشبيه، أيسرُ عليه كُلفُهُ وأعظم فيكم خرجاً ونكايَةً؛ فتوقّوا هذه الطبقة أشد التوقّي، فإن أكثر من يلجأ إلى استباحة الحيلة، من عجز عن المباداة والإصحار، وعند ظهور الحازم وغلبته يَحْتَرِزُ من لطيف الخدع وخفي الاستدراج.

واحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من استمراء الطرءاء، والركون إلى راحة الدعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله، وأورثتهم عواقبه طول الندم والحسرة؛ فإنكم قد كنتم في حال المراقبة لعدوكم، والخوف لبائقتهم متيقظين متحفظين لما كان يرومكم به من ختلته وحيله، ثم أفضيتم إلى الحج وقد جهدكم السعي ومسكم النصب، وسيلقي الشيطان في أمانيتكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم، ويجد من ضعف العزائم معينا داعيا إلى اغتنام الخفض، والإخلاد إلى الأرض، ما لم تعتصموا بما عايتم من الاعتبار، وتمثلوا مواضي الآثار فيمن سلف من القرون الخالية، وما أفضت به إليه العزة من زوال النعم ووقوع الغير، فإن جميع ما خوّلكم الله وأفادكم مرتتهن بما ألزمكم من حيأطته واستنائه؛ فقد وجبت عليكم الحجة بما حصّكم الله عليه، وعظمت عليكم المنة بما هداكم إليه، وأراكم من آياته ومثلاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإعذار والإنذار لكم، ومن اجتمع له اقتناء صواب من تقدمه إلى ما ينبعث من نفسه، فكأنه قد اختبر بالتجربة، مع استمداده بما يستفيد، ويستزيد ما يفتح لبّه ورأيه، وأيقنوا أنكم لن تصلوا إلى من سواكم، ممن هو أعرس طاعة عليكم وأعذر بمعصيتكم، حتى تبدءوا باستصلاح أنفسكم، وأنه لن يرجى لكم القوة على مجاهدة عدوكم حتى تقووا على مجاهدة أهوائكم، فإن على كل امرئ ريبة من أمره، وغطاء من غيبه، لا يكشفه إلا صحة المعرفة، والإذعان بالنصفة؛ فهناك يؤمن عليه الجهل والمعاندة، وإذا أمنت هاتان الخلتان انسدت بإذن الله ثلّم الآفات، وفُتق المكاره، فإنه لا يخاف الضلال على من اهتدى، ولا اعتماد الجور على من انتصف من هوى.

وليكن أول ما تتعهدون به أنفسكم، وتثابرون عليه من صالح أدبكم تناصف الحق بينكم، بتقديم أهل الفضائل والآثار المحموده منكم وتفخيم أمركم؛ فقد علمتم أن منكم المبرز الفائق الذي لا يُدرك شأوه ولا يوازي بلاؤه، حين كشف الإبلاء ضمائر القلوب وجلا مشتبّهات الظنون، فصرّح بالمحاربة بعد التقدم في الحجة، وفاءً بمؤكّد العهد وركوباً منه لهائل الخطر، غير هائب مع صحبة الحق ما برق لديه الناكس المخلوع ورعد، ولا مستوحش فيما تفرّد به إلى من تولى وأدبر، حتى أتى الغاية التي أجري إليها في الله عز وجل وفي خليفته، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكانفة والنصرة والحظ الجزيل والأثر المبين، ثوابهم واجب وحقهم لازم؛ ثم منكم من يحفظ لسلفه وأوّله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم، فإن الله — عز وجل — يقول في ذكر اليتيمين: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الكهف: ٨٢ الآية. وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يوسف: ٦ الآية. وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والذمام سنّة عليه في أخلاقه التي يرعاها ويحافظ عليها؛ كما أنه يرى وراثته التركة فريضة واجبة، فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل ما يتلون به أهل الغناء بأنفسهم، ثم يتلوهم من اقتدى [بهم] واهتدى بهديهم. والسابق المتقدم من اعتدّ ببلاء نفسه إلى بلاء سلفه، ثم يتبعه بعد المبلي بنفسه، ثم يتلوها المتوسل بآبائه، ثم الصاعد به هواه ورأيه، طبقة فطبقة؛ فليقصر كل امرئ منكم على المرتبة التي أحلّها بها سعيه، وليسلك إلى الزيادة فيها بالزيادة من نفسه؛ فإن من الفتوق العظيمة على أهل الدول ما ينزغ به الشيطان بينهم، ويكثر عندهم ما يكون منه، فيوافق

من الحيف للأنفس ما يجد به مساعاً إلى ما يروم من إيقاع الشحنة بينهم، وتثبيت الإحن في صدورهم، بعد التآزر والتناصر. ومتى يجمع المرء لمزية من فوقه، واغتراب من دونه كُفِيَ ما ترك. ولن تخلص نياتكم، وتسلم ضمائركم، حتى تمحصوا شكر ما أوليه إخوانكم، وتعتدوا ما نالهم شاملاً لكم، وتجنبوا طريقة من اقتصر بأمنيته على خاصته، وتعتب فيما أوتر به أهل الفضل دونه. وكفى عظة فيما نهاكم الله عنه من ذلك؛ يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنَمَّنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ النساء: ٣٢ الآية. ولا يلمس أحد مودته عن سوء نية بحسن مداراة في ظاهر، فإن الله مقلد كل امرئ ربة عمله ومطوقه طوق سريره. ولا يغدرن فيما يلزمه لإمامه؛ فإنه إنما يغدر في حظه ويخس قسمه، وينحس نفسه. ثم لا يقتصرن على استصلاحها حتى يتناول من كانت منته عليه من أقربيه وحسويه،^(٤) فإن يسير ما هو موعان من تأديتهم لا ينشب أن يتجاوز أدنى المراتب إلى أقاصيها، وقربها إلى متناهيها، حتى يستفيض شاملاً عاماً، بعد أن بدا محلاً خاصاً. واعلموا أن أمير المؤمنين متفقد من تثقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة، ما لا يتفقد به من سواكم؛ فإنه إن كان يُوجب على نفسه استصلاح الرعية وحملهم على ما فيه رشدهم وقوامهم، لما يلزمه من فضل العناية بالأخص والأولى فالأولى، فإن في أخلائكم من التقديم في التأديب والتعهد، وجوهاً من الضرر؛ منها: أنكم أولى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة، للطف محلكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين.

ومنها: أنكم يأنس بكم المؤمنون، ويقتدي بكم التابعون؛ فمتى قصرتم وأخللتم، اقتفى أثركم من نصبتهم له أعلاماً، ثم لم يكن لكم أن تزرروا عليه،

ولا أن تأخذوا فوق يده، بل كان قميناً أن يكون يسومكم الرضا بمثل ما سمعتموه، ثم تجري هذه العادة في الطبقات، حتى يطرد السياق، إلى أن يستفيض الفساد في حشو الناس وعامتهم، فلا تُغني قوة ولا حزم ولا شدة، إلا العجز والإضاعة؛ ثم يجد الأعداء مساعاً إلى الطعن والعيب، فلا يملكون أن يرهقوكم ويستولي عليكم الفشل؛ فإن الأيدي إنما تُبسّط بنفاذ العزائم، والعزائم إنما تنفذ بثبات الحجة، والحجة إنما تثبت إذا كانت عن الحق. وإذا أُضيع أول هذه الرسوم، التي رسم لكم أمير المؤمنين، تَبِعَتْهُ تواليه وشفَعَتْهُ لواحقه، ووجد العدو الملاحظ مكان العورة، مطمئناً في إهمال ما كان يُعَدُّ له من الغرة، ويتوفَّق به من مناهزة الفرصة، وليكن ما تُفَيضون فيه وتعدُّونه ظهيراً على طاعن إن طعن في دولتكم، ما ألهم الله أمير المؤمنين: من شمول رعيته بالعدل، وفرش الأمر في مضمراتها ومنقلبها، ورفع به عنهم من سير الجود، وبسط به يده من إثابة أهل البلاء، وتغمُّد الجرائم لأولي الزلل، والإبلاغ في دعاء من عاند وشاق إلى التوبة والإنابة، وإقالة العثرة بعد القدرة، والحقن لمباح الدماء، فلم تعلموه صَبْرَ محملاً، ولا هَتَكَ لأحدٍ ممن أظفره الله به سِتْراً، ولا وَقَفَهُ على عورة. ثم تولى الله أمير المؤمنين، في حروبه شرقاً وغرباً، التي أغناه الله عن الإطناب في وصف صنْع الله لكم فيها، لاستفاضة أخبارها في دهمائكم، مع ما أحب من مطالعته إياكم ببالغ أدبه وشافي عطفه، أن يتنكب من الإسهاب، في غير ما صمد له ورأى من تقرير أسماحكم وأذهانكم، لوعي ما التمس أن تَعُوهُ من تبصيركم حظكم، وتنبهكم على رشدكم. وحسبُ أمير المؤمنين في نفسه وفيكم الله، وكفى به مبيناً.

وإن أمير المؤمنين مع ما تقدم به إليكم لعلّ ثقة من حيطة الله خلافته التي جعلها عزاً لدينه وقواماً لخلقه، وأنه ليس بها ممن أدبر عن حقها اختلالٌ، بل من خلع ربقتها وأضاع حظه منها، جلب الخلة والحاجة وخسران الدنيا والآخرة. وإنما أتى المقصرون في إعظام حقها من ضعف الرؤية عن بلوغ ما تُفضي بهم إليه مصادر العواقب، وتؤديهم إليه رواجع ما قدّموا، فلا يكونون بعملهم غير متجاوزين بهمهم، وفيهم الذي هم فيه إلى ما يمنعه.^(٥)

واستديموا معشر المسلمين سابغ النعمة بحمد مؤليها والمتطوّل بها. وقد تروّن ما كنتم فيه قبلها وما آلت إليه حال من سلبها؛ ثم يُعقب الندامة حين لا مُستعَب ولا نظرة يمكن فيها استقالة الفارط بتقصير ولا هفوة زلل. وثقّوا من رعاية أمير المؤمنين محمود آثاركم، وما مضى من بلاء كل امرئ منكم، بما تطمئنون إليه وتتوقعون عادته، بأسنى ما ترتفع إليه آمالكم وتسمو إليه هممكم، إلى ما يدخر الله لمن تمسك بهداه، واعتصم بتقواه، وجاهد عن حقه، وافيًا بأمر عهده من جزيل ثوابه وكريم مآبه، إلى الدار التي هي أكبر درجات، وأكبر تفضيلاً.

أحبّ أمير المؤمنين أن يتعهدكم بعظة تنبّهكم على حظكم، وتثبت من بصائركم، وتقطع من طمع الشيطان وحزبه فيكم، لما يجب عليه من إرشادكم، ويرجو من تأدية حق الله عز وجل فيكم، ولما يرى من اتصالكم بحبله، وما يشمله من الصنيع فيما ولاكم الله به، وتولاه لكم.

وأمير المؤمنين يسأل الله الذي دلّ على الدعاء تطولاً، وتكفل بالإجابة حتماً، فقال عز وجل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر: ٦٠، أن يجمع على رضاه

أُلفتكم، وأن يصل على الطاعة حَبْلَكُمْ، وأن يمتّعكم بأحسن ما أودعكم من مَنَنِهِ، ويوزِعكم عليها من شكره، ما يواصل لكم مزيده، وأن يكفيكم كيد الكافرين، وحسد الباغين، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم بأفضل ما حُفِظ به إمامٌ هَدَى في أوليائه وشيعته، ويَحْمِل عنه ثقل ما حمّله منكم. وبالله يستعين أمير المؤمنين، على ما ينوي من جزائكم بالحسنى، وحمليكم على الطريقة المثلى، وبه يرضى ناصرًا ووليًا، وكفى بالله وليًا وكفى بالله نصيرًا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وللمأمون — لما كتبتُ إليه السيدة زُبَيْدة بعد مقتل ولدها الأمين خطابها الآتي تستعطفه:

كل ذنب يا أمير المؤمنين وإن عَظُم صغيرٌ في جَنب عفوك، وكل زلل وإن جَلَّ حقيرٌ عند صفحك. وذلك الذي عَوَّدك الله؛ فأطال مدَّتكَ، وتَمَم نعمتك، وأدام بك الخير، ورفع بك الشر.

هذه رُقعة الواله التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي المهمات لجميل الذكر، فإن رأيت أن ترحم ضعفي، واستكانتي، وقلة حيلتي، وأن تصل رحمي، وتحتسب فيما جعلك الله له طالبًا وفيه راغبًا فافعل، وتذكر مَنْ لو كان حيًّا لكان شفيعي إليك.

فكتب إليها المأمون:

وصلت رقعتك يا أمّاه، أحاطك الله وتولّاك بالرعاية. وقفتُ عليها وساءني — شهد الله — جميع ما أوضحتَ فيها، لكنَّ الأقدار نافذة، والأحكام جارية، والأمور متصرّفة، والمخلوقون في قبضتها، لا يقدرّون على دفاعها، والدنيا كلها إلى شتات، وكل حي إلى ممات، والغدر والبغي

حتف الإنسان، والمكر راجع إلى صاحبه. وقد أمرت بردّ جميع ما أخذ لك، ولم تفقدي من مضي إلى رحمة الله إلا وجهه. وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين؛ والسلام.

(٥) أحمد بن يوسف^(٦)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المنظوم والمنثور وهي: أما بعد، فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذي أحاط بكل شيء علماً، ونطق به خُبراً، وأتقنه حكمة وعلماً، وألف بين مختلفه ومتّفقه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدبير مشيئته ومبتدعه، وأنه أحد صمد، لا ضد له ولا ند، إذ قدّر له حاجته ثم شدّها ببلاغها إلى الغاية التي جعلها، فقال جل وعز: ﴿وَلِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ الحجر: ٢١، وحكى عن نجيّه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه: ٥٠، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ الإسراء: ١٢، ثم لم يكلف العباد من شكره كفاء نعمته، بل رضي منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدة عليهم بجزيل الحظ في دينهم ودنياهم؛ لغناه عن عبادتهم، واتساع قدرته بالتطول عليهم، مفتتحاً وخاتماً، وبادئاً وعائداً.

والحمد لله الذي اصطفى محمداً ﷺ، نبياً لرسالته، وائتمنه على وحيه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدّى إلى خلقه الرسالة، واستنقذهم من الضلالة، وصدّع بأمر ربه وجاهد في سبيله، ونصح لأُمَّته حتى أتاه اليقين من ربه، بعد استنارة الحق، وظهور الحجة، فصلّى الله عليه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله

بإذنه وسراجاً منيراً، قد تلافى من الهلكه، وجمع الألفة بعد الفُرقة، وأوضح الهدى بعد الدروس، ومعالم الرشd بعد الطموس، وكان بالمؤمنين رحيمًا. والحمد لله الذي قفَى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين، الهاديّ التقيّ، الطاهر الزكيّ، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعزَّ الله نصره، فسَدَّ ثُلُمَتَهُمْ، ورأبَّ صَدْعَهُمْ، وقلَّده خلافتَهُمْ، وجعله لكافة المسلمين غِيَاثًا ورحمة، وجعل ما أَلْهمه من العدل والإحسان إليهم، مَنَّةً عليه ورحمة ذَخَرها له، دون الخلفاء قبله، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة، وسياسة مَنْ تقدَّمه، ومنح الرعية من عطفه ونظره، ما لا يحمل عنهم أو به، ولا يؤدي عنهم شكره، إلا هو لا شريك له؛ وأحسنَ الله جزاء أمير المؤمنين ومثوبته، على صلة رحم رسول الله ﷺ، التي هي رحمه وقربته، واختياره لولاية عهده الأمير الرضي علي بن موسى — حفظه الله — حين أحمد سيرته، ورضي محبَّته، وعرف استقلاله، بما قلَّده في هديه، ودينه ووفائه، بما أكَّد الله به عليه، من عهد أمير المؤمنين — أيَّده الله — في اعتيامه مَنْ أزره وأساه بما شفع رأيه، وأنفذ تدبيره، حين همَّ لاستصلاح ما استرعاه الله، من أمور عباده، لما انتقى القائم بدعوته، ورئيس شريعته، الأمير ذا الرياستين — رحمه الله — فاتخذة مكاتفاً ظهيراً ووزيراً دون من سواه، فاتَّبع منهاج أمير المؤمنين — أيَّده الله — وسار بسيرته، شرقاً وغرباً، وغوراً ونجداً، موفياً بعهده، قائماً بدعوته، مقتفياً لأثره وسنته، فحسم الله به الأدواء، وقمع به الأعداء، من عتاة الأمم، وطواغيت الشرك، وأباد على يده، أهل الشقاق والنفاق، في كل أفق وطرف، بجدِّ أمير المؤمنين — أعزه الله — وبركة سياسته ودولته، ونُجَح سعي من قام بنصرة من قام بحقه، وأنار برهانه،

حتى توفاه الله عز وجل حين بلغ همته وغايته، وحُتِّمَ أجله، وانقطعت مدته، سعيداً حميداً، شهيداً فقيداً، عند إمامه أكرمه الله، وعند الخاصة والعامة، وكان من إجلال أمير المؤمنين، الحادث الذي نزل به، فأحيا آثاره، بوصف محاسنه، في مشاهدته ومجامعه، وترحمه عليه عند ذكره، وحفظه في لحُمته، وأهل حُرْمته، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته، ما أتمَّ به نعمته، عندنا وعندكم معشر الشيعة، فقد أصبح أمره بكم متصلاً، وموقعه من جماعتكم متمكناً، يقبضكم ما قبضه، ويسطكم ما بسطه من لومة المصيبة، وحسن العُقبى، وقد علمتم معشر أهل الحجا والنهي، والطاعة لله عز وجل وخليفته، وذوي الغباء والبلاء في دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حضر ممن امتحن الله قلبه بوفاء العهد والاستبصار في حق أمير المؤمنين — أبقاه الله — والمجاهدة دونه، والصبر على مواطن الصدق والأواء، والذب عن البيضة والحريم، والمتحمّلين للنَّصب، والمصائب التي انجلت، حتى كأن لم تكن، وبقي أجرها على الله عز وجل ومحمود ذكرها شائعاً في الناس.

إن نِعَمَ الله قد جلَّتْ ولَطُفَتْ، وَخَصَّتْ وَعَمَّتْ، وعلت وسمَّقت، وتمَّت ودامت، حتى قَصَّرنا عن موازينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سببٌ إلى مكافأة بلائه بالعمل، فنحن جدراء أن نجتهد في القول، ونُطِنِب في الوصف إن شاء الله جلَّ وعزَّ، فقد جعل ذكر النعم من أسباب الشكر، وقد جدَّد لنا أمير المؤمنين — أيده الله — من الحياة والكرامة، وجزيل الحيلة، وسَنِيَّ الرتبة التي قرئ بها عليكم كتابه ما يستغرق جهدنا، ويستفرغ وسعنا، فنرغب إلى الله عز وجل ولي الرغبة،

ومؤتي السؤل والطلبة، في إعانتنا على تأدية ما وجب له، فيما منحنا من فوائده ونحله، ثم نسترفدكم ونستعينكم على شكره، وإمدادنا بما بلغته طاقتكم في السعي له، فقد آدنا ثقل ما حَمَلْنَا، وثقل ما طَوَّقْنَا، وعُظِّمَتْ فاقتنا إلى استعمال القوي من الأنفس والحامّة، والخاصّة والعامة، في جزاء ما جَلَّلَ أمير المؤمنين فينا من سُنَّه، وشملنا من تالد أياديه وطارفها، وقديمها وحديثها، وكيف يوجد إلى موازاة أمير المؤمنين سبيل يبذل جهده، أو بلوغ حشد، فإنما نقتدي بهده، ونعشو بنوره في ديننا، وليس عَجْزُنَا عن أن نجزي حقه، بواضع عنا مئونة الدُّؤوب في التحري لتأديته، فإن الله عز وجل قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه، وجعله من أسائه: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨) وقد قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ النساء: ١٤٧، وقال تعالى: ﴿إِنْ تُقِرُّوْا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ التغابن: ١٧.

ولولا أن الله عز وجل رضىه لنفسه، لأجللناه عن التسمية؛ إذ كان أكثر ما نستعمله، ونعرفه في مكافأة مَنْ مَنَّ وَتَطَوَّلَ، ثم ثَنَى بذكر فضله في العباد، فإن الله تبارك وتعالى افتتح أول ما علَّم خلقه بالحمد، وجعله بدء كتابه، وخاتمة دعوة أهل جنته، فقال عز وجل: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس: ١٠، وخلق الله السموات والأرض، ومن برأ وذرا في الحياة ليلو عباده بشكره، وأعدَّ الجنة في الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم: ٧، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ آل عمران: ١٢٣؛ فجمل التقوى واقعة،

والشكر مرجوًا ليدل على ارتفاع رتبته، وعلو درجته عنده، وقال لنجيّه موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الأعراف: ١٤٤.

فلم يكلفه إلا أخذ ما أعطاه، والشكر على ما أتاه، وأخبر بعزته في العباد، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ سبأ: ١٣ ، فأية نعمة أجلُّ قدرًا، وأسنى أمرًا، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين — أيده الله — عند الأمير ذي الرياستين، ومراتبه التي رتبها، فإنه أعطاه رئاسة الحرب، ورئاسة التدبير، وعقد له على رأسهما علمًا في رواية دعوته، وقلده سيفهما وختمه بخاتم الخلافة، وخاتم الدولة، وجعل صلاته بين صاحب حرسه، وصاحب شرطته، ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما، أمامه وخلفه، وصير له الجلوس على الكرسي بحضرته، في صدر كل مجلس جلس، إلا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء، وقدمه في دخول دار الأمير راجبًا إلى أقصى مكان ينتهي إليه أحد من بني هاشم، لأنه منهم، وأعظمهم غناء عنهم، فسأه صاحب دعوته وسيفه على عدوه وبابه الذي يدخل إليه منه، وولاه خيوله في أقطار الأرض، ومقدمته بحضرته، وقلده من الثغور ما قد علمت، بما أفردته في عهده، إلى ما أنفذه من أمره، في جميع سلطانه ومملكه، من مشارق الأرض ومغاربها، وأين يأتي الوصف على ما فضله به، وقدمه وشرّفه على الناس كافة، ولكننا نخطر بذكره، ثم نكل السامعين إلى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته، تولى غسله وتكفينه، ومباشرته لجهازه، إلى حفرتة بيده، وقاسى من الغصص، وبرحاء الحزن، وإذراء العبرة، وإراقة الدمعة، ما حال بينه

وبين الكلام، وكاد يمنعه من القول والدعاء في صلاته عليه، من الحكم، وحفظ أهل الحرمة به رعايةً له فيهم، ووفاء بعهده من بعده، وأقرَّ خاصته، وقواده وعماله، وكتَّابه على مراتبهم، وحمد بحمده، وذمَّ بذمه، وجدَّد لجنده، وتلَّ^(٧) كريتته، نظرًا وعطفًا، فلم يبقَ عليه في إحياء ذكره، وبلوغ كل ما يحبه في حياته غايةً إلا أتى من ورائها؛ وأمر بقراءة فتوحه، كما كانت تُقرأ على عهده، وأضاف كل ما حدث من بعده إلى ما تقدَّم من سَعْيِهِ، وأخبر أنه كان سببه، والمفتتح به، وولَّى محمد بن الحسن خلافته، ونَصَّبه منصبه، وأقامه مقامه إلى أن جدَّد العهد لي، فاستخلفته على ما ولىَّ بحضرته. ثم تابعت كُتب أمير المؤمنين — أكرمه الله — بعد مصاب الأمير ذي الرياستين، بما لا يقارب التفضيل، والإطلاق والتفويض الذي كنتم سمعتم به وبلغكم، فلم يكن يرى وراءه مجارة، ولا فوقه مَصْعَدًا، حتى جدَّد لنا من كرامته، ما قد قرئ عليكم في كتابه، فبلغ بنا ما لم تكن الهمم تبلغه، والأمانى لتُحيط به، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقِّي في الفضل، إلى ما تنحسر من دونه الأبصار، وتنقطع دونه الآمال، وإنما اقتصصناه وذكرنا ما أبلانا واصطنع عندنا من بلائه بدعائنا إلى الله عز وجل وإلى طاعته بالعدل والإحسان إلى رعيته والنظر بالصفح، والأخذ بالفضل، والأمر بالمعروف، وصلة المروءة بالوفاء بالعهد، والشكر للمنن، ورعاية الأخلاق المحموده، وإحطاء أهلها، وإقامة سوقها، حتى تنافسوها وتشاخوا فيها، وصارت هي الذرائع إليه، والوسائل عنده، فلو تأمَّل متأمِّل أهل الزلفة، والأثرة لديه، لوجد الأخص فالأخص، والأعلى قدرًا عنده هو الأفضل دينًا ومروءة، فلو لم يكن في الحُظوة عنده إلا إيجابها لصاحبها صحة المحبة، والنزاهة عن كل

ظَنَّةً، لكان فيها أعظم الغبطة، وأعدل الشهادة والدلالة. وسنقص عليكم بما أخبرناكم عنه ما لا سبيل إلى جحده وإنكاره، بوضوح معالمه ومنائره؛ أَوَلَيْسَ المجاهد عن دين الله، والمحامي عن بيضة المسلمين، والمواقي لأغلظ عدوهم شوكة، وأخوفهم عداوة، والمُنَجِّح في بلادهم، بمن كان لا يرام، ولا يحاول لاستصعابه وشدة مقاساته، حتى أذعن جيغويه بالعبودية له، ثم أباح حريمه حين تمرد عليه، حتى بلغ السبي إلى ولده، وحاربونا به، وتغلغت خيوله، حتى توصَّلت إلى قُبَّتِهِ، ومنتهى عزه؟ أَوَلَيْسَ مُسَكِّن التَّهْيِيج بالمشرق، حتى خَبَت النيران فيه، وأذعن رؤساؤها وقادتها؟ أَوَلَيْسَ غازي بلاد بابل حين طغى أميرها، وبدَّل، ونكث ونقض، حتى اجْتَنَّت أرومته، وأباح حريمه، وأراح المسلمين من معرَّته؟ أَوَلَيْسَ سادَّ الثغور، ومُحَصِّن عوراتها، والمباشر لتدبيرها، والمُسْعِد المكايدة المُنَجِّح فيمن أرادها، وفكَّ العناة، من رِقِّ الإِسار، وناشر الرحمة على فقراء المسلمين وضعفائهم وأهل المسكنة، والخلعة منهم، وقاسِم الصدقات في أهلها، وعامِر الموسم ومحصنه من الآفات حيطة للمسلمين في حَجِّهم، وما يتقربون به إلى ربهم؟ وهل اقترن لأحد من الأئمة ما اقترن له في الملك والدين والعز، والتواضع والسعة، والبذل والقدرة، والعفو والغلظة، والليان في مواضعها، والنسك مع الهمة، والسطوة مع الإقالة؟ وهل ترك معشر الأولياء والإخوان في الدين غاية لم يسمُ بنا إلى شرفها، وعلى مراتبها، ومستزاد الحظ في عاجل وآجل، لم يُبَلِّغناه ونختار لنا خاصَّ مكرمته، ومدَّخر عاقبته؟ أرشدنا إلى الدين، وسلك بنا سبل الجنة، حاز لنا الملك، فلم يبق وراء ما ملكنا غاية، وورد بنا الحروب وساسها لنا، فلم يَدَعْ غايةً للتعليم والدراية، سُلِّط علينا

بسلطان الله الذي أتاه، فلم يدع غايةً في التقليد والفقه، فكم علّمنا الفضائل، ثم فضلنا بها. غلب لنا الأمام، ثم خوّلناها. علّمنا طرائق الشرف، ثم شرفنا بها. أخبرنا عن الأنبياء فكفانا مئونة التماسها، وأغنانا بما عنده فيها، أخذ على أيدينا الخير للرعية، فوهب لنا شكرها، وصدّق مقالتنا عند الشبهة، وأنفذ أمرنا في التدبير.

فيا أيها الإمام المنصور المهدي الرشيد، حُزّت فضائل الآباء، واهتديت بهدي الأنبياء، أنشرك عن الإسلام، فأنت القائم به الداعي له، والناصر لحقه؟ أم نشرك عن الأمصار، فأنت المفتتح لمتنعها عنوة، والمتطوّل على أهلها بالرحمة، والمنعطف عليهم بحسن الفائدة بعد ما هيجت منك سورة الغضب، فأطفأت نارها، وأخذت لهبها، وعدت على من سفّه، وأضاع حظّه؟ أم نشرك على المساجد، فأنت الذي أسستها على التقوى، وعمرتها بتلاوة القرآن، وطهرت المنابر وركبتها، تعلوها صائماً، وتنطق عليها صادقاً، وتدعو إلى الرشد عليها ناصحاً، وتختتم القرآن قبل أن تبدأها محسناً، وتتلو من قوارعه، ما تصيخ له الأسماع وتلين له القلوب؟ أم نشرك على البيت العتيق، والركن والمقام، والحجر وزمزم، ومشاعر الحج، وأنت ذبيت عنها، وأعدت إليها عهداً، في مبعث نبيها ﷺ، فأمنت النازع إليها، من كل فج عميق، والحالين بها من الركوع والسجود؟

أم نشرك عن رسول الله ﷺ، فيما حفظت فيه من عترته، بعفوك عن مجرمهم، ومضاعفتك نواب محسنهم، وإحيائك من أمرهم، ما كان قد اندرس وانطمس، بعد اللقاء بنبي الله ﷺ، وقد راعيت منه في قرابته وقرابتك، وذوي رحمه ورحمك، ما ضيّع الناس، ووصلت منهم ما كان

وصله؛ إذ كان الله عز وجل قد فرض صلة الأرحام، فكان أطوع خلق الله عز وجل فيما فرض عليه؟ أم نشكرك عن العوام؛ فقد ألّبت المسلمين ثوب الأمن، وأذقتهم طعم السعة والرفاهة، وعدلت بينهم بالإنصاف، وتولّيت دونهم النّصب، وآثرتهم الراحة؟ أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد؛ فأنت الذي رفعت منازلهم، ووفّرت عددهم، فلم يكن في دهر أحد من الخلفاء أسعد ولا أحظى منهم في سلطانك، بما بذلت لهم من المعاون، ووليتهم من الثغور والأمصار، وأدررت عليهم من الأرزاق والخواص؟ أم نشكرك عن الأحكام والسنن؛ فأنت الذي أنهجت سبيلها، فأوجبت فرضها، وناfst في أهلها؟ أم نشكرك عن الأعداء؛ فأنت الذي بدأتهم بالحجة، ودعوتهم إلى الفیئة والإنابة، ثم ثنّيت معقّبًا بالعفو، ونعشتهم بعد البؤس، وأنستهم من الوحشة؟ أم نشكرك على مكارم الأخلاق، وأنت الذي ثبّت وطأتها، ونفيت عنها أضدادها، ولو نَطَقْتُ بالفضل، لنطقت بشكرك، في إزالتك إياها عن اللّثام، وإخطائك من اعتزى إليها؟ أم نشكرك عن الثغور؛ فأنت الذي تمّمّتها، وحصّنت عوراتها؟ أم نشكرك عن السّلف؛ فأنت الذي أشدّت بفعالهم، وحفظتهم في أبنائهم؟ أم نشكرك عن بُرْد رسول الله ﷺ، وعن القضيبي الذي شخّص به، حتى جعلتهما زينتك، وسموت بهما في أعيادك، عند حشدك، على الطهر والزكاة، والنسك والتقوى؟

أم نشكرك عن المسلمين في رعايتك إياهم، وما تُرعيهم من جَنَابك، وتنفي عنهم من الآفات، وتُقِلُّ عنهم من جابرة الكفر، وتفضُّ من جيوش الشرك والنكث، وتفتح من الحصون المستعصبة، وتسهّل من

الطرق الوعرة؟ أم نشكرك عن تواضعك لله عز وجل ولصالح المسلمين طلباً للرفعة عند الله؟ أم نشكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبداً وقائداً ومنفذاً، وكان مأموراً فجعلته آمراً، وآلة للقوة فجعلت القوة له آلة؟
 فيا من اتصل شكره بشكر الله عز وجل ونعمته بنعمة الله تعالى، وطاعته بطاعة الله، فوهب الله لك شرف المنازل، ورقاك درج الفضائل، وجزاك الله عنا وعن غيرنا، مما شكر من ناطق أو صامت، جزيل الثواب ورفيع الدرجات، وأمتعك ما أتاك، وأمتع الأمة ما آتاهم منك، والحمد لله ذي الرغبات، ومتمم الصالحات، شكر الرب العالمين، فإنه مبلّغ طاقتنا، ومُنْتَهَى جهدنا، وبه نستعين على تأدية فرائضه، إنه لا يعين على ذلك إلا هو. أحببت أن نشكر إليكم أمير المؤمنين — أيده الله — إذ ورد عليّ من أنعامه وأفضاله، ما لا أبلغه بالفعل، وأن يكون ما اقتصصنا عليكم، داعياً لكم، إلى أن تشكروه عنا، وعن أنفسكم، وعن الإسلام والمسلمين، ورجوت بما وفقنا الله له، فيما شرحنا وأوضحنا، من الدلالة والبيان أن يكون مجتمعاً ينتفع به من حضرنا، ومن عسى أن يؤدّي إليه الخبر عنا، أو حدث بعدنا، وضنت بهذه المكرمة الرائعة، والمأثرة البارعة، التي ادخرها الله لأمر المؤمنين، أعز الله نصره، وأفرده بها، دون الأئمة والخلفاء، أن تمر بالأسماع صفحاً، وتجتاز على القلوب سهواً، حتى تؤكّد بالشواهد والبرهان، ليبقى ذكرها ونفعها في الخلوف والأعقاب، ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بأمر المؤمنين — مد الله في عمره — ألفتنا، وعلى طاعته أهواءنا وضمائنا، وأنالنا من الغبطة في دولته وسلطانه، ما لم تحوه شيعة إمام، ولا أنصار خليفة، أن يتم نور أمير المؤمنين، ويُعلي كعبه، ويمتّعنا ببقائه، حتى يبلغه سؤله وهمته في الاستكثار من البر وادخار الأجر، واستيجاب الحمد والشكر، وأن يلّم به

الشعث، ويرأب به الصدع، ويصلح على يديه الفساد، ويرتق به فتوق هذه الأمة، ويثخن سياسته ونكايته في عدوها، ويتابع الفتوح في بلدانهم حتى يؤتیه من نُجَح السعي، ورغائب الحظ في الدنيا، ما يجزل عليه ثوابه في الآخرة، وأرشد نجباءه وأصفياه، الذين يقول لهم: ﴿فَأَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران: ١٤٨.

ومن توقيعاته نقلاً عن كتاب الصولي:

وقَّع إلى عامل ظالم: «الحقُّ طريق واضح لمن طلبه، تهديه محجَّته، ولا تخاف عشرته، وتؤمن في السر مغبَّته، فلا تستقلنَّ منه ولا تعدلنَّ عنه؛ فقد بالغتُ في مناصحتك، فلا تحوجني إلى معاودتك، فليس بعد التقدمة إليك إلا سطوة الإنكار عليك».

ووقَّع في عناية بإنسان إلى بعض العمال: «أنا بفلان تام العناية، وله شديد الرعاية، وكنتُ أحب أن يكون ما أرعيتَه طرفك من أمره في كتابي مستودعاً سمعك من خطابي، فلا تعدلنَّ بعنايتك إلى غيره، ولا تمنحنَّ بعقدك سواه حتى تنيله إرادته وتتجاوز به أمنيته إن شاء الله».

وفي كتاب ابن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيء الكثير، فارجع إليه إن شئت.

(٦) رسائل سهل بن هارون^(٨)

من كلامه:

حكى الجاحظ قال: لقي رجل سهل بن هارون فقال: هب لي ما لا ضرر به عليك. فقال: وما هو يا أخي؟ قال: درهم. قال: لقد هوَّنت الدرهم

وهو طائع الله في أرضه لا يعصي، وهو عُشر العشرة، والعشرة عُشر المائة، والمائة عُشر الألف، والألف دية المسلم. ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هَوَّنَتْه؟ وهل يبوت الأموال إلا درهم على درهم؟! فانصرف الرجل، ولولا انصرافه لم يسكت.

وحكى دعبل الخزاعي الشاعر قال: أقمنا يوماً عند سهل بن هارون، وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع، فدعا بغذائه، فأَتَى بِصَحْفَةٍ فِيهَا مَرَقٌ تَحْتَهُ دِيكٌ هَرَمٌ، فَأَخَذَ كَسْرَةً وَتَفَقَّدَ مَا فِي الصَّحْفَةِ فَلَمْ يَجِدْ رَأْسَ الدِيكِ، فَبَقِيَ مَطْرَقًا، ثُمَّ قَالَ لِلْغَلَامِ: أَيْنَ الرَّأْسُ؟ قَالَ: رَمَيْتَ بِهِ. قَالَ: وَلَمْ؟ قَالَ: لَمْ أَظْنِكُ تَأْكُلَهُ! قَالَ: وَلَمْ أَظْنَنْتُ ذَلِكَ؟! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُمَقِّتُ مَنْ يَرْمِي بَرَجْلَهُ فَكَيْفَ بِرَأْسِهِ! وَلَوْ لَمْ أَكْرَهُ مَا صَنَعْتَ إِلَّا لِلطَّيْرَةِ وَالْفَأْلِ لَكَرِهْتَهُ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الرَّأْسَ رَيْئِيسٌ يُتَفَاعَلُ بِهِ، وَفِيهِ الْحَوَاسِ الْخَمْسُ، وَمِنْهُ يَصِيحُ الدِيكُ، وَلَوْ لَا صَوْتُهُ مَا أَرِيدَ، وَفِيهِ فَرْقُهُ الَّذِي يُتَبَرَّكُ بِهِ، وَعَيْنُهُ الَّتِي يُضْرَبُ بِصَفَائِهَا الْمِثْلُ فَيُقَالُ: شَرَابُ كَعِينِ الدِيكِ، وَدِمَاغُهُ عَجَبٌ لَوْ جَعَلَ الْكَلِيَّةُ، وَلَمْ أَرَعْظَمًا قَطُّ أَهْشَ تَحْتَ الْأَسْنَانِ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ بَلَغَ مِنْ نَبْلِكَ أَنْكَ لَا تَأْكُلَهُ، فَعَنْدَنَا مَنْ يَأْكُلُهُ، أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ طَرَفِ الْجَنَاحِ وَمِنْ رَأْسِ الْعُنُقِ؟! انْظُرْ أَيْنَ رَمَيْتَهُ. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي. قَالَ: أَنَا وَاللَّهِ أَدْرِي! إِنَّكَ رَمَيْتَ بِهِ وَاللَّهِ فِي بَطْنِكَ، فَاللَّهُ حَسِييْكَ.

ومن مؤلفاته كتاب البخلاء.

ولما صَنَّفَ سَهْلٌ كِتَابَهُ فِي الْبَخْلِ أَهْدَاهُ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَاسْتَمَاحَهُ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ: قَدْ مَدَحْتَ مَا ذَمَّهُ اللَّهُ، وَحَسَّنْتَ مَا قَبَّحَهُ اللَّهُ، وَمَا يَقُومُ بِفَسَادِ مَعْنَاكَ صِلَاحٌ لَفْظِكَ، قَدْ جَعَلْنَا ثَوَابَ مَدْحِكَ فِيهِ قَبُولَ قَوْلِكَ، فَمَا نَعْطِيكَ شَيْئًا.

وأثَّهم سهل بن هارون بالبخل وأورد له في ذلك قصص ونوادر، وعدّه الجاحظ من «متعالي البخلَاء وأشجاء العلماء» قال: ما علمت أن أحداً جرّد في البخل كتاباً إلا سهل بن هارون، وأبا عبد الرحمن الثوري، والبخل في الفُرس غالب في الجملة، غلبة الكرم على طبائع العرب، فاقتضى ذلك التفریط الذي رآه سهل في تبذير العرب، أن يُدلي لقومه بآرائه المفرطة في الاقتصاد والإمساك. وما شُهد قط تفریط إلا وإلى جانبه إفراط.

كتبه وطريقته في التأليف

كان سهل بن هارون منقطع القرين في صنوف العلم والآداب، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ كان يؤلّف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماع تصغي إليه، ولا القلوب تيمّم نحوه، ثم يؤلّف — كما قال عن نفسه — ما هو أنقص منه مرتبة وأقل منه فائدة، فينحله عبد الله ابن المقفع، أو سهل بن هارون، فيقبل الناس عليها، ويسارعون إلى نسخها. ويُقال إن طريقة سهل في كتابته طريقة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ لا يتكلّف لكلامه، فلا يشاهد فيه الناقد أثر التعمُّل، بل لا يكلف بغير إرسال النفس على سجيتها، فهو وابن المقفع والجاحظ على غرار واحد.

وقيل إن سهلاً كاتب سلاطين، والجاحظ مؤلف دواوين. وكان كلامه نعمة موسيقية تعرف انتهاء جملته من رنّتها بعد أن ملكت عليك مشاعرك، لا يحفل بالأسجاع إلا إذا جاءت عفوَ الخاطر، شأن بلغاء الصدر الأول. وكان يقول الشعر، وأكثر شعره مما أملاه قلبه، في غرض من أغراض المجتمع. وعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار، والكتب الكبار المجلدة، والسِّير الحسان

المولدة، والأخبار المدونة. ولقَّبه مرة بالكاتب، ولعل لقب الكاتب في شرفه أكبر من عالم. وذكره ابن النديم في البلغاء وقال: إنه شاعر مقل، وعده في الشعراء الكتَّاب. وقال: إنه كان ممن يعمل الأسفار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم هو وعبد الله بن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيدة. وشعره خمسون ورقة. أما الدهشة ففي تأليفه، فله ديوان رسائله، وكتاب النمر والثعلب، وكتاب أسباسيوس (أسانوس) في اتخاذ الإخوان، كتاب أسد بن أسد، كتاب سحر العقل، كتاب تدبير الملك والسياسة، كتاب إلى عيسى بن أبان في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغزالين، كتاب ندود وودود ولدود، كتاب الرياض، كتاب ثعلة وعفراء، (وفي رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة، قلده في أبوابه وأمثاله.

وقال المسعودي: يزيد عليه — أي على كليلة ودمنة — في حسن نظمه، وقد صنفه للمأمون. ومن تأليفه: كتاب الهزلية والمخزومي، كتاب الرواق والعذراء، إلى غير ذلك من المصنفات التي لم تُبقِ الأيام — ويا للأسف! — على واحد منها فيما علمنا.

دخل سهل على الرشيد وهو يضاحك المأمون؛ فقال: اللهم زده من الخيرات، وابسط له من البركات، حتى يكون في كل يوم من أيامه مريباً على أمسه، مقصراً عن غده. فقال الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لا يعجزه القول؟ فقال سهل: يا أمير المؤمنين، ما ظننتُ أن أحداً تقدمني إلى هذا المعنى. قال: بل أعشى همدان حيث يقول:

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي لُؤَيٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرُ مَنْكَ أَمْسِ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدِ شَمْسِ

وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧هـ، وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال: إن سجّاعي الخطب، ومحبّري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلامٌ يتصوّر دُرّاً، ويُحِيلُه المنطق السّرّيّ جوهرًا، لكان كلامهما، والمنتقى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديته وتوقيعاته في كُتُبِه، فذمين عيّن، وجاهلّين أميّين، ولقد عُمرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم، وأنهم محض الأنام، ولُبّاب الكرام، ومِلح الأيام، عِشْقُ منظرٍ، وجودة مخبرٍ، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، واكتمال خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور من خصالهم، كثير أيام من سواهم من لدن آدم أبيهم إلى النفخ في الصور، وابتعاث أهل القبور، حاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين، لما باهت إلا بهم، ولا عوّلت في الفخر إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورفق ميثاقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وتهذيب أغراضهم، واكتمال خلال الخير فيهم، إلى ملء الأرض مثلهم في جنب محاسن المأمون كالنّفْثَةِ (التفلة) في البحر، والخردلة في المَهْمَةِ القُفْرِ. قيل: وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختتم بالنّصْفَةِ الحقّة، ومال به سهل إلى المصانعة، وخرّجه على نحو مبالغة الفُرس، في الإطراء والملق لولي الأمر.

وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقل سهل بن هارون؛ وقد دخل عليه يومًا والناس على مراتبهم، فتكلّم المأمون بكلام ذهب فيه كلّ مذهب،

فلما فرغ من كلامه أقبل سهل بن هارون على الجمع فقال: ما لكم تسمعون ولا تُعَوِّن، وتشاهدون ولا تفقهون، وتفهمون ولا تتعجبون، وتتعجبون ولا تُنصِفون! والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل، عَرَبُكُمْ كَعَجَمِكُمْ، وَعَجَمُكُمْ كَعَبِيدِكُمْ، ولكن كيف يُعَرِّف بالدواء من لا يشعر بالداء! فرجع المأمون فيه إلى الرأى الأول؛ وعرف أنه الرجل كل الرجل، فقرَّبه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده. ومن كلام له في كتابه ثعلة وعفرة:

اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدِّمًا قبل الذي تجودون به من تفضُّلكم، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء في الفريضة شاهدٌ على وهن العقيدة، وتقصير الرويَّة، ومُضِرٌّ بالتدبير، ومُخِلٌّ بالاختيار، وليس في نَفْعٍ تُحَمَّدُ به عوض من فساد المروءة، ولزوم النقيصة.

وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر:

عَدُوٌّ تَلَادَ الْمَالَ فِيمَا يَنْوِبُهُ مَنْوَعٌ إِذَا مَا مَنَعُهُ كَانَ أَحْزَمًا
مُذَلِّلٌ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ غَيْرَ أَنْ تَرَى مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنَ الْعَيْشِ مَغْنَمًا

وكتب إلى صديق له أبلً من ضعف:

بلغني خبر الفترة في إمامها وانحسارها، والشكاة في حلوها وارتحالها، فكاد يشغل القلق بأوله عن السكون لآخره، وتذهل الحيرة في ابتدائه، عن المسرة في انتهائه، وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياحاً للأولى، وارتياحاً للآخرى.

5

أصلح الله أمركم وجمع شملكم وعلمكم الخير وجعلكم من أهله. قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم، لا تُسرعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياءً من الفرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمّة فتأمل عيًّا؛ فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب. وقبيح أن تنهى مرشداً وأن تُغري بمشفق. وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإصلاح فاسدكم، وإبقاء النعمة عليكم. وما أخطأنا سبيل حُسن النية فيما بيننا وبينكم. وقد تعلمون أننا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم، ولأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم؛ ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود: ٨٨، فما كان أحقنا منكم في حرمتنا بكم أن ترعوا حقَّ قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم؛ فلا العذر المبسوط بَلَعْتُمْ، ولا بواجب الحرمة قمتم. ولو كان ذكر العيوب يُراد به فخرٌ لرأينا في أنفسنا من ذلك شغلاً.

عَبْتُمُونِي بِقَوْلِي لَخَادِمِي: أَجِيدِي الْعَجِينَ فَهُوَ أَطْيَبُ لَطْعَمِهِ وَأَزِيدُ فِي رِيعِهِ^(٩) وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَمْلِكُوا الْعَجِينَ^(١٠) فإنه أحد الرَبَّيعِينَ. وَعَبْتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ ثَمِينٌ مِنْ فَاكِهِةٍ رَطْبَةٍ نَقِيَةٍ وَمِنْ رَطْبَةٍ غَرِيبَةٍ عَلَى عَبْدٍ نَهَمٌ وَصَبِيٌّ جَشَعٌ وَأَمَةٌ لِكَعَاءٍ^(١١) وزوجة مُضِيعَةٍ.

وَعَبْتُمُونِي بِالْخَتْمِ وَقَدْ خَتَمَ بَعْضُ الْأُئِمَّةِ عَلَى مِزُودِ سَوِيْقٍ ^(١٢) وَعَلَى كَيْسِ فَارِغٍ. وَقَالَ: طِينَةُ خَيْرٍ مِنْ طَيِّئَةٍ، فَأَمْسَكْتُمْ عَمَّنْ خَتَمَ عَلَى لَا شَيْءٍ، وَعَبْتُمْ مِنْ خَتَمٍ عَلَى شَيْءٍ.

وَعَبْتُمُونِي أَنْ قُلْتُ لِلْغُلَامِ: إِذَا زِدْتَ فِي الْمَرْقِ فَزِدْ فِي الْإِنْضَاجِ لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّائِثِ بِاللَّحْمِ طِيبُ الْمَرْقِ.

وَعَبْتُمُونِي بِخُصْفِ النَعْلِ ^(١٣) وَبِتَصْدِيرِ الْقَمِيصِ، ^(١٤) وَحِينَ زَعَمْتُ أَنْ الْمَخْصُوفَةَ مِنَ النَعْلِ أَبْقَى وَأَقْوَى وَأَشْبَهَ بِالشَّدِّ، وَأَنْ التَّرْقِيعَ مِنَ الْحَزَمِ وَالتَّفْرِيطِ مِنَ التَّضْيِيعِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَرْقِعُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ: لَوْ أَهْدَيْتُ إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبَلْتُ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ. وَقَالَتِ الْحَكَمَاءُ: لَا جَدِيدَ لِمَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْخَلْقَ. وَبَعَثَ زِيَادٌ رَجُلًا يَرْتَادُ لَهُ مُحَدَّثًا، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا، فَأَتَاهُ بِهِ مُوَافِقًا فَقَالَ لَهُ: أَكُنْتَ بِهِ ذَا مَعْرِفَةٍ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي يَوْمٍ قَائِظٍ يَلْبَسُ خَلْقًا وَيَلْبَسُ النَّاسُ جَدِيدًا، فَتَفَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلَ الْجَدِيدِ فِي مَوْضِعِهِ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَسَمًا بِهِ مَوْضِعًا كَمَا جَعَلَ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجُلًا وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا. وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ بِالسَّمِّ وَأَمَاتَ بِالْدَوَاءِ وَأَغْصَصَ بِالْمَاءِ. وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْإِصْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِيَيْنِ كَمَا زَعَمُوا أَنَّ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ. وَقَدْ جَبَرَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ يَدَ عَنَزٍ، وَأَمَرَ مَالِكُ بْنُ أَنْسٍ بِفَرْكِ النَعْلِ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَكَلَ بَيْضَةً فَقَدْ أَكَلَ دَجَاجَةً. وَلَبَسَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ جِلْدَ أَضْحِيَّةٍ. وَقَالَ رَجُلٌ لِبَعْضِ الْحَكَمَاءِ: أُرِيدُ أَنْ أَهْدِيَ إِلَيْكَ دَجَاجَةً. فَقَالَ: إِنْ كَانَ لَا بَدَّ فَاجْعَلْهَا بَيُوضًا.

وَعَبْتُمُونِي حِينَ قُلْتُ: مَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَوَاضِعَ السَّرْفِ فِي الْمَوْجُودِ الرَّخِيسِ لَمْ يَعْرِفْ مَوَاضِعَ الْاِقْتِصَادِ فِي الْمَمْتَنَعِ الْغَالِي. وَلَقَدْ أَتَيْتُ بِهَاءٍ لِلْوَضُوءِ عَلَى

مبلغ الكفاية وأشد من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء وإلى التوفير عليها من وضیعة^(١٥) الماء وجدت في الأعضاء فضلاً عن الماء، فعلمت أن لو كنت سلكت الاقتصاد في أوائله لخرج آخره على كفاية أوله، ولكان نصيب الأول كنصيب الآخر، فعبتموني بذلك وشنّعتم عليّ؛ وقد قال الحسن وذكر السرف: أما إنه ليكون في الماء والكلاء، فلم يرضَ بذكر الماء حتى أردفه الكلاء. وَعَبْتُمُونِي أَنْ قَلْتُ: لَا يَغْتَرَّنَ أَحَدُكُمْ بِطُولِ عَمْرِهِ وَتَقْوِيْسِ ظَهْرِهِ وَرِقَّةِ عَظْمِهِ وَوَهْنِ قُوَّتِهِ، وَأَنْ يَرَى نَحْوَهُ أَكْثَرَ ذُرِّيَّتِهِ، فَيَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى إِخْرَاجِ مَالِهِ مِنْ يَدِهِ وَتَحْوِيلِهِ إِلَى مَلِكٍ غَيْرِهِ وَإِلَى تَحْكِيمِ السَّرْفِ فِيهِ وَتَسْلِيْطِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّهُ يَكُونُ مَعْمَرًا وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَمَمْدُودًا لَهُ فِي السَّنِّ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُرْزَقَ الْوَلَدَ عَلَى الْيَأْسِ وَيَحْدُثَ عَلَيْهِ مِنْ آفَاتِ الدَّهْرِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ وَلَا يَدْرِكُهُ عَقْلٌ، فَيَسْتَرِدُّهُ مِمَّنْ لَا يَرِدُهُ، وَيُظْهِرُ الشُّكُوى إِلَى مَنْ لَا يَرْحَمُهُ أَصْعَبَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْطَلْبُ وَأَقْبَحَ مَا كَانَ بِهِ أَنْ يَطْلُبَ، فَعَبْتُمُونِي بِذَلِكَ؛ وَقَدْ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: اْعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا.

وَعَبْتُمُونِي بِأَنْ قَلْتُ: بِأَنَّ السَّرْفَ وَالتَّبْذِيرَ إِلَى مَالِ الْمَوَارِيثِ وَأَمْوَالِ الْمُلُوكِ، وَأَنْ الْحَفْظَ لِلْمَالِ الْمَكْتَسَبِ وَالْغِنَى الْمَجْتَلِبِ، وَإِلَى مَنْ لَا يُعَرِّضُ فِيهِ بَذَاهِبَ الدِّينِ وَاهْتِصَامَ الْعَرِضِ وَنَصَبَ الْبَدَنِ وَاهْتِمَامَ الْقَلْبِ أَسْرَعُ، وَمَنْ لَمْ يَحْسَبْ نَفَقَتَهُ لَمْ يَحْسَبْ دَخْلَهُ، وَمَنْ لَمْ يَحْسَبِ الدَّخْلَ فَقَدْ أَضَاعَ الْأَصْلَ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لِلْغِنَى قَدْرَهُ فَقَدْ أَوْذَنَ بِالْفَقْرِ وَطَابَ نَفْسًا بِالذَّلِّ.

وَعَبْتُمُونِي بِأَنْ قَلْتُ: إِنْ كَسَبَ الْحَلَالُ يَضْمَنُ الْإِنْفَاقَ فِي الْحَلَالِ، وَإِنْ الْخَبِيثُ يَنْزِعُ إِلَى الْخَبِيثِ، وَإِنْ الطَّيِّبُ يَدْعُو إِلَى الطَّيِّبِ، وَإِنْ الْإِنْفَاقُ فِي

الهوى حجاب دون الهدى؛ فعبتم عليّ هذا القول، وقد قال معاوية: لم أرَ تبذيراً قط إلا وإلى جنبه حقٌّ مُضَيِّعٌ. وقد قال الحسن: إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فيما ينفقه؛ فإن الخبيث إنما يُنْفِقُ في السرف. وقلت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر مني لكم وأنتم في دار الآفات، والجوائح غير مأمونات: فإن أحاطت بهال أحدكم آفةٌ لم يرجع إلا إلى نفسه. فاحذروا النَّقَمَ باختلاف الأمكنة؛ فإن البلية لا تجري في الجميع إلا بموت الجميع.

وقد قال عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — في العبد والأمة والشاة والبعير: فرّقوا بين المنايا. وقال ابن سيرين لبعض البّحرين: كيف تصنعون بأموالكم؟ قالوا: نُفَرِّقُهَا فِي السَّفَنِ، فَإِنْ عَطِبَ بَعْضُ سِلْمَ بَعْضٍ. ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أموالنا في البحر. قال ابن سيرين: تحسّبها خرقاء وهي صَنَاعٌ.^(١٦)

وَعِبْتُمُونِي بِأَنْ قُلْتُ لَكُمْ عِنْدَ إِشْفَاقِي عَلَيْكُمْ: إِنْ لِلْغِنَى لِسُكْرًا وَلِلْمَالِ لِنَزْوَةٍ،^(١٧) فَمَنْ لَمْ يَحْفَظِ الْغِنَى مِنْ سُكْرِهِ فَقَدْ أَضَاعَهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْتَبِطِ الْمَالِ خَوْفَ الْفَقْرِ فَقَدْ أَهْمَلَهُ.

فَعِبْتُمُونِي بِذَلِكَ وَقَدْ قَالَ زَيْدُ بْنُ جَبَلَةَ: لَيْسَ أَحَدٌ أَقْصَرَ عَقْلاً مِنْ غِنَى أَمِنَ الْفَقْرَ، وَسُكْرَ الْغِنَى أَكْثَرُ مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ. وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد بن برمك:

وَهُوبُ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يُنُوبُهُ مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْزَمًا
وَعِبْتُمُونِي حِينَ زَعَمْتُمْ أَنِّي أَقْدَمُ الْمَالِ عَلَى الْعِلْمِ، لِأَنَّ الْمَالَ بِهِ يُفَادِ الْعِلْمَ
وَبِهِ تَقُومُ النَّفْسُ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ فَضْلَ الْعِلْمِ، فَهُوَ أَصْلٌ وَالْأَصْلُ أَحَقُّ

بالتفضيل من الفرع، فقلتم: كيف هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء: الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال: العلماء. قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر ما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجهل الأغنياء بحق العلم. فقلت: حالهما هي القاضية بينهما. وكيف يستوي شيءٌ حاجةً العامة إليه وشيءٌ يغني فيه بعضهم عن بعض!

وكان النبي ﷺ يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم والفقراء باتخاذ الدجاج. وقال أبو بكر رضي الله عنه: إني لأبغض أهل بيتٍ ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد. وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لولده: إذا بسط الله لك الرزق فابسط، وإذا قبض فاقبض.

وَعِبْتُمُونِي حِينَ قُلْتُ: فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استعملت وإن استغني عنها كانت عُدَّة. وقد قال الحصين بن المنذر: وددتُ أن لي مثل أحد ذهباً لا أنتفع منه بشيء. قيل له: فما كنت تصنع به؟ قال: لكثرة من كان يَحْدُثُنِي عليه؛ لأن المال مخدوم. وقد قال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى؛ فلو لم يكن فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك وذُلٌّ في قلب عدوك، لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً.

ولسنا ندعُ سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب اللهو؛ ولستم عليَّ تردُّون ولا رأيي تفنِّدون، فقدَّموا النظر قبل العزم، وأدركوا مالكم قبل أن تدركوا مالكم، والسلام عليكم.

وسهلٌ هو القائل:

تَقَسَّمَنِي هَمَّانٌ قَدْ كَسَفَا بَالِي وَقَدْ تَرَكََا قَلْبِي حَمَلَةً بَلْبَالِ
هَمَّا أَذْرِيَا دَمْعِي وَلَمْ تُذَرِ عَبْرَتِي رَهِينَةُ خَدَّاتِ سِمَطٍ وَخَلْخَالِ

ولا قهوة لم يبقَ منها سوى الذي
تحلل منها جُرمُها وتماسكت
ولكننا أبكي بعين سَخِيَّةٍ
فراق خليل لا يقوم به الأسَى
فوا حسرتي حتَّى مَتَى القلبُ مُوجِعٌ
وما الفضل إلا أن تجودَ بنائلٍ
على أن تُحاكي النور في رأس ذِيَالٍ
لها نفسٌ معدوم على الزَّمن الخالي
على حَدَث تَبْكِي له عينٌ أمثالي
وخَلَّةٌ حُرٌّ لا يقومُ بها مالي
لنفر خليل أو تعذر إفضال
وإلا لقاء الخَلِّ ذي الخلقِ العالي

وهو القائل:

إذا امرؤُ ضاقَ عني لم يَضِقْ خُلُقِي
لا أطلبُ المالَ كي أغنى بفضلته
مَنْ أن يراني غنيًّا عنه باليأسِ
ما كان مَطْلَبُهُ فَقْرًا مِنَ الناسِ

(٧) عمرو بن مسعدة

كان كاتبًا بليغًا، جَزَلَ العبارة وجيزها، شديد المقاصد، فضله شائع،
ونبله ذائع؛ أشهر من أن ينْبَه عليه، أو يُدَلَّ بالوصف إليه؛ قد وليَ للمأمون
الأعمال الجليلة، وألحق بذوي المراتب النبيلة. ^(١٨) وسماه بعض الشعراء
وزيرًا لعظم منزلته لا لأنه كان وزيرًا، وهو قوله:

لقد أسعد الله الوزير ابن مسعدة
وبُثَّ له في الناس شكرٌ ومحمدُه

فهو كما كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضي — وقد احتاج
إلى رجل يوليه بعض الأعمال — فقال: إنه يريد رجلًا جامعًا لخصال الخير،
ذا عفة ونزاهة طعمة؛ ^(١٩) قد هذَّبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس
بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه، إن أوْتِمن على الأسرار قام بها، وإن
قُلِدَّ مُهما من الأمور أجزأ ^(٢٠) فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، تُعقده الرزانة،

وُيُسَكِّتُهُ الحِلْمَ، قَدْ فُرِّدَ^(٢١) عَنْ ذِكَاةٍ وَفُطْنَةٍ، وَعُضِّ^(٢٢) عَلَى قَارِحَةٍ مِنَ الْكِمَالِ، تَكْفِيهِ اللَّحْظَةَ، وَتُرْشِدُهُ السَّكِّتَةَ، قَدْ أَبْصَرَ خِدْمَةَ الْمُلُوكِ وَأَحْكَمَهَا، وَقَامَ فِي أُمُورِ فَحْمَدَ فِيهَا، لَهُ أُنَاةُ الْوُزَرَاءِ، وَصَوْلَةُ الْأُمَرَاءِ، وَتَوَاضَعُ الْعُلَمَاءِ، وَفَهْمُ الْفُقَهَاءِ، وَجَوَابُ الْحُكَمَاءِ، لَا يَبِيعُ نَصِيبَ يَوْمِهِ بِحَرَمَانِ غَدِهِ، يَكَادُ يَسْتَرْقِ قُلُوبَ الرِّجَالِ بِحَلَاوَةِ لِسَانِهِ، وَحُسْنِ بَيَانِهِ، دَلَائِلُ الْفَضْلِ عَلَيْهِ لَائِحَةٌ، وَأَمَارَاتُ الْعِلْمِ لَهُ شَاهِدَةٌ، مُضْطَلَعًا بِمَا اسْتَنْهَضَ، مُسْتَقْلَلًا بِمَا حَمَلَ.

ومن كلام عمرو بن مسعدة:

أَعْظَمُ النَّاسِ أَجْرًا، وَأَنْبَهُهُمْ ذِكْرًا، مَنْ لَمْ يَرْضَ بِمَوْتِ الْعَدْلِ فِي دَوْلَتِهِ، وَظَهَرَ الْحِجَّةَ فِي سُلْطَانِهِ، وَإِيصَالَ الْمَنَافِعِ إِلَى رَعِيَّتِهِ فِي حَيَاتِهِ، وَأَسْعَدُ الرِّعَاةِ مَنْ دَامَتْ سَعَادَةُ الْحَقِّ فِي أَيَّامِهِ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ وَانْقِرَاضِهِ.

وَقَالَ: الْخَطُّ صُورَ الْكُتُبِ، تُرَدُّ إِلَيْهَا أَرْوَاحُهَا.

وَقَالَ: الْخَطُّ صُورَةُ ضَمِيلَةٍ لَهَا مَعَانٍ جَلِيلَةٌ، وَرَبِمَا ضَاقَ عَنِ الْعَيُونِ، وَقَدْ مَلَأَ أَخْطَارَ الْفَنُونِ.

وَقَالَ: لَا تَسْتَصْحَبْ مَنْ يَكُونُ اسْتِمْتَاعُهُ بِمَالِكَ وَجَاهِكَ، أَكْثَرَ مِنْ إِمْتَاعِهِ لَكَ بِشُكْرِ لِسَانِهِ وَفَوَائِدِ عِلْمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ غَايَتُهُ الْإِحْتِيَالُ عَلَى مَالِكَ وَإِطْرَائِكَ فِي وَجْهِكَ، فَإِنْ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا رَدِيءُ الْغَيْبِ، سَرِيعًا إِلَى الذَّمِّ.

وَكُتِبَ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ إِذَا غَرَسَ سَقَى، وَإِذَا أَسَسَ بَنَى، لَيْسَتْ تَشِيدُ أَسْسُهُ، وَيَجْتَنِي ثَمَارُ غَرْسِهِ، وَثَنَاؤُكَ عِنْدِي قَدْ شَارَفَ الدَّرُوسَ، وَغَرَسَكَ مَشَفَّ عَلَى الْيَبُوسِ، فَتَدَارِكُ بِنَاءَ مَا أَسَسْتَ، وَسَقِي مَا غَرَسْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَكُتِبَ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي شَخْصٍ يَعْزُّ عَلَيْهِ:

أما بعد، فموصّل كتابي إليك سالم والسلام. أراد قول الشاعر:
يُديرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأُدِيرُهُمْ وَجِلْدَةُ بَيْنِ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ
أي يحلّ مني هذا المحلّ.

وكتب إلى المأمون في رجل من بني ضبّة يستشفع له بالزيادة في منزلته
وجعل كتابه تعريضاً:

أما بعد، فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطوّلك عليّ، في إلحاقه
بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في
مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعديّ طاعته، والسلام.

فكتب إليه المأمون: «قد عرفنا توطئتك له، وتعريضك لنفسك، وأجبتك
إليهما، ووافقناك عليهما». وقوله: «إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب
المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعديّ طاعته»، من الكلام السري الذي يدل على
مبلغ عمرو وبُعد غوره في السياسة ووقوفه على روح عصره ونفسية الخلفاء.

قدم رجل من أبناء دهاقين^(٢٣) قريش، على المأمون لِعِدَّةٍ سَلَفَتْ مِنْهُ،
فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون، فقال لعمرو بن مسعدة:
توصّل مني رقعة إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك عليّ
نعمتان. فكتب: «إن رأى أمير المؤمنين أن يفكّ أسر عبده من ربة المطل
بقضاء حاجته، أو يأذن له بالانصراف إلى بلده فَعَلَ إن شاء الله».

فلما قرأ المأمون الرفعة دعا عمرًا فجعل يَعْجَبُ من حسن لفظها، وإيجاز
المراد. فقال عمرو: فما نتيجتها يا أمير المؤمنين؟ قال: الكتاب له في هذا
الوقت بما وعدناه، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه، وبجائزة مائة ألف
درهم، صلة عن دناءة المطل، وسماجة الإغفال.

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه بالبلاغة وقدره أهلها حقَّ قدرهم، دَعَّ ما هنالك من نفس ما أَحَبَّتْ إلا الجود والعطاء.

ومن حكم عمرو بن مسعدة:

العبودية عبودية الإخاء، لا عبودية الرق. الودُّ أعطف من الرِّحم. إن الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة. عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرخاء، وعُدَّة للبلاء. مثْلُ الإخوان مثْلُ النار، قليلها متاع، وكثيرها بوار. النفس بالصديق، آنسُ منها بالعشيق، وغَزَلُ المودة، أرق من غزل الصبابة. من حقوق المودة، عفو الإخوان، والإغضاء عن تقصير إن كان. ذكر رجل رجلاً فقال: حَسْبُكَ أَنَّهُ خُلِقَ كما تشتهي إخوانه. المودة قرابة مستفادة. ما تواصل اثنان فدام تواصلهما، إلا لفضلهما أو فضل أحدهما. أسرع الأشياء انقطاعاً مودة الأشرار. المحروم من حُرْمِ صاحبي الإخوان. لقاء الخليل شفاء الغليل. قلة الزيارة، أمان من الملالة. إخوان السوء كشجر النار يُحرق بعضه بعضاً. علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخِّرَ الجواب، ولا يتبدى بالكتاب. لا يفسدَنَّ الظن على صديق قد أصلحك اليقين له. من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس، أثمرت مودته ندماً. إذا قدَّمتَ الحرمة، تشبَّهتَ بالقرابة. العتاب حياة المودة. ظاهر العتاب خيرٌ من باطن الحقْد. ما أكثر مَنْ يُعاتَب لطلب علة، ويبقى الود ما بقي العتاب. كُموُن الحقْد في الفؤاد ككمون النار في الزناد. القريب بعيد بعداوته، والبعيد قريب بمودته. لا تأمنَنَّ عدوك وإن كان مقهوراً، واحذره وإن كان مفقوداً، فإن حدَّ السيف فيه وإن كان مغموداً. لا تتعرض لعدوك في دولته، فإنها إذا زالت كفتك مئونه. نُصح الصديق تأديب، ونُصح العدو تأنيب.

روى البيهقي قال: أخبرنا بعض أصحابنا قال: شهدت المأمون يوماً وقد خرج من باب البستان ببغداد فصاح به رجل بصري: يا أمير المؤمنين، إني تزوجت بامرأة من آل زياد، وإن أبا الرازي فرّق بيننا وقال: هي امرأة من قريش! قال: فأمر عمرو بن مسعدة فكتب إلى أبي الرازي: إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادة وخلعك إياها إذ كانت من قريش؛ فمتى تحاكت إليك العرب؟ لا أم لك في أنسابها، ومتى وكلتك قريش يا بن اللخناء بأن تلصق بها من ليس منها؟ فخل بين الرجل وامرأته، فلئن كان زياد من قريش، إنه لابن سمية بغي عاهرة، لا يفتخر بقرابتها، ولا يتناول بولادتها. ولئن كان ابن عبيد، لقد باء بأمر عظيم، إذ ادّعى إلى غير أبيه، لحظ تعجّله، ومُلك قهره.

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عناية إلى بعض العمال في قضاء حقه، وأن يختصر كتابه ما أمكنه، حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد، لا زيادة عليه، فكتب عمرو:

كتابي إليك كتاب واثق بمن كتبت إليه، معني بمن كتبت له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله.

وكتب إلى بعض الرؤساء، وقد تزوّجت أمه فسأه ذلك، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها، وذهب عنه ما كان يجده. وقيل: إن هذه الرسالة من إنشاء ابن العميد وهي:

الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة، وهدانا لسر العورة. وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة، ومنع من عضل الأمهات، كما منع من وأد البنات، استنزلاً للنفوس الأبية، عن الحمية حمية الجاهلية، ثم عرّض

لجزيل الأجر، مَنْ استسلم لواقع قضائه، وعوّض جليل الذخر مَنْ صَبَرَ على نازل بلائه، وهَنَّاكَ الذي شرح للتقوى صدرك، ووسّع في البلوى صبرك، وألهمك من التسليم لمشيئته، والرضا بقضيته، ما وفّقك له من قضاء الواجب في أحد أبويك، ومَنْ عَظُم حَقُّه عليك، وجعل الله تعالى جَدُّه ما تجرّعتُه من أنف، وكظمته من أسف، معدودًا فيما يعظم به أجرك، ويجزل عليه ذورك، وقرّن بالحاضر من امتعاضك بفعلها، المنتظر من ارتماضك بدفنها، فتستوفي بها المصيبة، وتستكمل عنها المثوبة، فوصل الله لسيدي ما استشعره من الصبر على عُرسها، بما يكتسبه من الصبر على نفسها، وعوّضه من أسرة فرشها، أعواد نعشها، وجعل تعالى جدّه ما يُنعم به عليه بعدها من نعمة، معرّى من نقمة، وما يُؤلّيه بعد قبضها من منحة، مُبرّأ من محنة، فأحكام الله تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم في العاجلة، وأبقى لهم في الآجلة، اختار الله لك في قبضها إليه، وقدومها عليه، ما هو أنفع لها، وأولى بها، وجعل القبر، كُفُّوا لها، والسلام.

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الذي ناظر بشر بن غياث المريسي بحضرة أمير المؤمنين في مسألة خلق القرآن:

جاءني خليفة عمرو بن مسعدة ومعه جمّع من الفرسان والرجالة فحملني مُكرماً على دابّته حتى صار إلى باب أمير المؤمنين فأوقفني حتى جاء عمرو بن مسعدة، فدخل فجلس في حجرته التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه، فدخلتُ، فلما صرْتُ بين يديه أجلسني ثم قال لي: أنت مقيم على ما كنتَ عليه أو قد رجعت عنه؟ فقلت: بل مقيم على ما

كنتُ، وقد ازدادت بتوفيق الله تعالى إياي بصيرةً في أمري. فقال لي عمرو ابن مسعدة: أيها الرجل، قد حملتَ نفسك على أمر عظيم، وبلغت الغاية في مكروهاها، وتعرّضت لما لا قوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين، وادّعت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك، ولا لأحد غيرك، وليس وراءك بعد الحجة عليك إلا السيف، فانظر لنفسك وبادر أمرك، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة، فلا تنفعك الندامة ولا يُقبل منك معذرة ولا تُقال لك عثرة، فقد رحمتُك وأشفقتُ عليك مما هو نازل بك، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين وأسأله الصفح عن جرمك، وعظيم ما كان منك إذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان، وآخذُ لك الأمان منه والجائزة، فإن كانت لك ظلامة أزلتها عنك، وإن كانت لك حاجة قضيتها لك، فإنما جلستُ رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أقمت على ما أنت عليه، ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعتَ نفسك فيه.

شعره

نقلنا أمثلة قليلة من نثر عمرو بن مسعدة، أما شعره فقليل جدًا. ذكر المترجمون له أنه كان له فرسٌ أدهمٌ أغرٌ، لم يكن لأحد مثله فراهة وحسنًا. فبلغ المأمون خبره، وبلغ عمرو بن مسعدة ذلك، فخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه محمّدة، فوجّه به إليه هديّة وكتب معه:

يا	إمامًا	لا	يُدا	نيه	إذا	عُدَّ	إمامُ
فَضَلَ	النَّاسَ	كَمَا	يَفُ	ضُلَّ	نَقْصَانًا	تَمَامُ	
قَدْ	بَعَثْنَا	بِجَوَادٍ	مِثْلَهُ	لَيْسَ	يُرَامُ		
فَرَسٌ	يُزْهِى	بِهِ	لَكَ	حُسْنُ	سَرَجٍ	وَلَجَامُ	

دُونَهُ الْخَيْلُ كَمَا مَثَ لَكَ فِي الْفَضْلِ الْأَنَامُ
وَجْهُهُ صُبْحٌ وَلَكِنْ سَائِرَ الْجَسْمِ ظِلَامُ
وَالَّذِي يَصْلُحُ لِلْمَوَ لِي عَلَى الْعَبْدِ حَرَامُ

وعمر هو القائل:

وَمُسْتَعَذِبٌ لِلْهَجْرِ وَالْوَصْلُ أَعَذَبُ
إِذَا جَدْتُ مِنْي بِالرَّضَا جَادَ بِالْجَفَا
تَعَلَّمْتُ أَلْوَانَ الرِّضَا خَوْفَ هَجْرِهِ
وَلِي غَيْرُ وَجْهِ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ

ووقع مرة في ظهر رقعة لرجل:

أَعَزَزَ عَلَيَّ بِأَمْرِ أَنْتَ طَالِبُهُ
لَمْ يُمَكِّنِ النَّجْحُ فِيهِ وَانْقَضَى أَمَدُهُ

ولعمرو بن مسعدة حكايات منها ما حكاها القاضي التنوخي في كتاب
الفرج بعد الشدة: (٢٤) قال عمرو بن مسعدة: كنت مع المأمون عند قدومه
من بلاد الروم حتى إذا نزلت الرقعة قال: يا عمرو، ما ترى الرجحى قد
احتوى على الأهواز، وهي سلة الخير وجميع المال قبله وطمع فيها، وكتبته
متصلة بحملها، وهو يتعلل ويتربص بي الدوائر؟ فقلت: أنا أكفي أمير
المؤمنين هذا، وأنفذ من يضطره إلى حمل ما عليه. فقال: ما يقنعني هذا.
فقلت: فيأمر أمير المؤمنين بأمره. فقال: فاخرج إليه بنفسك حتى تصفده
بالحديد، فتحمله إلى بغداد وتقبض على جميع ما في يده من أموالنا، وتنظر
في أعمالنا وترتب لها عملاً. فقلت: السمع والطاعة! فلما كان في غد دخلت
عليه فقال: ما فعلت فيما أمرتك به؟ قلت: أنا على ذلك. قال: أتريد أن

تجيء في غدٍ مودَّعًا؟ قلت: السمع والطاعة! فلما كان في غدٍ جئته مودَّعًا، فقال: أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يومًا واحدًا. فاضطربت من ذلك إلى أن حَضَنِي واستحلفني ألا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجتُ حتى قدمتُ ببغداد، فلم أقم بها إلا ثلاثة أيام، وانحدرتُ في زلالي أريد البصرة وجُعل لي في الزلالي خيش، واستكثرت من الثلج لشدة الحر.

فلما صرتُ بين جرجان^(٢٥) وجبل سمعتُ صوتًا من الشاطئ يصيح: يا ملاح! فرفعتُ سَجَفَ الزلالي وإذا بشيخ كبير السن جالس حاسر الرأس حافي القدمين خلق القميص، فقلت للغلام: أجبه. فأجابه، فقال: يا غلام، أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى، وقد أحرقتني الشمس وكادت تتلفني، وأريد جبل، فاحملوني معكم فإن الله يُحسِّن أجر صاحبكم. قال: فشتمه الملاح وانتهره، فأدركتني رقة عليه وقلت: خذوه معنا. فتقدَّمتنا الشط وصَحَّنا به وحملناه، فلما صار معنا في الزلالي وانحدرنا نتقدم فدفعْتُ إليه قميصًا ومنديلًا، وغَسَلَ وجهه واستراح وكأنه كان ميتًا وعاد إلى الدنيا، فحضر وقت الغداء وتقدَّمتُ وقلت للغلام: هاتِه يأكل معنا. فجاء وقعد على الطعام، فأكل أكل أديب نظيف غير أن الجوع أثَّر فيه، فلما رُفعت المائدة أردتُ أن يقوم ويغسل يده ناحية كما تفعل العامة في مجالس الخاصة فلم يفعل، فغسلتُ يدي وتذممتُ أن أمر بقيامه، فقلت: قدِّموا له الطشت. فغسل يده، وأردتُ بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل، فقلت: يا شيخ، أي شيء صناعتك؟ قال: حائك أصلحك الله! فقلت في نفسي: هذه الحياكة علمته سوء الأدب، فتناومت عليه ومددت رجلي فقال: قد سألتني عن صناعتي، وأنت — أعزك الله — ما صناعتك؟ فأكبرت ذلك وقلت: أنا جنيت على نفسي هذه

الجناية ولا بد من احتمالها، أترأه الأحق لا يرى زلالي وغلماي ونعمتي وأن مثلي لا يقال له هذا؟! فقلت: كاتب. فقال: كاتب كامل أم كاتب ناقص فإن الكتاب خمسة، فأيهم أنت؟ فورد علي قول الحائك مورداً عظيماً، وسمعت كلاماً أكبرته وكنت متكئاً فجلست، ثم قلت: فصل الخمسة.

قال: نعم، كاتب خراج يحتاج أن يكون عالماً بالشروط والطرقات والحساب والمساحة والبثوق والفتوق والرتوق، وكاتب أحكام يحتاج أن يكون عالماً بالحلل والحرام والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع، وكاتب معونة يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات، وكاتب جيش يحتاج أن يكون عالماً بحلّ الرجال وشيآت الدواب ومداراة الأولياء وشيئاً من العلم بالنسب والحساب، وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز وحسن البلاغة والخط. قال: فقلت: إني كاتب رسائل. قال: فأسألك عن بعضها. قلت: قل. فقال لي: أصلحك الله، لو أن رجلاً من إخوانك تزوّج أمك فأردت أن تكاتبه مهنيّاً فكيف كنت تكاتبه؟ ففكرت في الحال فلم يخطر ببالي شيء، فقلت: ما أرى للتهنئة وجهاً. قال: فكيف تكتب إليه تعزيه؟ ففكرت فلم يخطر ببالي شيء، فقلت: اعفني. قال: قد فعلت، ولكنك لست بكاتب رسائل. قلت: أنا كاتب خراج.

قال: لا بأس، لو أن أمير المؤمنين ولّاك ناحية وأمرّك فيها بالعدل والإنصاف وتقضي حاجة السلطان فيتظلم إليك بعضهم من مسّاحيك، وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك، فحلف المسّاح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا، وحلفت الرعية بالله إنهم لقد جاروا وظلموا، وقالت

الرعية: قَفَّ معنا على ما مسحوه وانظر من الصادق من الكاذب، فخرجت لتقف عليه، فوقفوا على براح شَكْلُهُ قاتل قثا، كيف كنت تمسحه؟ قلت: كنت آخذ طوله على انعراجِه وعرضه ثم أضربه في مثله. قال: إن شكل قاتل قثا أن يكون زاويته محدودتين، وفي تحديده تقويس. قلت: فأخذ الوسط فأضربه في العرض. قال: إذن ينشي عليك العمود! فأسكتني، فقلت: ولست كاتب خراج. قال: فإذا ما أنت؟ قلت: أنا كاتب قاض، قال: أرايت لو أن رجلاً توفي وخلف امرأتين حاملتين إحداهما حرة والأخرى سرية، فولدت السرية غلاماً والحرة جارية، فعَدَّت الحرة إلى ولد السرية فأخذته، وتركت بدله الجارية فاخصما في ذلك، فكيف الحكم بينهما؟ قلت: لا أدري. قال: فلست بكاتب قاض. قلت: فأنا كاتب جيش. فقال: لا بأس، أرايت لو أن رجلين جاء إليك لتَحْلِيهما وكل واحد منهما اسمه واسم أبيه كاسم الآخر إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا، والآخر مشقوق الشفة السفلى، كيف كنت تحلّيهما؟ قال: قلت: فلان الأفلح وفلان الأعلم. قال: إن رزقهما مختلفان، وكل واحد منهما يجيء في دعوة الآخر؟ قلت: لا أدري. قال: فلست بكاتب جيش. قلت: أنا كاتب معونة. قال: لا تبال، لو أن رجلين رُفِعَا إليك قد شَجَّ أحدهما الآخر شَجَّةً مُوضحة،^(٢٦) وشَجَّ الآخر شَجَّةً مأمونة، كيف كنت تفصل بينهما؟ قلت: لا أدري. قال: لست إذن كاتب معونة، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلاً غير هذا. قال: فصَغُرْتُ إلي نفسي وغازني، فقلت: قد سألَت عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندي، فإن كنت عالماً بالجواب فقل.

فقال: نعم، أمّا الذي تزوّج أمك فتكتب إليه: أما بعد، فإن الأمور تجري من عند الله بغير محبة عباده ولا اختيارهم، بل هو تعالى يختار لهم ما أحب.

وقد بلغني تزويج الوالدة خار الله لك في قبضها، وإن القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام.

وأما براحُ قاتل قثا، فتمسح العمود حتى إذا صار عددًا في يدك ضربته في مثله ومثل ثلثه، فما خرج فهو المساحة.

وأما الجارية والغلام، فيؤزن لبن الاثنتين، فأيهما كان أخف فالجارية له. وأما الجنديان المتفقا الاسمين، فإن كان الشقُّ في الشفة العليا قيل فلان الأعلم، وإذا كان في الشفة السفلى قلت فلان الأفلاح.

وأما صاحب الشجّتين، فلصاحب الموضحة ثلث الدية، ولصاحب المأمونة نصف الدية.

فلما أجاب بهذه المسائل تعجّبتُ منه وامتحنته بأشياء كثيرة غيرها فوجده ماهرًا في جميعها حاذقًا بليغًا، فقلت: ألسنت زعمت أنك حائك؟ فقال: أنا أصلحك الله حائكُ كلام ولستُ بحائك نسّاجة، وأنشأ يقول:

ما مَرَّ بِؤْسٍ وَلَا نَعِيمٍ إِلَّا وَلِي فِيهِمَا نَصِيبُ
فَذَقْتُ حُلُومًا وَذَقْتُ مُرًّا كَذَاكَ عَيْشُ الْفَتَى ضُرُوبُ
نَوَائِبُ الدَّهْرِ أَدَبْتَنِي وَإِنَّمَا يُوعَظُ الْأَدِيبُ

قلت: فما الذي بك من سوء الحال؟ قال: أنا رجل كاتب دامت عطفتي، وكثرت عيَلتي، وتواصلت محنتي، وقلّت حيلتي، فخرجتُ أطلب تصرّفًا ففُطِعَ عليَّ الطريق فصرت كما ترى، فمشيت على وجهي، فلما لاح لي الزلالي استغثتُ بك. قلت: فإني قد خرجتُ إلى متصرّف جليل أحتاج فيه إلى جماعةٍ مثلك، وقد أمرتُ لك بخلعة حسنة تصلح لمثلك وخمسة آلاف درهم تُصلح بها أمرك، وتنفذ منها إلى عيالك، وتقوي نفسك بباقيها،

وتصير معي إلى عملي فأوليك أجله. فقال: أحسن الله جزاءك، إذن تجدني بحيث أسرك، ولا أقوم مقام معذر إليك إن شاء الله.
وأمرت بتقبيضه ما رسمت له قبضه، وانحدر إلى الأهواز معي، فجعلته المناظر للرجحي والمحاسب له بحضرتي، والمستخرج لما عليه، فقام بذلك أحسن قيام، وعظمت حاله معي، وعادت نعمته إلى أحسن ما كانت عليه.
وفي عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي:

أَعْنِي عَلَى بَارِقٍ نَاضِبٍ	خَفِيَّ كَوْحِيكَ بِالْحَاجِبِ
كَأَنَّ تَأَلَّقَهُ فِي السَّمَاءِ	يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبِ
فَرَوَى مَنَازِلَ تَذْكَارُهَا	يُهَيِّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
غَرِيبٌ يَحْنُ لِأَوْطَانِهِ	وَيَبْكِي عَلَى عَصْرِهِ الذَّاهِبِ
كَفَاكَ أَبُو الْفَضْلِ عَمْرُو النَّدَى	مُطَالَعَةُ الْأَمَلِ الْكَاذِبِ
وَصَدَقَ الرَّجَاءُ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ	لِعَمْرُو بْنِ مَسْعَدَةَ الْكَاتِبِ
عَرِيضُ الْفَنَاءِ طَوِيلُ الْبَنَاءِ	ءِ فِي الْعِزِّ وَالْشَّرَفِ الثَّاقِبِ
بَنَى الْمَلِكُ طَوْدًا لَهُ بَيْتُهُ	وَأَهْلُ الْخِلَافَةِ مِنْ غَالِبِ
هُوَ الْمُرْتَجَى لَصُرُوفِ الزَّمَانِ	وَمُعْتَصِمُ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ
جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفُهُ	عَلَى الضَّيْفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ
بَادِمُ الرِّكَابِ وَوَشْيُ الثِّيَابِ	بِالْطَّرْفِ وَالطَّفَلَةِ الْكَاعِبِ
نَوْمُهُ لِحْجَامِ الْأُمُورِ	وَنَرْجُوهُ لِلْجَلَلِ الْكَارِبِ
خَصِيبُ الْجَنَابِ مَطِيرُ السَّحَابِ	بِشِيمَتِهِ لَيْنُ الْجَانِبِ
يُرَوِّي الْقَنَا مِنْ نَحُورِ الْعَدَا	وَيُغْرِقُ فِي الْجُودِ كَاللَّاعِبِ
إِلَيْكَ تَبَدَّتْ بِأَكْوَارِهَا	حَرَاجِيجُ فِي مَهْمِهِ لَاحِبِ

كَأَنَّ نِعَامًا تَبَارَى بِنَا بَوَابِلَ مِنْ بَرْدٍ عَاصِبٍ
 يَرْدُنَ نَدَى كَفِّكَ الْمُزْتَجَى وَيَقْضِينَ مِنْ حَقِّكَ الْوَاجِبِ
 وَلِلَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ خَابِرٍ بِسَجَلٍ لِقَوْمٍ وَمِنْ خَارِبِ
 فَتَسْقِي الْعِدَا بِكُؤُوسِ الرَّدَى وَتَسْقِيُ مَسْأَلَةَ الطَّالِبِ
 وَكَمْ رَاغِبٍ نَلْتَهُ بِالْعَطَا وَكَمْ نَلَتْ بِالْعَطْفِ مِنْ هَارِبِ
 وَتِلْكَ الْخَلَائِقُ أُعْطِيَتْهَا وَفَضْلٌ مِنَ الْمَانِعِ الْوَاجِبِ
 كَسَبْتَ الثَّنَاءَ وَكَسَبْتَ الثَّنَا أَفْضَلُ مَكْسَبَةِ الْكَاسِبِ
 يَقِينُكَ يَجْلُو سِتُورَ الدُّجَى وَظَنُّكَ يُخْبِرُ بِالْغَائِبِ

(٨) رسائل الجاحظ

رسالته في بني أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: (٢٧) أطال الله بقاءك، وأتمَّ نعمته عليك، وكرامته لك. اعلم — أرشد الله أمرك — أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها، والخروج من جاهليتها، إلى طبقات متفاوتة، ومنازل مختلفة: فالطبقة الأولى عصر النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر — رضي الله عنهما — وست سنين من خلافة عثمان — رضي الله عنه — كانوا على التوحيد الصحيح، والإخلاص المحض، (٢٨) مع الألفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة، وليس هناك عمل قبيح، ولا بدعة فاحشة، ولا نزعٌ يد من طاعة، ولا حسد ولا غلٌ ولا تأوُّل، حتى كان الذي كان من قتل عثمان — رضي الله عنه — وما انتهك منه، ومن خبَّطهم إياه بالسلاح، وبَعَجَ بطنه بالحراب، وفَرَّي أوداجه بالمشاقص، وشَدَخَ هامته بالعمُد، مع كفه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك: من كم وجه يجوز قتل من

شهد الشهادة، وصلى القبلة، وأكل الذبيحة؛ ومع ضرب نسائه بحضرته، وإقحام الرجال على حرمة، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة^(٢٩) عنه بيدها، حتى أطنوا^(٣٠) إصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعاً لهم، وكاسراً من غرْبهم؛ مع وطئهم في أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المذيلة جسده مجرداً بعد سحبه، وهي الجزرة التي جعلها رسول الله ﷺ كفناً لبناته وأياماه وعقائله، بعد السب والتعطيش والحصر الشديد، والمنع من الفوت، مع احتجاجه عليهم وإفحامه لهم؛ ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قتل مؤمناً على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم منه عطفه؛ ومع اجتماعهم على ألا يُقتل من هذه الأمة، ولا يُجهز منها على جريح؛ ثم مع ذلك كله ذمروا^(٣١) عليه وعلى أزواجه وحرمة وهو جالس في محرابه ومصحفه يلوح في حجره، لن يرى أن موحداً يُقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله.

لا جرمَ لقد احتلبوا به دماً لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت ثأره، ولا يكلُّ طالبه، وكيف يُضيّع الله دم وليّه، والمنتقم له! وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا — عليهما السلام — غلا غليانه، وقُتل سافحه، وأدرك بطائلته، وبلغ كل محبته، كدمه رحمة الله عليه.

ولقد كان لهم في أخذه، وفي إقامته للناس، والاقتصاص منه، وفي بيع ما ظهر من رباعه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفي حبسه بما بقي عليه، وفي طمره حتى لا يُحسَّ بذكره، ما يغنيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قذفوه به، وادعوه عليه، وهذا كله بحضرة جلة المهاجرين والسلف المقدّمين، والأنصار والتابعين.

ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة، ومراتب متباينة: من قاتل ومن شادَّ على عضده، ومن خاذل عن نصرته، والعاجز ناصرٌ بإرادته، ومطيعٌ بحسن نيته، وإنما الشكُّ منا فيه، وفي خاذله، ومن أراد عزله والاستبدال به؛ فأما قاتله، والمعين على دمه، والمريد لذلك منه، فضلالٌ لا شكَّ فيهم، ومُراق لا امتراء في حكمهم؛ على أن هذا لم يَعُدْ منهم الفجور: إما على سوء تأويل، وإما على تعمُّدٍ للشقاء، ثم ما زالت الفتن متصلة، والحروب مترادفة، كحرب الجمل، وكوقائع صفين، وكيوم النهروان، وقبل ذلك يوم الزابوقة،^(٣٢) وفيه أسر ابن حُنيف، وقُتل حكيم بن جبلة، إلى أن قَتَلَ أشقاهها عليٌّ بن أبي طالب — رضوان الله عليه — فأُسعده الله بالشهادة، وأوجب لقاتله النار واللعنة؛ إلى أن كان من اعتزال الحسن — عليه السلام — الحروب وتخلّيته الأمور، عند انتشار أصحابه، وما رأى من الخلل في عسكره، وما عرف من اختلافهم على أبيه، وكثرة تلوّثهم عليه؛ فعندها استوى معاويةٌ على الملك، واستبدَّ على بقية الشورى، وعلى جماعة المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سموه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة، والعام الذي تحوّلت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة غصباً قيصرياً، ولم يَعُدْ ذلك أجمع الضلال والفسق. ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا، وعلى منازل ما رتبنا، حتى ردَّ قضية رسول الله ﷺ ردّاً مكشوفاً، وجحد حكمه جحداً ظاهراً، في ولد الفراش وما يجب للعاهر، مع اجتماع الأمة أن سُمِّيَّة لم تكن لأبي سفيان فراشاً، وأنه إنما كان بها عاهراً. فخرج بذلك من حكم الفجّار إلى حكم الكفار، وليس قتل حُجر بن عدي، وإطعام عمرو بن العاص خراج

مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستثثار بالفيء، واختيار الولاية على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقراية، من جنس جحد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسنن المنصوبة، وسواء في باب ما يستحق من الكفار جَحَدَ الكتاب وردَّ السنة إذا كانت السنة في شُهرة الكتاب وظهوره، إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشد، فهذه أول كفره، كانت من الأمة، ثم لم تكن إلا فيمن يدَّعي إمامتها، والخلافة عليها؛ على أن كثيراً من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره، وقد أربَّت عليهم نابتة عصرنا، ومُبتدعة دهرنا، فقالت: لا تَسُبُّوه، فإن له صحبة، وسبُّ معاوية بدعة، ومَن يُبغضه فقد خالف السنة، فزعمت أن من السنة ترك البراءة، ممن جحد السنة؛ ثم الذي كان من يزيد ابنه، ومن عمَّاله، وأهل نصرته، ثم غزو مكة، ورمي الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين — عليه السلام — في أكثر أهل بيته، مصاييح الظلام، وأوتاد الإسلام، بعد الذي أعطى من نفسه، من تفريق أتباعه، والرجوع إلى داره وحرَمه، أو الذهاب في الأرض، حتى لا يُحسَّ به، أو المقام حيث أمر به، فأبوا إلا قتله، والنزول على حكمهم، وسواء قتل نفسه بيده، أو أسلمها إلى عدوه، وخُير فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه.

فاحسبوا قتله ليس بكفر، وإباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بحجة؛ كيف تقولون في رمي الكعبة، وهدم البيت الحرام، وقبله المسلمين؟ فإن قلتم ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحرِّز به، والمتحصَّن بحيطانه، أفما كان في حق البيت وحريمه أن يحصروه فيه، إلى أن يُعطى بيده! وأي شيء بقي من رجل، قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه! واحسبوا ما رووا عليه من

الأشعار، التي قَوْها شرك، والتمثل بها كفر، شيئاً مصنوعاً؛ كيف تصنع بنقر
القضيب بين ثَنِيَّتَيِ الحَسِينِ عليه السلام، وحمل بنات رسول الله ﷺ حواسر
على الأقتاب العارية، والإبل الصَّعَاب، والكشف عن عورة علي بن الحسين
عند الشك في بلوغه! على أنهم إن وجدوه وقد أنبت قتلوه، وإن لم يكن أنبت
حملوه، كما يصنع أمير جيش المسلمين، بذراري المشركين؟ وكيف تقول في
قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته: دعوني أقتله، فإنه بقيَّة هذا النسل،
فأحسِم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء، وأقطع به هذه المادة؟!!

خبرونا علام تدل هذه القسوة، وهذه الغلظة! بعد أن شفوا أنفسهم
بقتلهم، ونالوا ما أحبوا فيهم؟ أتدل على نَصَب، وسوء رأي وحقد، وبغضاء
ونفاق، وعلى يقين مدخول وإيمان مخروج؟! أم تدل على الإخلاص، وعلى
حب النبي ﷺ، والحفظ له، وعلى براءة الساحة وصحة السريرة؟! فإن
كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال، وذلك أدنى منازل؛ فالفاسق
ملعون، ومن نهى عن نهى الملعون فملعون.

وزعمت نابتة عصرنا، ومبتدعة دهرنا، أن سبَّ ولاية السوء فتنة، ولعن
الجَوْرَةَ بدعة، وإن كانوا يأخذون السَّمِيَّ بالسَّمِيَّ، والولي بالولي، والقريب
بالقريب، وأخافوا الأولياء، وأمَّنوا الأعداء، وحكموا بالشفاعة والهوى،
وإظهار الغدرة والتهاون بالأمة، والقمع للرعية، وأنهم في غير مداراة ولا
تقيَّة، وإن عدا ذلك إلى الكفر، وجاوز الضلال إلى الجحْد، فذاك أضلُّ
مَنْ كَفَّ عن شتمهم، والبراءة منهم، على أنه ليس مَنْ استحق اسم الكفر
بالقتل كمن استحقَّه برد السنة وهدم الكعبة، وليس من استحق اسم الكفر
بذلك كمن شبَّه الله بخلقه، وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقَّه

بالتجوير،^(٣٣) والناطقة في هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه، وابن زياد وأبيه، ولو ثبت أيضاً على يزيد أنه تمثل بقول ابن الزُّبَيْرِ:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِيَدْرِ شَهَدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجَ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ
لَا سَطَارُوا وَاسْتَهَلُّوا فَرَحًا ثُمَّ قَالُوا يَا يَزِيدُ لَا تَسَلْ
قَدْ قَتَلْنَا الْغُرَّ مِنْ سَادَاتِهِمْ وَعَدَلْنَاهُ بِيَدْرِ فَاعْتَدَلْ

كان تجويزُ النابتِ لربه، وتشبيهه بخلقه، أعظم من ذلك وأقطع، على أنهم مجمعون على أنه ملعونٌ مَنْ قَتَلَ مؤمناً، متعمداً أو متأولاً؛ فإذا كان القاتل سلطاناً جائراً، أو أميراً عاصياً، لم يستحلوا سبّه، ولا خلعه، ولا نفيه، ولا عيبه، وإن أخاف الصلحاء، وقتل الفقهاء، وأجاع الفقير، وظلم الضعيف، وعطل الحدود والثغور، وشرب الخمر، وأظهر الفجور؛ ثم ما زال الناس يتسكعون مرة، ويدهنونهم مرة، ويقاربونهم مرة، ويشاركونهم مرة، إلا بقيّة من عصمه الله تعالى ذكره، حتى قام عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد، وعاملهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبي مسلم، فأعادوا على البيت بالهدم، وعلى حَرَمِ المدينة بالغزو، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحرم، وحولوا قبلة واسط، وأخروا صلاة الجمعة، إلى مُغِيرَبَانَ الشمس، فإن قال رجل لأحدهم: اتق الله فقد أخرت الصلاة عن وقتها، قتله على هذا القول جهاراً غير ختل، وعلانية غير سرٍّ، ولا يُعلم القتل على ذلك إلا أقبح من إنكاره؛ فكيف يَكْفُرُ العبدُ بشيء ولا يكفر بأعظم منه؟!

وقد كان بعض الصالحين ربها وَعَظَ الجبابة، وخوفهم العواقب، وأراهم أن في الناس بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض، حتى قام عبد الملك ابن مروان، والحجاج بن يوسف، فزجرا عن ذلك، وعاقبا عليه، وقتلا

فيه، فصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه؛ فاحسب تحويل القبلة كان غلطاً، وهدم البيت كان تأويلاً، واحسب ما رووا من كل وجه، أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله^(٣٤) أرفع عنده من رسوله إليهم، باطلاً ومسموعاً مولداً، واحسب وسم أيدي المسلمين ونقش أيدي المسلمين، وردهم بعد الهجرة إلى قراهم، وقتل الفقهاء، وسب أئمة الهدى، والنصب لعتره رسول الله ﷺ، لا يكون كفراً؛ كيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيهن الجمعة، ولا يصلون أولاهن، حتى تصير الشمس على أعالي الجدران، كالملاء المعصفر، فإن نطق مسلم، خبط بالسيف، وأخذته العمد، وشك بالرمح، وإن قال قائل: اتق الله، أخذته العزة بالإثم، ثم لم يرخص إلا بنشر دماغه على صدره، وبصلبه حيث تراه عياله؟ ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرد على الله عز وجل، والاستخفاف بالدين، والتهاون بالمسلمين، والابتذال لأهل الحق، أكل أمرائهم الطعام، وشر بهم الشراب على منابرهم أيام جمعهم وجموعهم، فعَلَ ذلك حُبَيْش^(٣٥) بن دُلْجَة، وطارق مولى عثمان، والحجاج بن يوسف، وغيرهم، وذلك إن كان كفراً كله فلم يبلغ كفر نابته عصرنا، وروافض دهرنا؛ لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك. كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول كل شيء بقضاء وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي، ولم يكن أحد يقول إن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثل العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إن الله يرى، لا تزيد على ذلك، فإن خافت أن يُظنَّ بها التشبيه قالت يرى بلا كيف تفرزاً من التجسيم والتصوير، حتى نبتت هذه النابذة، وتكلمت هذه الرافضة، فقالت جسيماً،

وجعلت له صورة وحدًا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير! ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حسنٌ وبينٌ وحجةٌ وبرهانٌ، وأن التوراة غير الزبور، والزبور غير الإنجيل، والإنجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران؛ وأن الله تولى تأليفه، وجعله برهانه على صدق رسوله، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد، ولو شاء أن ينقص منه نقص، ولو شاء أن يبدله بدله، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخه؛ وأنه أنزله تنزيلاً، وأنه فصله تفصيلاً، وأنه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلا هو، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلقه؛ فأعطوا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق. والعجب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه، فلذا قالوا: خَلَقَ كذا وكذا، ولذلك قال: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون: ١٤ وقال: ﴿وَيَخْلُقُونَ إِنْكَاءً﴾ العنكبوت: ١٧ وقال: ﴿وَإِذْ نَخَلَقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ المائدة: ١١٠ ، فقالوا: صنعه وجعله وقدره، وأنزله وفصله وأحدثه، ومنعوا خلقه، وليس تأويل خلقه أكثر من قدره، ولو قالوا بدل قولهم: قدره ولم يخلقه خلقه ولم يقدره، ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد؛ والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق، أنه لم يسمع ذلك من سلفه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضاً من سلفه أنه ليس بمخلوق، وليس ذلك يهمل، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهة تقطيع الحروف، وإعمال اللسان والشفيتين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام، ولمّا كنا عندهم على غير هذه الصفة، وكنا لكلامنا غير خالقين، وجب أن الله عز وجل لكلامه غير خالق؛ إذ كنا غير خالقين لكلامنا، فإنما قالوا ذلك، لأنهم لم يجدوا بين

كلامنا وكلامه فرقاً، وإن لم يُقرُّوا بذلك بألستهم فذلك معناهم وقصدهم. وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال، إلا ما حكيث لك عن بني أمية، وبني مروان، وعمّالهم، ومن لم يدن بإكفارهم حتى نجمت النوابت، وتابعتها هذه العوام، فصار الغالبُ على هذا القرن الكفر، وهو التشبيه والجبر، فصار كفرهم أعظم من كفر من مضى في الأعمال التي هي الفسق، وشركاء^(٣٦) من كفر منهم بتوليهم، وترك إكفارهم، قال الله عز وجل من قائل: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ المائدة: ٥١.

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحقّين، ورحمهم وقوى ضعفهم، وكثر قلتهم، حتى صار ولادة أمرنا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشد استبصاراً في التشبيه من عليتنا، وأعلم بما يلزم فيه منا، وأكشف للقناع من رؤسائنا؛ وصارفوا الناس وقد انتظموا معان^(٣٧) الفساد أجمع، وبلغوا غايات البدع، ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تُبقي ديناً إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب، وقد نجمت من الموالي ناجمة، ونبتت منهم نابتة، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربياً، لقول النبي ﷺ: «مولى القوم منهم». ولقوله: «الولاء لِحِمّة كل حِمّة النسب لا يُباع ولا يُوهب».

قال: فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم المُلْك والنبوة كانوا أشرف من العرب، ولما حوّل ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم، قالوا: فنحن معاصر الموالي بقديمنا في العجم أشرف من العرب، وبالحديث الذي صار لنا في العرب أشرف من العجم، وللعرب القديم دون الحديث؛

ولنا خَصْلَتَانِ جَمِيعًا وافرتان فينا، وصاحب الخَصْلَتَيْنِ أَفْضَلُ من صاحب الخَصْلَةِ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان عَجَمِيًّا عَرَبِيًّا بولائه، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيًّا بِحِلْفِهِ، وجعل إسماعيل بعد أن كان أَعَجَمِيًّا عَرَبِيًّا ولولا قول النبي ﷺ: «إِنْ إسماعيل كان عَرَبِيًّا» ما كان عندنا إِلَّا أَعَجَمِيًّا لأن الأَعَجَمِيَّ لا يصير عَرَبِيًّا، كما أن العربي لا يصير أَعَجَمِيًّا، فإنما عَلِمْنَا أن إسماعيل صيَّره الله عَرَبِيًّا بعد أن كان أَعَجَمِيًّا، بقول النبي ﷺ، فكَذَلِكَ حكم قوله: «مولى القوم منهم». وقوله: «والولاء لِحُمَةٍ». قالوا: وقد جعل الله إبراهيم — عليه السلام — أَبًا لمن لم يلد، كما جعله أَبًا لمن ولد، وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين، ولم يلدنَّ منهم أَحَدًا، وجعل الجار والد من لم يلد في قول غير هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه، وليس أدعى إلى الفساد، ولا أجلب للشر من المفاخرة، وليس على ظهرها إِلَّا فَخُور (إلا قليل)، وأي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك، وهو مقرٌّ أنه صار شريفًا بعثتك إياه.

وقد كتبتُ — مدَّ الله في عمرك — كِتَابًا في مفاخرة قحطان، وفي تفضيل عدنان، وفي رد الموالي إلى مكانهم من الفضل والنقص، وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف؛ وأرجو أن يكون عدلاً بينهم، وداعية إلى صلاحهم، ومنبهة عليهم ولهم؛ وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول إليك ثم رأيت ألا يكون إِلَّا بعد استئذانك، واستئثارك، والانتهاه في ذلك إلى رغبتك، فرأيك فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة.

حَفَظَكَ اللهُ حَفَظَ مَنْ وَفَّقَهُ لِلْقَنَاعَةِ، وَاسْتَعْمَلَهُ بِالطَّاعَةِ؛ كَتَبْتُ إِلَيْكَ وَحَالِي حَالٌ مَنْ كَثُفَتْ غَمُومُهُ، وَأَشْكَلَتْ عَلَيْهِ أُمُورُهُ، وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ حَالُ دَهْرِهِ، وَمَخْرَجُ أَمْرِهِ، وَقَلَّ عِنْدَهُ مِنْ يَثِقَ بِوَفَائِهِ، أَوْ يَحْمَدَ مَغْبَةَ إِخَائِهِ، لَا اسْتِحَالَةَ زَمَانِنَا، وَفَسَادَ أَيَامِنَا، وَدَوْلَةُ أَنْذَالِنَا؛ وَقَدِّمًا كَانَ مَنْ قَدَّمَ الْحَيَاءَ عَلَى نَفْسِهِ، وَحَكَّمَ الصَّدَقَ فِي قَوْلِهِ، وَآثَرَ الْحَقَّ فِي أُمُورِهِ، وَنَبَذَ الْمَشْتَبَهَاتِ عَلَيْهِ مِنْ شَتُونِهِ، تَمَّتْ لَهُ السَّلَامَةُ، وَفَازَ بِوَفُورِ حِظِّ الْعَافِيَةِ، وَحَمْدِ مَغْبَةِ مَكْرُوهِ الْعَاقِبَةِ؛ فَنَظَرْنَا إِذْ حَالَ عِنْدُنَا حُكْمُهُ، وَتَحَوَّلَتْ دَوْلَتُهُ؛ فَوَجَدْنَا الْحَيَاءَ مُتَصِلًا بِالْحَرَمَانِ، وَالصَّدَقَ آفَةً عَلَى الْمَالِ، وَالْقَصْدَ فِي الطَّلَبِ بَتَرَكِ اسْتِعْمَالِ الْقَحَّةِ، وَإِخْلَاقَ الْعَرِضِ مِنْ طَرِيقِ التَّوَكُّلِ دَلِيلًا عَلَى سَخَافَةِ الرَّأْيِ، إِذْ صَارَتْ الْحُظُوءَةُ الْبَالِغَةُ، وَالنِّعْمَةُ السَّابِغَةُ، فِي لَوْثِ الْمَشِيئَةِ؛ وَسَنَاءُ الرِّزْقِ مِنْ جِهَةِ مُحَاشَاةِ الرِّخَاءِ، وَمُلَابَسَةِ مَعْرَةِ الْعَارِ؛ ثُمَّ نَظَرْنَا فِي تَعَقُّبِ الْمُتَعَقَّبِ لِقَوْلِنَا، وَالكَاشِرِ لِحُجَّتِنَا؛ فَأَقَمْنَا لَهُ عِلْمًا وَاضِحًا، وَشَاهِدًا قَائِمًا، وَمَنَارًا بَيِّنًا؛ إِذْ وَجَدْنَا مَنْ فِيهِ السُّفُولِيَّةُ الْوَاضِحَةُ، وَالْمَثَالِبُ الْفَاضِحَةُ، وَالْكَذِبُ الْمُبْرِّحُ، وَالْخُلْفُ الْمَصْرُوحُ، وَالْجَهَالَةُ الْمَفْرُطَةُ، وَالرَّكَاسَةُ الْمُسْتَخْفَةُ، وَضَعْفُ الْيَقِينِ وَالِاسْتِثْبَاتِ، وَسُرْعَةُ الْغَضَبِ وَالْجَرَاءَةِ، قَدْ اسْتَكْمَلَ سُرُورَهُ، وَاعْتَدَلَتْ أُمُورَهُ، وَفَازَ بِالسَّهْمِ الْأَغْلَبِ، وَالْحِظِّ الْأَوْفَرِ، وَالْقَدْرَ الرَّفِيعِ، وَالْجَوَازَ الطَّائِعَ، وَالْأَمْرَ النَّاظِفَ؛ إِنْ زَلَّ قَلِيلَ حَكْمٍ، وَإِنْ أَخْطَأَ قَلِيلَ أَصَابِ، وَإِنْ هَدَى فِي كَلَامِهِ وَهُوَ يَقْطَانُ قَلِيلَ رُؤْيَا صَادِقَةٍ مِنْ نَسْمَةِ مَبَارَكَةٍ؛ فَهَذِهِ

حجبتنا والله على من زعم أن الجهل يخفض، وأن التوك يُردي، وأن الكذب يضر، والخلف يُزري؛ ثم نظرنا في الوفاء والأمانة والنبل والبلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة، والفائق في سعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه، فوجدنا فلان بن فلان؛ ثم وجدنا الزمان لم يُنصفه من حقه، ولا قام له بوظائف فرضه، ووجدنا فضائل القائمة له قاعدةً به؛ فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح، وأن الفضل قد مضى زمانه، وعَفَتْ آثاره، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده؛ ووجدنا العقل يشقى به قرينهُ، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينهُ؛ ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان، ومُعرباً عن الأيام حيث يقول:

تَحَامَقَ مع الحمقى إِذَا مَا لَقِيَتَهُم وَلَا قِيَهُم بِالْجَهْلِ فَعَلَ أَخِي الْجَهْلُ
وخلَطَ إِذَا لَاقِيََتَ يَوْمًا مَخْلَطًا يَخْلُطُ فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ وَفِي هَزَلٍ
فَإِنِّي رَأَيْتُ المرءَ يشقى بعقله كَمَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَسْعُدُ بِالْعَقْلِ

فبقيت — أبقاك الله — مثل من أصبح على أوفاز،^(٣٨) ومن النقلة على جهاز، لا يسوغ له نعمة، ولا تَطْعَمُ عينه غمضة، في أهاويل يُباكره مكروهُهًا، ويرأو حه عقائبها؛ فلو أن الدعاء أجيب، والتضرع سُمع، لكانت العدة العظمى، والرجفة الكبرى؛ فليت أيُّ أخي ما أَسْتَبِطُهُ من النفخة، ومن فجأة الصيحة، قُضِيَ فحان، وأُذِنَ به فكان؛ فوالله ما عذبت أمة برجفة، ولا ريح ولا سخطة، عذاب عيني برؤية المغايظة المدمنة، والأخبار المهلكة، كأن الزمان يوكل بعذابي، أو يُنصَّب بأيامي، فما عيشُ مَنْ لَا يُسرُّ بأخ شفيق، ولا يصطبح في أول نهاره، إلا برؤية من يكرهه، ويغمُّه بطلعته؛ فقد طالَت الغمة، وواظبت الكربة، وادهمَّت الظلمة؛ وخمد السراج، وتباطأ الانفراج.

وصف الجاحظ لقريش وبني هاشم

قد عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ كَرُمُ قُرَيْشٍ وَسَخَاوُهَا، وَكَيْفَ عَقُولُهَا وَدَهَاوُهَا؛ وَكَيْفَ رَأْيُهَا وَذُكَاوُهَا، وَكَيْفَ سِيَاسَتُهَا وَتَدْبِيرُهَا؛ وَكَيْفَ إِيجَازُهَا وَتَحْسِيرُهَا، وَكَيْفَ رَجَاحَةُ أَحْلَامِهَا إِذَا خَفَّ الْحَلِيمُ، وَحِدَّةُ أَذْهَانِهَا إِذَا كَلَّ الْحَدِيدُ؛ وَكَيْفَ صَبْرُهَا عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَثَبَاتُهَا فِي اللَّأْوَاءِ؛ وَكَيْفَ وَفَاؤُهَا إِذَا اسْتُحْسِنَ الْغَدْرُ؛ وَكَيْفَ جُودُهَا إِذَا حُبَّ الْمَالُ؛ وَكَيْفَ ذِكْرُهَا لِأَحَادِيثِ غَدٍّ، وَقِلَّةُ صَدُودِهَا عَنِ جِهَةِ الْقَصْدِ؛ وَكَيْفَ إِقْرَارُهَا بِالْحَقِّ وَصَبْرُهَا عَلَيْهِ؛ وَكَيْفَ وَصْفُهَا لَهُ وَدَعَاؤُهَا إِلَيْهِ؛ وَكَيْفَ سَمَاحَةُ أَخْلَاقِهَا، وَصَوْنُهَا لِأَعْرَاقِهَا؛ وَكَيْفَ وَصَلُوا قَدِيمَهُمْ بِحَدِيثِهِمْ، وَطَرِيفَهُمْ بِتَلِيدِهِمْ؛ وَكَيْفَ أَشْبَهَ عِلَانِيَتَهُمْ سُرَّهُمْ، وَقَوْلُهُمْ فَعْلَهُمْ، وَهَلْ سَلَامَةُ صَدْرِ أَحَدِهِمْ إِلَّا عَلَى قَدَرٍ بُعْدَ غَدِيرِهِ؟! وَهَلْ غَفْلَتُهُ إِلَّا فِي وَزْنِ صَدَقِ ظَنِّهِ؟! وَهَلْ ظَنُّهُ إِلَّا كَيْقِينَ غَيْرِهِ؟!

وكتب في الاعتذار

أما بعد، فنعم البديل من الزلة الاعتذار، وبئس العوض من التوبة الإصرار، وإنَّ أَحَقَّ مَنْ عَطَفَتْ عَلَيْهِ بِحِلْمِكَ مَنْ لَمْ يَسْتَشْفَعْ إِلَيْكَ بِغَيْرِكَ، وَإِنِّي بِمَعْرِفَتِي بِمَبْلَغِ حِلْمِكَ وَغَايَةِ عَفْوِكَ، ضَمَنْتُ لِنَفْسِي الْعَفْوَ مِنْ زَلَّتْهَا عِنْدَكَ، وَقَدْ مَسَّنِي مِنَ الْأَلَمِ مَا لَمْ يَشْفِهِ غَيْرُ مَوَاصِلَتِكَ.

وله في الاستعطاف

ليس عندي — أعزك الله — سببٌ ولا أقدر على شفيح، إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل، الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول. وأرجو أن تكون من الشاكرين

فتكون خير مُعْتَب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سبباً للانقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أنمى بقية من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك — جعلتُ فداك — عاد الذنب وسيلة، والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشر خيراً والغرم غنماً.

من عاقب فقد أخذ حظه، وإنما الأجر في الآخرة، وطيب الذكر في الدنيا، على قدر الاحتمال وتجرع المرائر. وأرجو ألا أضيع وأهلك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه وعظم حقه، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة، وإن كان العفو عظيماً مستطرفاً من غيركم فهو تلاءم فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أنتم عن ذلك تتكلمون، ولا على سالف إحسانكم تدمون، وما مثلكم إلا كمثل عيسى ابن مريم — عليه السلام — حين كان لا يمر بملاً من بني إسرائيل إلا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً، فقال له شمعون الصفا: ما رأيتُ كالיום كلما أسمعوك شراً أسمعتهم خيراً؟ فقال: كل امرئ ينفق مما عنده، وليس عندكم إلا الخير ولا في أوعيتكم إلا الرحمة، «وكل إناء بالذي فيه ينضح».

وله في ذم الحسد

الحسد — أبقاك الله — داءٌ ينهك الجسد، علاجه عسير، وصاحبه ضَجَر، وهو باب غامض، وما ظهر منه فلا يُداوى وما بطن منه فمداويه في عناء، ولذلك قال النبي ﷺ: «دَبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء». الحسد عَقِيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق، منه تتولد

العداوة، وهو سبب كل قطيعة ومفرّق كل جماعة، وقاطع كل رحم من الأقرباء، ومُحدث التفرّق بين القرناء، وملقح الشر بين الحلفاء.

دفاع الجاحظ عن مؤلفاته

وقد ذكر الجاحظ جُلَّ مؤلفاته في كتاب «الحيوان»، ودافع عنها بعد أن وصفها فقال: ^(٣٩) جَنَّبَ الله الشبهة، وعَصَمَكَ من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبًا، وبين الصدق سببًا، وحَبَّبَ إليك التثبت، وزَيَّنَ في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزَّ الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل الطمع، وعَرَّفَكَ ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة. وَلَعَمْرِي لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوب في أمرِك، وأدَلَّ على مقدار وزنك، وعلى الحال التي وضعتَ نفسك فيها، ووسمتَ عِرْضَك بها، ورضيتها لدينك حظًا، ولمرءتك شكلاً؛ فقد انتهى إليَّ ميلك على أبي إسحاق، وحَمَلَكَ عليَّ، وطعنك على معبد، وتنقُصك له في الذي كان جرى بينهما في مساوي الديك ومحاسنه، وفي ذكر منافع الكلب ومضاره؛ والذي خرجا إليه من استقصاء ذلك وجمعه، ومن تَبَّعَهُ ونظمه، ومن الموازنة بينهما، والحكم فيهما.

ثم عِبْتَنِي بكتاب حَيْل اللصوص، وكتاب غِشِّ الصناعات؛ وعِبْتَنِي بكتاب المُلح والطرف، وما حرَّ من النوادر وبرِّد، وعاد باردها حارًّا بفرط برده، حتى أمتع بأكثر من أمتاع الحار؛ وعِبْتَنِي بكتاب احتجاجات البخلاء، ومناقضتهم للسمحاء، والقول في الفرق بين الصدق إذا كان ضارًّا في العاجل، والكذب إذا كان نافعًا في الآجل، وَلِمَ جعلنا الصدق أبدًا محمودًا، والكذب أبدًا مذمومًا، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة،

وبين الإفراط في الحمية والأنفة، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة، وقلة الاكتراث بسوء القالة؛ وهل الغيرة اكتساب وعادة، وبعض ما يعرض من جهة الديانة، ولبعض التزيّد فيه والتحسّن به، أو يكون ذلك شيئاً في طبع الحرية وحقيقة الجوهريّة، ما كانت العقول سليمة، والآفات منفيّة، والأخلاق معتدلة؛ وعبّنتي بكتاب الصّرحاء والهّجاء، ومفاخرة السودان والحرمان، والموازنة بين حق الخئولة والعمومة؛ وعبّنتي بكتاب الزرع والنخل، والزيتون والأعناب، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أي موضع يغلبن ويفضّلن، وفي أي موضع يكنّ المغلوبات والمفضولات، ونصيب أيهما في الولد أوفر، وفي أي موضع يكون حقهنّ أوجب، وأي عمل هو بهنّ أليق، وأي صناعة هنّ فيها أبلغ.

وعبّنتي بكتاب القحطانية وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية، وزعمت أنّي تجاوزت فيه حدّ الحميّة، إلى حدّ العصبيّة، وأنّي لم أصل إلى تفضيل العدنانية إلا بتنقص القحطانية؛ وعبّنتي بكتاب العرب والموالي، وزعمت أنّي بخستُ الموالي حقوقهم، كما أنّي أعطيتُ العرب ما ليس لهم؛ وعبّنتي بكتاب العرب والعجم، وزعمت أنّ القول في فرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالي والعرب، ونسبتي إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير والجهل بما في المعاد من الخطل، وحمّل الناس المؤن؛ وعبّنتي بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إياها، وكيف اختلفا في جهة العلة مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عباد البدّة^(٤٠) والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام

المنجورة، أشد الناس إلغاً لما دانوا به، وشغفاً بما تعبدوا له، وأظهرهم جدّاً، وأشدّهم على من خالفهم ضغنّاً، وبما دانوا صباية وعُجباً، وما الفرق بين البُدد والوثن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق بين الدُّمية والجلّة، ولمَ صوروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم صور عظمائهم ورجال دعوتهم، ولمَ تأنّقوا في التصوير، وتجردوا في إقامة التركيب، وبالغوا في التحسين والتفخيم، وكيف كانت أولية تلك العبادات، وكيف افرقت تلك النحل، ومن أي شيء كانت خُدع تلك السّدنة، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عدداً، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناس المختلفة!

وعبّني بكتاب المعادن، والقول في جواهر الأرض، وفي اختلاف أجناس الفلزّ، والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يُسرّع الانقلاب إلى بعضها ويبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يصبُغ ولا ينصبغ، وبعضها ينصبغ ولا يصبُغ، وبعضها يصبُغ وينصبغ، وما القول في الأكسير والتلطيف؛ وعبّني بكتاب فرّق ما بين هاشم وعبد شمس، وبكتاب فرّق ما بين الجن والإنس، وفرّق ما بين الملائكة والجن، وكيف القول في معرفة الهدهد واستطاعة العفريت، وفي الذي كان عنده علم من الكتاب، وما ذلك العلم، وما تأويل قولهم: كان عنده اسم الله الأعظم؛ وعبّني بكتاب الأوفاق والرياضات، وما القول في الأرزاق والإنفاقات، وكيف أسباب الثمير والترقيح^(١) وكيف تجتلب التجّار الحُرّفاء، وكيف الاحتيال للودائع، وكيف التسبّب إلى الوصايا، وما الذي يُوجب لهم التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن، وكيف ذكرنا غش الصناعات والتجارات، وكيف التسبب إلى تعرّف ما قد ستروا، وكشف ما موهوا،

وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله! وَعَبْتَنِي برسائي، وبكل ما كتبتُ به إلى إخواني وخلطائي من مَزَحٍ وَجِدٍّ، ومن إفصاح وتعريض، ومن تَعَاظُلٍ وتوقيف، ومن هجاء لا يزال وسمه باقياً، ومديح لا يزال أثره نامياً، ومن مَلَحٍ تُضْحِكُ، ومواعظ تُبْكِي؛ وَعَبْتَنِي برسائي الهاشميات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها، وتصويري لها في أحسن صورة، وإظهارِي لها في أتم حَلِيَةٍ، وزعمتُ أني قد خرجتُ من حدِّ المعتزلة إلى حدِّ الزيدية، ومن حدِّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه إلى حد السرف والإفراط فيه، وزعمتُ أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية، وزعمتُ أن في أصل القضية، والذي جرت عليه العادة أن كل كبير فأوله صغير، وأن كل كثير فإنما هو قليل مُجْمَع إلى قليل، وأنشدت قول الراجز:

قَدْ يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْجَلِيلِ وَإِنَّمَا الْقَرْمُ مِنَ الْأَفِيلِ^(٤٢)
وَسُحْقُ النَّخْلِ مِنَ الْفَسِيلِ

وأنشدت قول الشاعر:

رُبَّ كَبِيرٍ هَاجَهُ صَغِيرٌ وَفِي الْبُحُورِ تَغْرُقُ الْبُحُورُ
وَقُلْتُ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ:

وَاعْلَمْ بِمَنْ بَنِي فَإِنَّهُ بِالْعِلْمِ يَتَفَعَّ الْعَلِيمُ
إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقَةٌ مِمَّا يَهِيْجُ لَهُ الْعَظِيمُ

وَقُلْتُ وَقَالَ الْآخَرُ:

صَارَ جِدًّا مَا مَزَحْتُ بِهِ رُبَّ جِدٍّ سَاقَهُ اللَّعِبُ

وَأُنْشِدْتُ قَوْلَ الْآخِرِ وَهُوَ عَنْتَرَةٌ: (٤٣)

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فِيكُمْ تُقْضَى الْأُمُورُ وَرَهْطُ وَرْدَةٍ غُيْبُ
قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْكَبِيرَ صَغِيرُهُ حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدَّمَاءُ تَصَبَّبُ
وَقَالَتْ كَبْشَةُ بِنْتُ مَعْدٍ يَكْرَبُ:

جَدَعْتُمْ بَعْدَ اللَّهِ أَنْفَ قَوْمِهِ بَنِي مَازِنٍ أَنْ سُبَّ رَاعِي الْمُخَزَّمِ
وَقَالَ الْآخَرُ:

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحَ وَأَيَّ جَدٍّ بَلَغَ الْمَازِحُ
وتقول العرب: «العَصَى مِنَ الْعُصْيَةِ وَلَا تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا حَيَّةً». وَعَبَتَ
كِتَابِي فِي خَلْقِ الْقُرْآنِ، كَمَا عِبَتَ كِتَابِي فِي الرَّدِّ عَلَى الْمَشْبُهَةِ؛ وَعَبَتَ كِتَابِي
فِي أَصُولِ الْفُتْيَا وَالْأَحْكَامِ، كَمَا عِبَتَ كِتَابِي فِي الْإِحْتِجَاجِ لِنَظْمِ الْقُرْآنِ،
وْغَرِيبِ تَأْلِيفِهِ، وَبَدِيعِ تَرْكِيبِهِ؛ وَعِبَتَ مُعَارَضَتِي الزَّيْدِيَّةَ، وَتَفْضِيلِي
الْإِعْتِزَالِ عَلَى كُلِّ نَحْلَةٍ، كَمَا عِبَتَ كِتَابِي فِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَكِتَابِي عَلَى
النَّصَارَى وَالْيَهُودِ؛ ثُمَّ عِبَتَ جُمْلَةَ كِتَابِي فِي الْمَعْرِفَةِ، وَالتَّمَسُّتِ تَهْجِينَهَا بِكُلِّ
حِيلَةٍ، وَصَغَّرَتْ مِنْ شَأْنِهَا، وَحَطَّطَتْ مِنْ قَدْرِهَا، وَاعْتَرَضَتْ عَلَى نَاسْخِهَا
وَالْمُنْتَفِعِينَ بِهَا.

وَعِبَتَ كِتَابُ الْجَوَابَاتِ وَكِتَابُ الرِّسَائِلِ، وَكِتَابُ الرَّدِّ عَلَى أَصْحَابِ
الْإِلْهَامِ، وَكِتَابُ الْحُجَّةِ فِي تَثْبِيتِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكِتَابُ الْأَخْبَارِ؛ ثُمَّ عِبَتَ
كِتَابِي إِنْكَارِي بِصِيرَةِ غَنَامِ الْمُرْتَدِّ، وَبَصِيرَةِ كُلِّ جَا حِدٍ وَمَلْحَدٍ، وَتَفْرِيقِي
بَيْنَ اعْتِزَامِ الْعُمَرِ (٤٤) وَبَيْنَ اسْتِبْصَارِ الْحَقِّ؛ وَعِبَتَ كِتَابُ الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ
فِي الْإِدْرَاكِ، وَفِي قَوْلِهِمْ فِي الْجَهَالَاتِ، وَكِتَابُ الْفَرْقِ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُنْتَبِي،

والفرق بين الحيل والمخاريق، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة؛ ثم قصدت إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره، والتهجين لنظمه، والاعتراض على لفظه، والتحقيق لمعانيه فزَرَيْتَ على نحته وسبكه، كما زريت على معناه ولفظه، ثم طعنت في الغرض الذي إليه نزعنا، والغاية التي إليها أجريننا،^(٤٥) وهنا كتاب معناه أنبه من اسمه، وحقيقته آتق من لفظه، هو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامي، كما يحتاج إليه العالم الخاصي، ويحتاج إليه الرّيّض، كما يحتاج إليه الحاذق.

أما الرّيّض فملتعلّم والدّربة، وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمكين العادة، إذ كان جليله يتقدم دقيقه، وإذ كانت مقدماته مرتبة، وطبقات معانيه منزّلة؛ وأما الحاذق فلكفاية المئونة، ولأنّ كلّ من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمهات العلم مجموعاً كان له غنمه، وعلى مؤلفه غُرمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدّه، مع تعرّضه لمطاعن البغاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عَرَضه عقله المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمة فيه المتأولين والحسدة، ومتى ظفر بمثله صاحب علم، أو هجم عليه طالب فقه، وهو وادع رافه، ونشيط جام، ومؤلفه مُتعب مكدود، فقد كُفي مئونة جمعه، وخَزِنه وتَبَّعَه، وطلّبه، وأغناه ذلك عن طول التفكير، واستنفاد العمر، وفلّ الحد، وأدرك أقصى حاجته، وهو مجتمع القوة، وعلى أن له عند ذلك أن يجعل هجومه عليه ضرباً من التوفيق، وظفره به باباً من التسديد. (وهذا كتاب) تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم؛ لأنه وإن كان عربياً أعربياً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طُرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين

وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتیان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه الجدّي ذو الحزم، ويشتهيه الغُفْل كما يشتهيه الأديب، ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن؛ وعِبْتَنِي بحكاية قول العثمانية والضرارية وأنت سمعْتَنِي أقول: أقول في أول كتابي: وقالت العثمانية والضرارية، وكما سمعْتَنِي أقول: وقالت الرافضة والزيدية؛ فحكمت عليّ بالنصب لحكايتي قول العثمانية، فهلاًّ حكمت عليّ بالتشيع لحكايتي قول الرافضة، وهلاًّ كنتُ عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة، وقد حكينا في كتابنا قول الإباضية والصفورية، كما حكينا أقاويل الأزارقة والنجدية، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنيت الخارجية، وكل اسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة واشتقاق منها، ومحمول عليها، فهلا كُنا عندك من المحكمة الخارجية، كما صرنا عندك من الضرارية والناصبة! وكيف رُضيتَ بأن تكون الشيعة إلى أعراض الناس أسرع من المارقة! اللهم إلا أن تكون وجدتَ حكايتي عن العثمانية والضرارية أشبع وأجمع، وأتمّ وأحكم وأجود صنعة، وأبعد غاية، ورأيتني قد وهنتُ حق أوليائك بقدر ما قوّيتُ باطل أعدائك، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدك من الكتاب حاضراً، وبرهانك على ما ادعيت واضحاً.

وَعِبْتَنِي بكتاب العباسية، فهلا عِبْتَنِي بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدّي بلا قِيَمٍ أرْدُ عليهم، وهملاً بلا راعٍ أربح لهم، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الآجل، وأن تتركهم نشرًا لا نظام لهم أبعد لهم من المفساد، وأجمع لهم على المرشد! بل ليس ذلك بك، ولكنه لما بهرك

ما سمعت، وملاً صدرك الذي قرأت، وأبعلك وأبطرك، فلم تتجه للحجة وهي لك مُعرّضة، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد؛ ورأيت أن سبّ الأولياء أشفى لدائك، وأبلغ في شفاء سقمك؛ ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذّة، وأبعد من النصب، ومن إطالة الفكرة، ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة؛ ولو كنت حين فطنت لعجزك وصَلت نقصك بتمام غيرك، واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك، وحبس على تقويم أشباهك، كان ذلك أزين في العاجل، وأحق بالمشوبة في الآجل، وكنت إن أخطأتك الغنيمة لم تخطئك السلامة، ولقد سلم عليك المخالف، بقدر ما ابتلي به منك الموافق؛ وعلى أنه لم يُبتل منك إلا بقدر ما ألزمته من مئونة تثقيفك، والتشاغل بتقويمك؛ وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي: وهل يضرُّ السحاب نبج الكلاب؟ وإلا كما قال الشاعر:

هل يضرُّ البحرَ أمسى زاحراً أن رمى فيه غلامٌ بحجر

وهل حائنا في ذلك إلا كما قال الأول:

ما ضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتهما أم بُلّت حيث تناطحَ البحران

وقال حسان:

ما أبالي أنبّ بالحزن تيسُّ أم لحاني بظهر غيبٍ لئيم

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك، ووجهت حلمنا عنك إلى الخوف منك، وقد قال زُفر بن الحارث لبعض من لم ير حق الصفح فجعل العفو سبباً إلى سوء القول:

فَإِنْ عُدْتُ وَاللَّهِ الَّذِي فَوْقَ عَرْشِهِ
مَنْحُتُكَ مَسْنُونِ الْغَرَارِينَ أَزْرَقَا
فَإِنْ دَوَاءَ الْجَهْلِ أَنْ تُضْرَبَ الطُّلُ (٤٦)
وَأَنْ يُغْمَسَ الْعَرِيضُ (٤٧) حَتَّى يُغْرِقَا

وقال الأول:

وما نفى عنك قوماً أنت خائفهم
كمثل وقمك جهّالاً بجهّال
فاقس إذا حذبوا واحذب إذا قعسوا
ووازن الشر مثقالاً بمثقال

وقال الآخر:

وضغائن داويتها بضغائن
حتى يمتن وبالحقود حقودا
وإني وإن لم يكن عندي سنان زفر بن الحارث، ولا معارضة هؤلاء:
الشر بالشر، والجهل بالجهل، والحق بالحق، فإن عندي ما قال المسعودي:

فَمَسَا تَرَابَ الْأَرْضِ مِنْهَا خُلِقْتُمَا
وَلَا تَعْجَبَا أَنْ تَرْجَعَا فُتْسَلَّمَا
فَلَوْ شِئْتُ أَدْلَى فَيْكُمَا غَيْرُ وَاحِدٍ
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمْرُ وَلَمْ أَنَّهُ عَنْكُمَا
وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحَشْرِ
فَمَا حُشِيَ الْأَقْوَامُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ
عِلَانِيَةٌ أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِتْرِ
ضَحِكْتُ (٤٨) لَهُ حَتَّى يَلْجَ وَيَسْتَشْرِي

وقال النمر بن تَوَلَّب:

جَزَى اللَّهُ عَنِّي جَمْرَةَ ابْنَةِ نَوْفَلٍ
بِمَا خَبَرْتُ عَنِّي الْوُشَاةَ لِيَكْذِبُوا
جَزَاءً مُغَلٍّ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبٍ
عَلَيَّ وَقَدْ أَوْلَيْتُهَا فِي النَوَائِبِ

يقول: أخرجت خبري إلى من يشتهي أن أعاب عندها.
ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أقبح أثراً، وأبقى وسماً، وأصدق
قيلاً، وأعدل شاهداً؛ وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح، كما أنه ليس

كل من عارض فقد انتصر، وقد قال الشاعر قولاً إن فهمته كفيتنا مئونة
المعارضة، وكفيت نفسك لزوم العار، وهو قوله:

تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ	إِنْ كُنْتَ لَا تَرْهَبُ ذَمِّي لِمَا
فِيكَ لِمَسْمُوعِ خَنَا الْقَائِلِ	فَاخْشَ سَكُوتِي آذَنًا مُنْصِتًا
كَالْمُطْعَمِ الْمَأْكُولِ لِلْأَكْلِ	فَالسَامِعِ الذَّمَّ مُقَرَّرًا بِهِ
أَسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرِ سَائِلِ	مَقَالَةُ السَّوِّءِ إِلَى أَهْلِهَا
ذُمَّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ	وَمَنْ دَعَى النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ
حَزَبَ أَخِي التَّجَرُّبَةِ الْعَاقِلِ	فَلَا تَهْجُ إِنْ كُنْتَ ذَا إِرْبَةٍ
هَجَّتْ بِهِ ذَا خَبَلٍ خَابِلِ	فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ إِذَا هَجَّتْهُ
عَلَيْكَ غَبَّ الضَّرَرِ الْأَجَلِ	يُبْصِرُ فِي عَاجِلِ شِدَاتِهِ

وقد يقال: إن العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم؛ وقد
قال الشاعر:

وَالْعَفْوُ عِنْدَ لَبِيبِ الْقَوْمِ مَوْعِظَةٌ وَبَعْضُهُ لَسْفِيهِ الْقَوْمِ تَدْرِيبٌ

فإن كنا قد أسأنا في هذا التقرير والتوقيف، فالذي لم يأخذ فينا بحكم القرآن،
ولا بأدب الرسول — عليه الصلاة والسلام — ولم يفرع إلى ما في الفطن
الصحيحة، أو إلى ما توجهه المقاييس المطردة، والأمثال المضروبة، والأشعار
السائرة، أولى بالإساءة، وأحق باللائمة، قال الله جل ثناؤه: ﴿وَلَا يَرْهَيْمُ
الَّذِي وَفَّى ۖ ﴿٢٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَأَزَرُهُ وَيَزَارُهُ ۚ﴾ النجم: ٣٧ - ٣٨ ، وقد قال النبي عليه
الصلاة والسلام: «لَا تَجْنِ يَمِينُكَ عَلَى شِمَالِكَ». وهذا حكم الله جل وعز،
وآدابُ رسوله، والذي أنزل به الكتاب، ودلَّ عليه في حجج العقول.

أخذ البريء بذنب المذنب

ثم قال في أخذ البريء بذنب المذنب: فأما ما قالوا في المثل المضروب: «رمتني بدائها وانسلت». وأما قول الشعراء وذم الخطباء لمن أخذ إنساناً بذنب غيره، وما ضربوا في ذلك من الأمثال، كقول النابغة حيث يقول في شعره:

وَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي الْعُرْيُكُوى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ

وكانوا إذا أصاب إبلهم العُرُّ كَوَوْا السليم ليذهب العُرُّ عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم، وكانوا إذا كثرت إبل أحدهم فبلغت الألف فقتلوا عين الفحل، فإن زادت الإبل على الألف فقتلوا عينه الأخرى، فذلك المفقأ والمعمى اللذان سمعتَ بهما قال الفرزدق:

غَلَبْتُكَ بِالْمَفْقَأِ وَالْمَعْمَى ^(٤٩) وَبَيْتِ الْمُجْتَبَى ^(٥٠) وَالْخَافِقَاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسُواف ^(٥١) والغارة، فقال الأول:

فَقَاتُ لَهَا عَيْنَ الْفَحِيلِ تَعِيْفًا وَفِيهِنَّ رَعْلَاءُ ^(٥٢) الْمَسَامِعِ وَالْحَامِ

الرَّعْلَاءُ: التي تُشَقُّ أذنها وتترك مدلاة لكرمها.

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنية، كقول الرجل: إذا بلغت إيلي كذا وكذا، وكذلك غنمي ذبحت عند الأوثان كذا وكذا عتيرة، والعتيرة: من نُسك الرجبية، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبل أحدهم أو غنمه ذلك العدد استعمل التأويل وقال: إنما قلت: إني أذبح كذا وكذا شاة، والظباء: شاء، كما أن الغنم شاء، فجعل ذلك القربان كله مما يصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حنظلة الإشكري:

عَنَّا بِاطْلًا شَدُوخًا^(٥٣) كَمَا تُعْ سَرُّ عَنْ حُجْرَةِ الرَّيِّضِ الظَّبَاءِ

بعد أن قال:

أَمْ عَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةٍ أَنْ يَغْفِرَ لِمِ غَازِيهِمْ وَمَنَا الْجَزَاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إمَّا لكدر الماء وإمَّا لقلة العطش، ضربوا الثَّورَ ليقْتَحِمَ الماء؛ لأنَّ البقر تتبعه كما تتبع الشَّوْلُ الفحل، وكما تتبع أُنْتُ الوحش الحمار، فقال في ذلك عوف بن الخرع:

تَمَنَّتْ طَيِّئٌ جَهْلًا وَجُبْنًا وَقَدْ خَالَيْتُهُمْ فَأَبَوْا خِلَائِي
هَجُونِي أَنْ هَجَوْتُ جِبَالَ سَلَمَى كَضْرَبِ الثَّورِ لِلْبَقْرِ الظَّبَاءِ

وقال في ذلك أنس بن مُدْرِكَةَ في قتله سُلَيْكَ بن السُّلَكَةِ:

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكًا نَّمَّ أَعْقَلُهُ كَالثَّورِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتِ الْبَقْرُ
أَنْفَتِ^(٥٤) لِلْمَرْءِ إِذْ تُغْشَى حَلِيلَتُهُ وَإِذْ^(٥٥) يُشَدُّ عَلَى وَجْعَائِهَا النَّفْرُ^(٥٦)

وقال الهَيْبَانُ الْفُهْمِيُّ:

كَمَا ضَرَبَ الْيَعْسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ
وَلَمَّا كَانَ الثَّورُ أَمِيرَ الْبَقْرِ، وَهِيَ تَطِيعُهُ كَطَاعَةِ إِنْثِ النَّحْلِ لِلْيَعْسُوبِ،
سَمَاهُ بِاسْمِ أَمِيرِ النَّحْلِ.

وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تُمْسِكَ
البقر عن الشرب حتى تهلك؛ وقال في ذلك الأعشى:

وَإِنِّي وَإِنْ كَلَفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ لِأَعْلَمَ مَنْ أَمْسَى أَحَقُّ وَأَحْوَبَا
لِكَالْثَّورِ وَالْجَنِّي يُضْرَبُ ظَهْرَهُ وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ مَشْرَبَا

وما ذنبه أن عافت الماء باقرٌ وما إن تعاف الماء إلا لتضربا
كأنه قال: إذ كان يُضرب أبداً لأنها عافت الماء، فكأنها إنما عافت الماء
ليضرب؛ وقال يحيى بن منصور الذهلي في ذلك:

لكالثور والجنيّ يضرِب وجهه وما ذنبه إن كانت الجنُّ ظالمه
وقال نهشل بن جريّ:

أُتْرِكَ عارضٌ وبنو عديٍّ وتغرَّم دارمٌ وهُم بُراءُ
كدأب الثور يُضربُ بالهراوى إذا ما عافت البقرُ الظماءُ
وكيف تكلفُ الشعريُّ سهيلاً وبينهما الكواكبُ والسماءُ
وقال أبو نويرة بن حصين حين أخذه الحكم بن أيوب بذنب العطرق:

أبايوسف لو كنت تعلم طاعتي ونصحي إذا ما بعثني بالمحلّق
ولا ساقٍ سرّاق العُرافة صالحٍ بنِيّ ولا كُلفتُ ذنب العَطْرَق

وقال خدّاش بن زهير حين أخذ بدماء بني محارب:

أُكَلِّفُ قَتْلَى معشرٍ لست منهم ولا دارهم داري ولا نصرهم نصري
أُكَلِّفُ قَتْلَى العيصِ عيصٍ شواحيطٍ وذلك أمرٌ لم تُشَفِّ له قدري

وقال الآخر:

إذا عَرَكَتْ عَجَلٌ بنا ذنب طيِّئٍ عرَكنا بئيم اللَّاتِ ذنب بني عَجَلٍ

ولما وجد اليهودي أخا حنِص الضبابي في منزله فخصاه فمات، وأخذ
حنِص بني عبس بجناية اليهودي، قال قيس بن زهير: أتأخذنا بذنب

غيرنا، وتسألنا العقل، والقاتل يهودي من أهل تيماء؟ قال: والله لو قتله هَيْفَ الريح لو دَيْتموه. فقال قيس لبني عبس: الموت في بني ذبيان خير لكم من الحياة في بني عامر. ثم أنشأ يقول:

أَكْلَفُ ذَا الْخُصِيِّينَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا وَإِنْ كُنْتُ مَظْلُومًا وَإِنْ كُنْتُ شَاطِنًا
خَصَاهُ امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ تَيْمَاءٍ طَابِنْ وَلَا يَعْدَمُ الْإِنْسِيَّ وَالْجُنَّ طَابِنًا
فَهَلَّا بَنِي ذُبْيَانَ أُمُّكَ هَابِلٌ رَهْنَتْ هَيْفَ الرِّيحِ إِنْ كُنْتَ رَاهِنًا
إِذَا قُلْتُ قَدْ أَفْلُتُ مِنْ شَرِّ حَنْبَصٍ أَتَانِي بِأُخْرَى شَرُّهُ مُتَبَاطِنًا
فَقَدْ جَعَلْتُ أَكْبَادُنَا تَجْتَوِيكُمْ كَمَا تَجْتَوِي سُوقُ الْعِضَاهِ الْكَرَازِنَا

ولما قُتِلَ لقمان بن عاد ابنته وهي صُحْرُ بنت لقمان قال حين قتلها: أَلَسْتُ امرأة؟ وذلك أنه تزوج عدة نساء وكلهنَّ حُنَّه في أنفسهن، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل كان أول من تَلَقَاهُ صُحْرُ ابنته، فوثب عليها فقتلها، وقال وأنت أيضاً امرأة؟ وكان قد ابتلي أيضاً بأن أخته كانت محمَّمة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان: هذه ليلة طهري وهي ليلتك، فدعيني أنم في مضجعك، فإن لقمان رجل مُنْجِب، فعسى أن يقع عليَّ فأنجب، فوقع على أخته فحملت بُلْقِيم. وفي ذلك قول النمر بن تولب:

لَقِيمُ بْنُ لَقْمَانَ مِنْ أَخْتِهِ فَكَانَ ابْنُ أَخْتٍ لَهُ وَابْنُهَا
لِيَالِيٍّ حُمَّقٍ فَاسْتَحَصَنْتُ عَلَيْهِ فُغْرٌ بِهَا مُظْلِمًا
فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ مُحَكَّمٌ^(٥٧) فَجَاءَتْ بِهِ رَجُلًا مُحَكَّمًا

فضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان ابنته صُحْرًا، فقال خُفَّاف بن نَدْبَةَ في ذلك:

وَعَبَّاسٌ يُدِبُّ لِي الْمَنَايَا وَمَا أَذْنِبْتُ إِلَّا ذَنْبَ صُحْرٍ

وقال في ذلك ابن أَدِيْنَةَ:

أَتَجْمَعُ تَهْيَامًا بَلِيلًا إِذَا نَأَتْ وَهَجَرَانَهَا ظُلْمًا كَمَا ظَلِمَتْ صُحْرُ
وقال الحارث بن عباد:

قَرَّبَا مَرْبَطَ النِّعَامَةِ مِنِّي لَقِحْتُ حَرْبُ وَاثِلٍ عَنْ حِيَالٍ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمَ اللَّـهِ وَإِنِّي بَحَرَّهَا الْيَوْمَ صَالِي

وقال الشاعر - وأظنه ابن المقفع:

فَلَا تَلُمِ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ فَرَبٌّ مَلُومٌ وَلَمْ يُذْنِبِ
وقال آخر:

لَعَلَّ لَهُ عَذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ وَكَمْ لَائِمٌ قَدْ لَامَ وَهُوَ مُلِيمٌ

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوك سنهار الرومي: فإنه لما علا الخورنق، ورأى بنياناً لم ير مثله، ورأى ذلك المستشرف، وخاف إن هو استبقاه أن يموت فيبني مثل ذلك البنيان لملك آخر، فأمر به فرُمي من فوق القصر، فقال في ذلك الكلبي في شيء كان بينه وبين بعض الملوك:

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ سِنَهَارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبٍ
سِوَى رَصِّهِ الْبُنْيَانِ سَبْعِينَ حَجَّةً يُعَلِّي عَلَيْهِ بِالْقِرَامِيدِ وَالسَّكَبِ
فَلَمَّا رَأَى الْبُنْيَانَ تَمَّ سَحُوقُهُ وَأَضَّ كَمِثْلَ الطُّودِ ذِي الْبَاذِخِ الصُّبِّ
فَظَنَّ سِنَهَارَ بِهِ كُلَّ حَبْوَةٍ وَفَازَ لَدَيْهِ بِالْمَوْدَةِ وَالْقُرْبِ
فَقَالَ اقْدِفُوا بِالْعُلُجِ مِنْ ضَبْطِ شَاهِقٍ فَذَاكَ لَعَمْرِ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْخَطْبِ

وجاء المسلمون يَرْوِي خَلْفٌ عَنْ سَلَفٍ، وَتَابِعٌ عَنْ سَابِقٍ، وَآخِرٌ عَنْ أَوَّلٍ، أَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَلَفُوا فِي عَيْبِ قَوْلِ الْحَجَّاجِ: لَا أَخْذُنَ السِّمِّيَّ بِالسِّمِّيِّ وَالْوَلِيَّ

بالولي، والجارَ بالجار. ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول:

إِذَا أَخَذَ الْبَرِيءُ بِغَيْرِ جُرْمٍ تَجَنَّبَ مَا يُحَاذِرُهُ السَّقِيمُ

قال: وقيل لعمر بن عُبيد: إن فلاناً لما قدّم رجلاً ليضرب عنقه فقيل له: إنه مجنون، قال: لولا أن المجنون يلد عاقلاً لخليت سبيله. قال: فقال عمرو: وما خلق الله النار إلا بالحق.

ولما قالت التغلبية للجحاف بن حكيم في وقعة البشر: فَصَّ الله عمادك، وأطال سهادك، وأقل رمادك، فوالله إن قتلت إلا نساء أسافلهن دُمِّي، وأعاليهن ثُدِّي. فقال لمن حوله: لولا أن تلد هذه مثلها لخليت سبيلها! فبلغ ذلك الحسن فقال: إن الجحاف جذوة من نار جهنم. قال وذم رجل عند الأحنف بن قيس الكمأة بالسمن، فقال عند ذلك الأحنف: رُبَّ ملوم لا ذنب له؛ فبهذه السيرة سرتَ فينا؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان:

وَإِنَّ امْرَأً يَمْسِي وَيَصْبِحُ سَالِمًا مِنْ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدُ

وقلت: وما بال أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر، وأرباب النحل، والعلماء بمخارج الملل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء، وكتب الفُراغ والخلعاء، وكتب الملاحية والفكاهات، وكتب أصحاب الخصومات والمراء، وكتب أصحاب العصبيّة، وحميّة الجاهلية، حتى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء، ولا لائمة الأدباء وشنف الأكفاء، ومساءة الجلساء؛ فهلاً أمسكت — رحمك الله — عن عينا، والطعن عليها، وعن المشورة والموعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة إلى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

أقسام البيان

وبعد أن تكلم في تقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام البيان:

ووجدنا الحكمة على ضربين: شيءٌ جعل حكمةً وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيءٌ جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بدن الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل، وليس كل دليل مستدل، فشارك كل الحيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان بأن كان دليلاً مستدلاً، ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك بياناً؛ وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام: لفظٍ وخطٍ وعقد وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينه المستدل من نفسه واقتياده كل من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحُشي من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة؛ فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومُعربة من جهة صحة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استخبرهما، وينطقان لمن استنطقهما كما يخبر الهزال وكمود اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السَّمْنُ والنضرة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر:

فعاجوا فأتنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائقُ

وقال آخر:

مَتَى تَكُ فِي عَدُوٍّ أَوْ صَدِيقٍ تُخَبِّرُ الْعَيُونَ عَنِ الْقُلُوبِ
وقد قال العُكْلِي فِي صَدَقِ شَمَةِ الذُّئْبِ، وَفِي شِدَّةِ حَسِهْ وَاسْتِرْوَا حِهْ:
يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إِذَا لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِ مِقْرَاعِ الصِّفَا الْمَوْقِعِ
وقال عَنْتَرَةُ وَهُوَ يَصِفُ نَعِيبَ غَرَابِ:

حَرِقِ الْجَنَاحِ كَأَنَّ لَحْيِي رَأْسِهِ جَلَمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلَعٌ
وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: سَلِ الْأَرْضَ فَقُلْ: مَنْ شَقَّ
أَنْهَارَكَ، وَغَرَسَ أَشْجَارَكَ، وَجَنَى ثَمَارَكَ؟ فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حَوَارًا، أَجَابَتْكَ
اعتبارًا، فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه، وداعية إليه ومنبهة
عليه، فالجماد الأبكم الآخرس من هذا الوجه قد شارك في البيان الإنسان
الحي الناطق؛ فمن جعل أقسام البيان خمسة فقد ذهب أيضًا مذهبًا له جواز
في اللغة، وشاهد في العقل، فهذا أحد قسمي الحكمة، وأحد معنيي ما
استخزنها الله تعالى من الوديعة.

القسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف سائر الحيوان من ضروب
المعارف، وفطرها على غريب الهدايات، وسخر حناجرها له بضرب النغم
الموزونة، والأصوات الملحنة، والمخارج الشجية، والأغاني المطربة، فقد
يقال: إن جميع أصواتها معدلة، وموزونة موقعة، ثم الذي سهّل لها من
الرفق العجيب في الصنعة مما زلّله الله تعالى لمناقيرها وأكفّها، وكيف فتح
لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيرًا منها من

الحس اللطيف، والصنعة البديعة عن غير تأديب وتثقيف، وعن غير تقويم وتلقين، وعن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها ومقدار قوى فطرتها من البديه والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حدّاق رجال الرأي، وفلاسفة علماء البشر بيد ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالاً، وأتمهم حلالاً، من جهة الارتجال والاقتضاب ولا من جهة التعسف والاقتدار، ولا من جهة التقديم فيه، والتأني له؛ والترتيب لمقدماته، وتمكين الأسباب المُعينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحس، الجامع القوى، المتصرّف في الوجوه، المتقدّم في الأمور، يعجز عن عفو كثير منها، وينظر إذ نظر إلى ضروب ما يجيء منها كما أعطيت العنكبوت، وكما أعطيت السُرّفة، وكما علّم النحل، بل عرف التنوّط من بديع المعرفة، ومن غريب الصنعة في غير ذلك من أصناف الخلق، ثم لم يوجد لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك إلا عمّا قوّى عليه الهمجّ والخشاش وصغار الحشرات، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين، والاستطاعة والتصرف، وذا التكلف والتجربة، وذا التأني والمنافسة، وصاحب الادخار والمتفقّد لشأن العاقبة متى أحسن شيئاً كان كلُّ شيءٍ دونه في الغموض عليه أسهل، وجعل سائر الحيوان وإن كان يُحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس متى أحسن شيئاً عجيباً لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن، وأسهل منه في الرأي، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة؛ فلا الإنسان جعل نفسه كذلك، ولا شيءٌ من الحيوان اختار ذلك، فأحسنّت هذه الأجناس بلا تعلم ما يمتنع على الإنسان، وإن تعلّم فصار لا يحاوله إذ كان لا يطمع فيه، ولا يحسدها إذ كان لا يأمل اللحاق بها، ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين إزاء عيون الناظرين،

وتجاه أسماع المعبرين، ثم حثَّ على التفكير والاعتبار، وعلى الاتعاظ والازدجار، وعلى التعرُّف والتبيين، وعلى التوقف والتذكُّر، فجعلها مذكِّرة منبِّهة، وجعل الفطر تنشئ الخواطر، وتجول بأهلها في المذاهب، ذلك رب العالمين، سبحانه الله رب العالمين.

وهذا كتاب موعظة وتعريف، وتفقه وتنبيه، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده، وتتفكر في فصوله، وتتذكر آخره بأوله، ومصادره بموارده، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزح لم تعرف معانيه، ومن بطالة لم تدرك غورها، ولم تدرك لم اجتلبت ولائي علة تُكلفت، وأي معنى أريغ بها، ولائي جدَّ احتمل ذلك الهزل، ولائية رياضة تُجشِّمت تلك البطالة، ولم تدرك أن المزاح جدُّ إذا اجتلب لأن يكون علة للجد، وأن البطالة وقارٌ وزمانةٌ إذا تُكلفت لتلك العاقبة، ولما قال الخليل بن أحمد: لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه؛ قال أبو شمر: إذا كان لا يصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه؛ وذلك مثل كتابنا هذا، لأنَّا إن حملنا جميع من يتكلَّف قراءة هذا الكتاب على مُرِّ الحق، وصعوبة الجد، وثقل المئونة وحقيقة الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلا مَنْ قد تجرَّد للعلم وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر من عزه، ونال من سروره على حسب ما بورت الطول من الكد، والكثرة من السَّامة، وما أكثر من يقاد إلى حظه بالسواجير، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حسناً في مدح الكتب فقال: ثم لم أرَكَ رضىً بالطعن على كل كتاب لي بعينه، حتى تجاوزت ذلك، إلى أن عبَّت وضع الكتب كيفما

دارت بها الحال، وكيف تصرّفت بها الوجوه؛ وقد كنتُ أعجب من عيبك البعض بلا علم، حتى عبتَ الكل بلا علم؛ ثم جاوزت ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزت التشنيع إلى نصب الحرب، فعبتَ الكتاب ونعم الذخر والعدة، ونعم الجليس والعمدة، ونعم النشوة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوَحْدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل؛ والكتاب وعاء مليء علمًا، وظَرْفٌ حُشي ظَرْفًا، وإناءٌ سُحن مزاحًا وجدًّا؛ إن شئتَ كان أئين من سحبان وائل، وإن شئتَ كان أعيان من باقل، وإن شئتَ ضحكتَ من بواده، وإن شئتَ عجبتَ من غرائب فوائده، وإن شئتَ ألهتك نواده، وإن شئتَ شجّتك مواعظه، ومن لك بواعظ مُلّه، وبزاجر مغرٍ، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وبيارد حارٌّ؛ وفي البارد الحار يقول الحسن بن هانئ:

قُلْ لزهير إذا انتحى وشدا أقلل أو أكثرُ فأنت مهذارُ
سُخِنتَ من شدة البرودة حتّى صرّت عندي كأنك النارُ
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلجُ باردٌ حارُّ

ومن لك بطبيب^(٥٨) أعرابي، وبرومي هندي، وبفارسي يوناني، وبقديم مولّد، وبميت متمتع؛ ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده.

وبعدُ، فمتى رأيت بستانًا يُحمل في ردن، أو روضة تتقلّب في حجر، وناطقًا ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء؛ ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض، وأكتم للسر من

صاحب السر، وأضبط للوديعه من أرباب الوديعه، وأحفظ لما استُحفظ من
الأميين، ومن الأعراب المعربين، بل من الصبيان قبل اعتراض الأشغال،
ومن العميان قبل التمتع بتميز الأشخاص، حين العناية تامة لم تنقص،
والأذهان فارغة لم تُقتسم، والإرادة وافرة لم تستعب، والطينة لينه فهي
أقبل ما تكون للطابع، والقضيب رطب فهو أقرب ما يكون من العلوق،
حين هذه الخصال لم يَبَلْ جديدها، ولم يُفَلَّ غربها، ولم تتفرَّق قواها، وكانت
كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكّنا
وقال عبّده^(٥٩) بن الطيب:

لا تأمّنوا قومًا يشبُّ صبيهم بين القوابل بالعداوة يُنشعُ
هذا مع قولهم: التعلّم في الصغر كالنقش في الحجر. وقال جبران العود:
تُرْكَن بِرَحْلَةِ الرُوحَاءِ حَتَّى تَنَكَّرَتِ الدِيَارُ عَلَى البَصِيرِ
كُوحِي فِي الْحَجَارَةِ أَوْ وُشُومٍ بِأَيْدِي الرُّومِ بَاقِيَةِ النُّشُورِ^(٦٠)
النُّشُور: شيء كان يعمل في الجاهلية مثل الخضرة اليوم.
وقال آخر وهو صالح بن عبد القدوس:

وإنَّ مَنْ أدَّبَتْهُ فِي الصَّبَا كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا أَخْضَرَا بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُسِهِ
وقال آخر:

يَقُومُ مِنْ مِيلِ الْغَلَامِ الْمُؤَدَّبُ وَلَا يَنْفَعُ التَّأْدِيبُ وَالرَّأْسُ أَشْبَبُ

وقال آخر:

أَدَّبْتُ عِرْسِي بَعْدَ مَا هَرِمْتُ وَمِنَ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرَمِ

وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر: اكتب شعري فالكتاب أعجب إلي من الحفظ، إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس، والكتاب لا ينسى، ولا يبدل كلامًا بكلام. وعبت الكتاب ولا أعلم جاريًا أبرَّ، ولا خليطًا أنصف، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاية، ولا أقل جناية، ولا أقل إملالًا وإبرامًا، ولا أقل خلافًا وإجرامًا، ولا أقل غيبة، ولا أبعد من عضيهة، ولا أكثر أعجوبة وتصرفًا، ولا أقل صلفًا وتكلفًا، ولا أبعد من مرء، ولا أترك شغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف عن قتل، من كتاب؛ ولا أعلم قريبًا أحسن مواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر معونة، ولا أخف مؤونة، ولا شجرة أطول عمرًا، ولا أجمع أمرًا، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مجنى، ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجد في كل إبان من كتاب؛ ولا أعلم نتاجًا في حادثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان موجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة، والمذاهب القديمة، والتجارب الحكيمة، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب.

وقد قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٢) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿العلق: ٣ - ٤﴾ وصف نفسه تبارك وتعالى جده بأن علم بالقلم،

كما وصف نفسه بالكرم، واعتدَّ ذلك في نِعَمِهِ العظام، وفي أياديه الجسام، وقد قالت: القلم أحد اللسانين. وقالوا: كل من عرف فضل النعمة في بيان اللسان كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف؛ ثم جعل هذا الأمر قرآنًا، ثم جعله في أول التنزيل، ومستفتح الكتاب، ثم اعلم — يرحمك الله تعالى — أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة لطبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزيلهم، ومحيطة بجماعتهم، مشتملة على أدانيهم وأقاصيهم، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم، مما يُعِيشهم ويحييهم، ويأخذ بأرماقهم، ويُصلح بالهم، ويجمع شملهم، وإلى التعاون على دَرَكَ ذلك، والتوازر عليه كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما بحضرتهم، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تَغِبْ عنهم، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى، واختلال الأدنى إلى معونة الأقصى؛ معانٍ متضمّنة، وأسباب متصلة، وحبال متقيدة، وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم، وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا، ولذلك تقدّمت في الكتب البشارات بالرسول، ولم يُسَخَّرْ لهم جميع خلقه إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه، وجعل الحاجة حاجتين: إحداهما قوام وقوت، والأخرى لذة وإمتاع، وازدياد في الآلة، وفي كل ما أجذل النفوس، وجمع لهم العتاد، وذلك المقدار من جميع الصنفين وَفَّقَ لكثرة حاجاتهم وشهواتهم، وعلى قدر اتساع معرفتهم، وبُعد غورهم، وعلى قدر احتمال طبع البشرية، وفطرة الإنسانية، ثم لم يقطع الزيادة عنهم إلا لعجز خلقهم عن احتمالها، ولم يُجْزْ أن يفرق بينهم وبين العجز إلا بعدم

الأعيان، إذا كان العجز صفة من صفات الخلق، ونعتاً من نعوت العبيد، ولم يَخْلُق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض مَنْ سَخَّرَ له، فأدناهم مُسَخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّرٌ لأدقِّهم، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوق في باب، وأحوج السوق إلى الملوك في باب، وكذلك الغني والفقر، والعبد وسيده.

ثم جعل الله تعالى كل شيء للإنسان خَوَلاً وفي يده مُذالاً ميسراً؛ إما بالاحتيال له، والتلطف في إراغته واستمالته، إما بالصولة عليه والفتك به، وإما أن يأتيه سهواً ورهواً، وعلى أن الإنسان لولا حاجته إليها لما احتال لها، ولما صال عليها، إلا أن الحاجة تفرق في الجنس والجهة، وفي الحظ والتقدير، ثم تعبَّد الإنسان بالفكر فيها، والنظر في أمورها، وبالاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحِكَم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقُّب والتنقير، والتنبُّت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم، ومعبراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرفة لمواضع سد الخلة، ودفع الشبهة، ومداواة الحيرة؛ ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التي لا يتعرَّف ما فيها من دفائن الحكم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، إلا بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتراس من وجوه الخدع، والتحفظ من دواعي الهوينى، ولأن الشكل أفهم عن شكله وأسكن إليه وأصعب به، وذلك موجود في أجناس

البهائم وضروب السباع، والصبي عن الصبي أفهم وله ألف، وإليه أنزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الأنعام: ٩؛ لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه؛ ثم لم يرضَ من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يقلل، وأظهر ولم يُخفِ، فجعل أصناف البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء وفي خصلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تكمل بجنسه الذي وضع له، وصُرف إليه.

وهذه الخصال الأربع: هي اللفظ والخط والإشارة والعقد، والخصلة الخامسة: ما أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة الصامتة، والساكنة الثابتة، التي لا تنبس ولا تفهم، ولا تحس وتتحرك إلا بداخل دَخَلَ عليها، أو عند ممسك خَلَّى عنها بعد تقييده كان لها؛ ثم قسم الأقسام، ورتَّب المحسوسات، وحصَّل الموجودات، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك بين الناظر واللامس، في معرفة العقد إلا بما فضَّل الله به نصيب الناظر في ذلك على نصيب اللامس، وجعل الخط دليلاً على ما غاب من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه، وجعله خازناً لما لا يأمن نسيانه مما قد أحصاه وحفظه، وأتقنه وجمعه، وتكلَّف الإحاطة به، ولم يجعل للشام والذائق في ذلك نصيباً.

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير البسيط، ولَبْطَلَت معرفة التضاعيف، وَلَعَدِمُوا الإحاطة بالباورات، وباورات الباورات، ولو

أدركوا ذلك لما أدركوه إلا بعد أن تغلظ المئونة، وتنتقص المنة، ولصاروا إلى حال معجزة وحسور، وإلى حال مضيعة وكلال حد، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الآلة لكان أربح لهم، وأرد عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل في أبواب منافع الدين والدنيا؛ ونفع الحساب معلوم، والخلة في موضع فقدته معروفة، قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣﴾ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴿الرحمن: ١ - ٤﴾، ثم قال: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ﴿الرحمن: ٥﴾، وبالبيان عرف الناس القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ﴿يونس: ٥﴾، فأجرى الحساب مجرى البيان، وألحق البيان بالقرآن، وبحسبان منازل القمر عرفنا حالات المد والجزر، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار. ولولا الكتب المدونة، والأخبار المخلدة، والحكم المخطوطة التي تحصر الحساب وغير الحساب، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفرغ إلى موضع استذكار، ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع؛ إذ كنا قد علمنا أن مقدار حفظ الناس لعوادل حاجاتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً، ولا يغني فيه غناء محموداً، ولو كلف عامة من يطلب العلم، ويصطنع الكتب، ألا يزال حافظاً لفهرس كتبه لأعجزه ذلك، ولكلف شططاً، ولشغله ذلك عن كثير مما هو أولى به؛ ففهمك لمعاني كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجرداً، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومُعَامِلِكَ، والمعاون لك ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مُصَمَّتاً، ونداء خالصاً، ولا يكون مع ذلك إلا وهو بعيد من

المفاهمة، وعُطِلَ من الدلالة، فجعل الله جل وعز اللفظ لأقرب الحاجات، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً، والكتاب للنازح من الحاجات. فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب، وكسر الأجفان، وليُّ الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه؛ وأبعدها أن تُلوي بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر، ثم ينقطع عملها، ويدرس أثرها، ويموت ذكرها، وتصير بعد كل شيء فَضْلَ عن انتهاء مدة الصوت، ومنتهى الطرف في الحاجة، إلى التفاهم بالخطوط والكتب؛ فأَيُّ نفع أعظم، وأي مرفق أعون من الخط، والحال فيه كما ذكرنا!

وليس للعقد حظ الإشارة في بُعد الغاية، ولا للإشارة حظ الخط في بُعد الغاية، فلذلك وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع، ونوّه بذكره في المنصب الشريف حين قال: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ القلم: ١، فأقسم بالقلم كما أقسم بما يُحِطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه، ولا يَشُقُّ غباره، ولا يجري في حَلْبَتِهِ، ولا يتكلّف بُعد غايته، ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم في سائر الأماكن، وكانت الحاجة إلى بيان اللسان حاجة دائمة راکدة، وراهنة ثابتة؛ وكانت الحاجة إلى بيان القلم أمراً يكون في الغيبة وعند النائية، إلا ما خُصت به الدواوين، فإن لسان القلم هناك أبسط، وأثره أعم، فلذلك قدّموا اللسان على القلم، فاللسان الآن إنما هو في منافع اليد والمرافق التي فيها، والحاجات التي تبلغها؛ فمن ذلك حظها وقسطها من منافع الإشارة، ثم نصيبها في تقويم القلم، ثم حظها في التصوير، ثم حظها في الصناعات، ثم حظها في العقد، ثم حظها في الدفع عن النفس، ثم حظها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضؤ

والامتساح، ثم انتقاد الدنانير والدراهم، ثم لبس الثياب؛ وفي الدفع عن النفس أصنافَ الرمي، وأصناف الضرب، وأصناف الطعن، ثم الضرب التَّقْنُ بالعود وتحريك الوتر، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته؛ وكيف لا تكون كذلك ولها ضرب الطبل والدف وتحريك الصفاقتين، وتحريك مخارق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس؛ ولو لم يكن في اليد إلا إمساك العنان والزمَام والخطام، لكان ذلك من أعظم الحظوظ. وقد اضطرَبوا في الحكم بين العقد والإشارة، ولولا أن مغزانا في هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أَحَبَّ أن يعرفه إخواننا وخلطاؤنا، ولا ينبغي لنا أيضًا أن نأخذ في هذا الباب من الكلام إلا بعد الفراغ مما هو أولى بنا منه؛ إذ كنتَ لم تنازعني، ولم تَعَبْ كُتُبِي من طريق فضل ما بين العقد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما؛ وإنما قصدنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضل الكتب.

والكتاب هو الذي قَيَّدَ على الناس كُتُبَ علم الدين، وحساب الدواوين، مع خفة ثقله، وصغر حجمه، صامتٌ ما أَسَكَّتْهُ، وبلغٌ إذا استنطقتهُ، ومن لك بمسامر لا يبتدئك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجميل له، والتذمم منه؛ ومن لك بزائر إن شئت جعل زيارته غبًا، ووروده خمسًا؛ وإن شئت لزمك لزوم ظلك، فكان منك مكان بعضك.

والقلم مُكْتَفٍ بنفسه ولا يحتاج إلى ما عند غيره، ولا بد لبيان اللسان من أمور، منها: إشارة اليد، ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاص الخاص، إذا كان أخص الخاص قد يدخل في باب العام، إلا أنه أدنى طبقاته، وليس

يكتفي خاصّ الخاص باللفظ عما أدّاه، كإكتفاء عامّ العام، والطبقات التي بينه وبين أخصّ الخاص.

والكتاب هو المجلس الذي لا يُطريك، والصديق الذي لا يُغريك، والرفيق الذي لا يُملك، والمستميح الذي لا يستزيدك، والجار الذي لا يستبطنك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب.

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك، وبجّج نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام، وصداقة الملوك؛ وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كدّ الطلب، ومن الوقوف بباب المتكسّب بالتعليم، وبالجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً، وأكرم عرقاً، ومع السلامة من مجالسة البغضاء، ومقارنة الأغبياء.

والكتاب هو الذي يُطيعك بالليل كطاعته بالنهار؛ ويُطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلّ بنوم، ولا يعتريه كلال السهر؛ وهو المعلم الذي إن افتقرت لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عُزلت لم يدع طاعتك، وإن هبّت ريح أعاديك لم ينقلب عليك؛ ومتى كنت منه متعلقاً بسبب، أو معتصماً بأدنى حبل، لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى مجلس السوء؛ ولم لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعينك، ومن ملابس صغار الناس، ومن حضور أفاظهم الساقطة،

ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الردية، وجهلاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أن يشغلك عن سُخْفِ المُنَى، وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكل ما أشبه اللعب، لقد كان في ذلك على صاحبه أسبغ النعمة، وأعظم المنة؛ وقد علمنا أن أمثل ما يقطع به الفُرَاغ نهارهم، وأصحاب الفكاهات ساعات ليهم، هو الشيء الذي لا ترى له فيهم مع النِّيل أثرًا في ازدياد في تجربة ولا في عقل، ولا في مروءة ولا في صون عرض، ولا في إصلاح دين، ولا في تسمير مال، ولا في تربية صنعة، ولا في ابتداءٍ بإنعام.

قال أبو عبيدة: قال المهلب لبنه في وصيته: يا بُنَيَّ، لا تقفوا في الأسواق إلا على زَرَادٍ أو وَرَّاق.

وحدثني صديق لي قال: قرأتُ على شيخٍ شاميٍّ كتابًا فيه مآثر غطفان، فقال لي: ذهبتِ المكارمُ إلا من الكتب. وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول: عَبَرْتُ أربعين عامًا ما قِلْتُ ولا بَتُّ إلا والكتاب موضوع على صدري. وقال ابن الجهم: إذا عَشِشَني النعاس في غير وقت نوم، وبئس الشيء النومُ الفاضل عن الحاجة، تناولت كتابًا من كتب الحِكم فأجد اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة، والذي يَغْشَى قلبي من سرور الاستبانة، وعزُّ التَّيْنِ، أشدَّ إيقاظًا من نهيق الحمير، وهَدَّة الهدم. وقال ابن الجهم: إذا استحسنتُ الكتاب واستجدُّهُ، ورجوتُ منه الفائدة، ورأيتُ ذلك فيه، فلو ترونني وأنا ساعةً بعد ساعة أبصر كم بقي من ورقه مخافة استفاده، وانقطاع المادة من قبله، وإن كان المصحف في عظيم الحجم، وكان الورق كثير العدد، لرأيتم كيف تم عِشِي، وكُمِّل سروري.

وذكر القيني كتابًا لبعض القدماء فقال: لولا طوله، وكثرة ورقه، لنسخته! قال ابن الجهم: لكنني ما رغبني فيه إلا الشيء الذي زهدك فيه، وما قرأت كتابًا قط كبيرًا فأخلاني من فائدة، وما أحصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كلما دخلت.

وقال القيني ذات يوم لابن الجهم: ألا تتعجب من فلان! نظر في كتاب الإقليدس مع جارية سَلْمُوِيَه في يوم واحد وساعة واحدة، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يُحْكَمْ مقالة واحدة، على أنه حرٌّ خير وتلك أمة مقصورة، وهو أحرص على قراءة الكتب من سلمويه على تعليم جاريته. قال ابن الجهم: قد كنت أظن أنه لا يفهم منه شكلاً واحداً، وأراك تزعم أنه قد فرغ من مقالة. قال القيني: وكيف ظننت به هذا الظن كله وهو رجل ذو لسان وأدب؟ قال: لأني سمعته يقول لابنه: كم أنفقت على كتاب كذا وكذا؟ قال: أنفقت كذا وكذا. قال: إنما رغبني في العلم أي ظننت أي أنفق قليلاً وأكتسب كثيراً، فأما إذا صرْتُ أنفق الكثير وليس في يدي منه إلا المواعيد فإني لا أريد العلم بشيء. والإنسان لا يعلم حتى يكثُر سماعه، ولا بد من أن تصير كتبه أكثر من سماعه، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألد عنده من الإنفاق من مال عدوه؛ ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألد عنده من عشاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيًا. وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر لذة اتخاذ الكتب إثارة الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يؤمّل في العلم ما لا يؤمّل الأعرابي في فرسه.

وقال إبراهيم بن السّندي مرة: وددتُ أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض، ولا على تحيّر الحبر الأسود البراق،

ولا على استجادة الخط والإرغاب لمن يخط، فإني لم أرَ كورق كتبهم ورقًا، ولا كالخطوط التي فيها خطأ. وإني غرمتُ مالا عظيماً مع حبي للمال وبغضي للغرم، لأنَّ سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سُكر الآفات. وقلت لإبراهيم: إن إنفاق الزنادقة على الكتب كإنفاق النصارى على البيع، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكمة، وكتب فلسفة، وكانت مقاييس تبيين، أو لو كانت كتبهم كتباً تعرف الناس أبواب الصناعات، أو سبل التكسب والتجارات، أو كتب إرفاق ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والأدب، أو كان ذلك لا يقرب من غنى، ولا يباعد من مآثم، لكانوا ممن قد يجوز أن يُظنَّ بهم تعظيم البيان والرغبة في التبيين، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة؛ فإنما إنفاقهم في ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب، أو كإنفاق الهنود على سدنة البُد؛ ولو كانوا العلم أرادوا لكان العلم لهم معرضاً؛ وكتب الحكمة لهم مبذولة، والطرق إليها سهلة معروفة؛ فما بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب ديانتهم كما يزخرِف النصارى بيوت عبادتهم؛ ولو كان هذا المعنى مستحسنًا عند المسلمين، وكانوا يرون أن ذلك داعية إلى العبادة وباعثة على الخشوع، لبلغوا في ذلك بعفوههم ما لا يبلغه النصارى بغاية الجهد.

وقد رأيتُم مسجد دمشق حين استجاز هذه السبيل مَلِكٌ من ملوكنا، ومن رآه فقد علم أن أحدًا لا يرومه، وأن الروم لا تسخو أنفسهم به؛ فلما قام عمر بن عبد العزيز جلَّه بالجلال، وغطَّاه بالكرايس،^(٦١) وطبخ

سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق، وذهب إلى أن ذلك الصنيع مجانب لسنة الإسلام، وأن ذلك الحُسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب، مشغلة دون الخشوع، وأن البال لا يكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه.

والذي يدلنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غرزية ولا فلسفية، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحه، ولا تدبير حرب، ولا مقارعة عن دين، ولا مناضلة عن نحلة؛ وجُله ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد والتهويل بعمود السنخ، والإخبار عن شُقلون وعن الهامة والهمامة، وهذرٌ وعِيٌّ ودعوى وخرافة وسخف وتكذب، لا ترى فيه موعظة حسنة، ولا حديثاً موقفاً، ولا تدبير معاش ولا سياسة عامة، ولا ترتيب خاصة؛ فأى كتاب أجهل، وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الطاعة والبخوع بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة، وليس فيه صلاح معاش، ولا تصحيح دين، والناس لا يجيئون إلّا ديناً أو دنياً؟!!

فأمّا الدنيا فإقامة سُوقها وإحضار نفعها. وأما الدين فأقل ما يُطمع في استجابة العامة واستمالة الخاصة، أن يَصوّر في صورة مُغلّطة، ويموّه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذي يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل. فليس إنفاقهم عليها من حيث ظننت. وكل دين يكون أظهر اختلافاً وأكثر فساداً يحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه إلى أكثر من غيره.

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تبعداً، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده، واحتفالهم في إظهار تعظيمه. وقال بعضهم: كنتُ عند بعض العلماء فكنتُ أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً، فقال لي: اكتب كل ما تسمع، فإن أحسن ما تسمع خير من مكانه أبيض. وقال الخليل بن أحمد: تكثّر من العلم لتعرف، وتقلل منه لتحفظ. وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصدر. وأنشد قول ابن يسير:

أَمَا لَوْ أَعْيَ كُلَّ مَا أَسْمَعُ	وَأُخْفِظُ مِنْ ذَاكَ مَا أَجْمَعُ
وَلَمْ أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قَدْ جَمَعُ	سُتُ لِقِيلٍ هُوَ الْعَالَمُ الْمُقْنَعُ
وَلَكِنَّ نَفْسِي إِلَى كُلِّ نَوُ	عٍ مِنَ الْعِلْمِ نَسْمَعُهُ تَنْزِعُ
أَشَاهِدُ بِالْعِيِّ فِي مَجْلِسِي	وَعِلْمِي فِي الْبَيْتِ مُسْتَوْدَعُ
فَلَا أَنَا أُخْفِظُ مَا قَدْ جَمَعُ	سُتُ وَلَا أَنَا مِنْ جَمْعِهِ أَشْبَعُ
وَمَنْ يَكُ فِي عِلْمِهِ هَكَذَا	يَكُنْ دَهْرُهُ الْقَهْقَرِيُّ يَرْجِعُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا	فَجَمْعُكَ لِلْعِلْمِ لَا يَنْفَعُ

قال أبو إسحاق: كلّف ابن يسير الكتب ما ليس عليها، إن الكتب لا تحيي الموتى، ولا تحول الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكياً؛ وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ وتفتق وترهف وتشفي؛ ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه، فإن ذلك إنما تصوّر له شيء اعتراه. فمن كان عاقلاً ذكياً حافظاً فليقصد إلى شيئين أو ثلاثة أشياء: فلا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواص ويكون غير

غُفِّلَ من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه؛ ومَن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً إلا نسي أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد. وحدثني موسى بن يحيى قال: ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدرسة كتاب إلا وله فيه ثلاث نسخ.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيتَه ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل. قال أبو عمرو: وقيل لنا يوماً: إن في دار فلان ناساً قد اشتملوا على سوءة، وهم جلوس على خيرة لهم وعندهم طُنبور. قال: فذَمَرْنَا عليهم في جماعة من رجال الحي، فإذا فتى جالس في وسط الدار وإذا أصحابه حوله، وإذا هم بيض اللحى، وإذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر، فقال الذي كان سعى بهم: السَّوءة في ذلك البيت، وإن دخلتموه عثرتم بها. قال: قلت: والله لا أكشف فتى أصحابه شيوخ وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دَمٌ يحيى بن زكرياء. قال: وأنشد رجل يونس النحوي قوله:

أُسْتَوْدَعُ الْعِلْمَ قِرْطَاسًا فَضَيَّعَهُ فَبِئْسَ مُسْتَوْدَعُ الْعِلْمِ الْقِرَاطِيسُ

قال: فقال يونس: قاتله الله! ما أشد صبابته بالعلم وأحسن صيانتَه له! إن علمك من روحك، ومالك من بدنك، فضعه منك بمكان الروح، وضع مالك بمكان البدن.

وقيل لابن داحية وأخرج كتاب أبي الشمقمق وإذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفتين وبخط عجيب، ف قيل له: ^(٦٢) لقد ضيَّع درهمه مَن تجوَّد لشعر أبي الشمقمق. قال: لا جرم والله، إن العلم ليعطيكم على حساب ما تعطونه، ولو استطعتُ أن أودعه سويداء قلبي وأجعله مخطوطاً على ناظري لفعلت.

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته، فرأيت السماطين بين يديه والرجال مثولاً كأن على رءوسهم الطير، ورأيت فرشته^(٦٣) وبزته، ثم دخلت عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرُفوف والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم، إلا أنه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السُّودد الحكمة.

وقال ابن داحية: كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس، ونزل مقبرة من المقابر، وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتاب يقرؤه، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة، فقال: لم أرَ أوعظ من قبر، ولا أمتع من كتاب، ولا أسلم من الوحدة. فقليل له: فقد جاء في الوحدة ما قد جاء. قال: ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل!

وضروب من الخطوط بعد ذلك تدلُّ على قدر منفعة الخط، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَرَامًا كُنِينٍ ۝ ١١ يَآمُونُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الانفطار: ١١ - ١٢، وقال الله عز وجل: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ ١٣ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ ١٤ يَأْتِي سَفَرَةٍ﴾ عبس: ١٣ - ١٥، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ الانشقاق: ٧، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ الانشقاق: ١٠، وقال: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الإسراء: ١٤.

الترغيب في اصطناع الكتب

(وبعد أن تكلم عن الخط في الأرض عند التفكير وما قيل في ذلك من الأشعار، وذكر الخط ومقدار الحاجة إليه، وتاريخ الشعر قبل الإسلام، وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب، استطرد القول بالترغيب في

اصطناع الكتب) فقال: إن على من شكر المعرفة بمغاوي الناس ومراشدهم ومضارهم ومنافعهم، أن يحتمل ثقل مئونتهم في معرفتهم، وأن يتوخى إرشادهم وإن جهلوا فضل ما يُسدى إليهم. ولن يسان العلم بمثل بذله، ولن تُستبقى النعمة فيه بمثل نشره. على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم؛ إذ كان مع التلاقي يشتد التصنع، ويكثر التظالم، وتُفَرِّط العصبية، وتقوى الحمية؛ وعند المواجهة والمقابلة يشتد حب الغلبة، وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع؛ وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين؛ فإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة، امتنعت من التعرف، وعميت عن موضع الدلالة؛ وليست للكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة؛ لأن المتوحد بدرسها والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسه، ولا يغالب عقله، وقد عدم من له يباهي، ومن أجله يغالب؛ والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه، ويرجح قلمه على لسانه بأمور: منها، أن الكتاب يُقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار؛ وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع بالمسألة والجواب؛ ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته؛ وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويفنى العقل ويبقى أثره. ولولا ما تسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودوّنت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خسّ حظنا من الحكمة، وضعف سببنا إلى المعرفة؛ ولو أُلجِّنا

إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجربتنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا، لقد قلّت المعرفة، وقصّرت الهمة، وانتقضت المنّة، وعاد الرأي عقيماً، والخطر فاسداً، ولكلّ الحدّ، وتبلّد العقل. وأكثر من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطراً، وأحسن موقعاً، كُتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل عِبرة، وتعريف كل سيئة وحسنة. وما زالت كُتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهارج^(٦٤) والمصاحف، فقد قال الله عز وجل: ﴿الَّذِي ذَلَّلَ لَكَ يَتْلُو رَبِّ فِيهِ﴾ البقرة: ١ - ٢، وقال: ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨. ويقال لأهل التوراة والإنجيل: أهل الكتاب. وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا. على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أنّ من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا، فيما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول، وصلح الدهر، وهوى نجم التقيّة، وهبّت ريح العلماء، وكسد العيّ والجهل، وقامت سوق البيان والعلم. والإنسان ليس يجد في كل حال إنساناً يُدرّسه ومقوّمًا يثقّفه، والصبر على إفهام الرّيّض شديدٌ، وصرف النفس عن مغالبة العالم أشد منه همّاً.

والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيّداً، وبما يحتاج إليه قائماً. وما أكثر من فرّط في التعلم أيام خمول ذكره وأيام حداثة سنّه. ولولا جِياذ الكتب وحسنّها، ومُبيّنها ومختصرها، لما تحرّكت همم هؤلاء لطلب العلم، ونازعت إلى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشو، ولدّخل على هؤلاء من الضرر والمضرة والجهل وسوء الحال ما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير.

ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: تفقّهوا قبل أن تُسودّوا. وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين سنة، ولا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجعل قاضياً؛ وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظنّ أنه باب بعض العمال؛ وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار، أو بلدة من البلدان.

وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرّغ له؛ ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه يغيب ويختمر، ولا يثق بالرأي الفطير؛ فإن لابتداء الكتاب فتنة وعُجْباً، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه وتوقف عند فصوله توقّف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب، ويتفهم معنى قول الشاعر:

إِنَّ الْحَدِيثَ تَغَرُّ الْقَوْمَ خَلَوْتُهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

ويقف عند قولهم في المثل: «كلُّ مُجْرٍ فِي الْخَلَاءِ يُسَرُّ»، فيخاف أن يعتريه ما يعتري مَنْ أَجْرَى فَرَسَهُ وَحْدَهُ، أو خَلًّا بِقَلَمِهِ عِنْدَ فَقْدِ خَصْمِهِ وَأَهْلِ الْمِزْيَةِ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَتِهِ. وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدّب عند ضربه وعقابه؛ فما أكثر مَنْ يعزم على عشرة أسواط فيضرب مائة؛ لأنه ابتداء الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار؛ وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة. والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمشبع فكثيراً ما يُغَرَّ من ولده ويَحْسُن في عينه منه القبيح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب إليه نسباً من ابنه، وحركته أَمْسُ به رَحْماً من ولده؛ لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فُصِلت، ومن نفسه كانت، وإنما الولد كالمَخْطَئة يمتخطها؛ وكالنجامة يقذفها، ولا سواءً إخراجك من نفسك شيئاً لم يكن منك، وإظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك؛ ولذلك نجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته.

وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع بما فيه إلى الروية فيه. ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو، ويحطه عن غريب الأعراب، ووحشي الكلام. وليس له أن يهذه جداً وينقحه ويصفيه ويزوقه حتى لا ينطق إلا باللب وبالسر، وباللفظ الذي قد حذف فضوله وتعرَّق زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاماً وتكراراً؛ لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن تعطس عليها وتؤخذ بها؛ ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره؟! وفي كتاب إقليدس، كلام يدور وهو عربي وقد صُفِّي، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، إلا بأن يفهمه من يريد تعليمه؛ لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام. وقد قال معاوية بن أبي سفيان — رضي الله تعالى عنهما — لَصَحَّار العبدى: ما الإيجاز؟ قال: أن تحيب فلا تبطى، وتقول فلا تحطى. قال معاوية:

أو كذاك تقول. قال صَحَّار: أقلني يا أمير المؤمنين، لا تخطئ ولا تبطئ. فلو أن سائلاً سألك عن الإيجاز فقلت: لا تخطئ ولا تبطئ وبحضرتك خالد ابن صفوان لما عرف بالبديهة وعند أول وهلة أن قولك لا تخطئ مضمن بالقول، وقولك لا تبطئ مضمن بالجواب. وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضوه ورووه؛ ولو أن قائلًا قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننت أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز، ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ. وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار^(٦٥) فقد أوجز، وكذلك الإطالة. وإنما ينبغي أن يحذف بقدر ما لا يكون سببًا لإغلاقه، ولا يردّد وهو يكتفي في الإفهام بشطره، فما فَضَلَ عن المقدار فهو الخطل.

وقلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها؟ وما بالناس نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها؟ وما بالك تقدّم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجل لم أضع كتبني هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلت حاجاتهم إلي فيه، وإنما غايتي المنالة، فإذا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وأنا قد كسبت في هذا التدبير إذ كنتُ إلى التكبس ذهبت، ولكن ما بال إبراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته، فلا يفهم أكثرها؟

وأقول لو أن يوسف السمطي كتب هذه الشروط أيام جلس سلمان بن ربيعة شهرين للقضاء فلم يتقدّم إليه رجلان والقلوب سليمة والحقوق على أهلها موفّرة، لكان ذلك خطأً ولغوًا، ولو كُتب في دهرنا شروط دهر

سلمان لكان ذلك غرارة ونقصاً، وجهلاً بالسياسة وما يصلح لكل دهر؛ ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مدح الملوك أطالوا؛ فلإطالة موضع وليس ذلك بخطل، ولإقلال موضع وليس ذلك من عجز.

ولولا أي أتكل على أنك لا تملُّ باب القول في البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفي الذرة حتى تخرج إلى البعوضة، وفي العقرب حتى تخرج إلى الحية، وفي الرجل حتى تخرج إلى المرأة، وفي الذبَّان والنحل حتى تخرج إلى الغربان والعقبان، وفي الكلب حتى تخرج إلى الديك، وفي الذئب حتى تخرج إلى الضبع، وفي الظِّلْف حتى تخرج إلى الحافر، وفي الحافر حتى تخرج إلى الخُفِّ، وفي الخف حتى تخرج إلى البرُّثن، وفي البرثن حتى تخرج إلى المخلب؛ وكذلك القول في الطير وعامة الأصناف، لرأيت أن ذلك يوجب الملال، ويُعقب الفترة المانعة من البلوغ في الفهم، وتعرُّف ما يحتاج منه إلى التعرف، فرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما تملُّ من كثرة قراءته أبداً وتعتد عليّ فيه بالإطالة؛ لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها أم على حدة. فإن أراد قراءة الجميع لم يُطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جماماً لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى أثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حِكَم عقلية ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب فلعله أن يكون أثقل، والملال إليه أسرع، حتى يُفَضَّى به إلى مَزَح وفكاهة وإلى سُخْف وخرافة. ولست أراه

سخفًا إذ كنتُ إنما استعملت سيرة الحكماء ومأدبة العلماء، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطًا وزاد في الكلم. فأصوب العمل اتباع آثار العلماء والاحتذاء على مثال القدماء، والأخذ بما عليه الجماعة. وقال ابن يسير في صفة الكتب كلمة له:

أَقْبَلْتُ أَهْرُبُ لَا أَلُو مُبَاعَدَةً	فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ فَلَمْ يُحْصِنِي الْهَرَبُ
بَقْصَرِ أَوْسٍ فَمَا وَالَّتْ خَنَادَقُهُ	إِلَى النَّوَافِيسِ فَاَلْمَاخُورُ فَالْخَرْبُ
فَأَيْمًا مَوْتَلَّ مِنْهَا اعْتَصَمْتُ بِهِ	فَمَنْ وَرَائِي حَثِيثًا مِنْهُمْ الطَّلَبُ
لَمَّا رَأَيْتُ بَأَنِّي غَيْرُ مُعْجَزِهِمْ	فَوْتًا وَلَا هَرَبًا قَرَبْتُ أَحْتَجِبُ
وَصَرْتُ فِي الْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِ جَذَلًا	جَارَ الْبَوَاءِ لَا شَكْوَى وَلَا شَغَبُ
فَرَدًّا تُحَدِّثُنِي الْمَوْتَى وَتَنْطِقُ لِي	عَنْ عِلْمٍ مَا غَابَ عَنِّي مِنْهُمْ الْكُتُبُ
هُمْ مُؤَنِّسُونَ وَأَلْفٌ غَنِيَتْ بِهِمْ	فَلَيْسَ لِي فِي أَنْيْسٍ غَيْرِهِمْ أَرْبُ
لِلَّهِ مِنْ جُلَسَاءٍ لَا جَلِيسُهُمْ	وَلَا عَشِيرُهُمْوُ لِلْسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لَا بَادِرَاتِ الْأَذَى يُخَشَى رَفِيقُهُمْ	وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقُ ذَرْبُ
أَبْقَوْا لَنَا حَكَمًا تَبْقَى مَنَافِعُهَا	أُخْرَى اللَّيَالِي عَلَى الْأَيَّامِ وَأَنْشَعُوا
فَأَيْمًا أَدَبَ مِنْهُمْ مَدَدْتُ يَدِي	يَوْمًا إِلَيْهِ فَدَانِ مِنْ يَدِي كُتُبُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْأَثَارِ يَرْفَعُهَا	إِلَى النَّبِيِّ ثِقَاتٌ بَرَّةٌ نُجُبُ
أَوْ شِئْتُ مِنْ عَرَبِ عِلْمٍ بِأَوَّلِهَا	فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتَيْتُنِي بِهِ الْعَرَبُ
أَوْ شِئْتُ مِنْ سَيْرِ الْأَمْثَلِكِ مِنْ عَجَمِ	تُنْبِي وَتُخْبِرُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبُ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَضْرَهُمْوُ	وَقَدْ مَضَتْ دُونَهُ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقْبُ
يَا قَائِلًا قَصَرْتُ فِي الْعِلْمِ مُهَيَّئُهُ	أَمْسَى إِلَى الْجَهْلِ فِيهَا قَالَ يَنْتَسِبُ

إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدْ بَانُوا بِعِلْمِهِمْ خِلَافَ قَوْلِكَ قَدِمَاتُوا وَقَدْ ذَهَبُوا
مَا مَاتَ مِنَّا امْرُؤٌ أَبْقَى لَنَا أَدَبًا يَكُونُ مِنْهُ إِذَا مَا مَاتَ يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجزة وهو يصف صحيفة كُتِبَ له فيها بستان وسقا:

رَاحَتْ بَسْتَانٌ وَسَقًا فِي حَقِيبَتِهَا مَا حُمِلَتْ حُمْلَهَا الْأَدْنَى وَلَا السَّدَا
وَلَا رَأَيْتَ قَلوصًا قَبْلَهَا حَمَلَتْ سِتَانٌ وَسَقًا وَلَا جَابَتْ بِهَا بَلَدًا

وقال الراجز:

تَعَلَّمْنِ أَنْ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَ تَبْقَى وَيُفْنِي حَدِثُ الدَّهْرِ الْغَنَمَ

يقول كتابك الذي تكتبه عليَّ يبقى فتأخذني به وتذهب غنمي فيما يذهب. ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يُجْز أن يعلم أهل الرِّقَّة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في بياض يوم، فتكون الحادثة بالكوفة غُدوةً فيعلمها أهل البصرة قبل المساء.

وذلك مشهور في الحَمَامِ الْهُدِيِّ: إِذَا جُعِلَتْ بُرْدًا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ، وَذَكَرَ سُلَيْمَانُ وَمُلْكُهُ الَّذِي لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِثْلَهُ، فَقَالَ: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ﴾ النمل: ٢٠ إلى قوله: ﴿أَوْ لَا أَذْبَحَتْهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ النمل: ٢١، فلم يلبث أن قال الهدهد: ﴿وَحِثُّكَ مِنْ سَيِّئٍ بَنِيَّ يَقِينٍ﴾ (٢٢) إِلَى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) النمل: ٢٢ - ٢٣ قال سليمان: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ﴾ النمل: ٢٨، وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من عفريت ومن بعض من عنده علم من الكتاب، فرأى أن الكتاب أبهى وأنبل وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان وإن أحاط بجميع ما في الكتاب. وقالت ملكة سبأ: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلُؤُاُ

إِنِّي أَنفَيْتُ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿ النمل: ٢٩ ﴾ ، فهذا مما يدل على قدر اختيار الكُتُب ، وقد يريد بعض الجُلَّة الكبار وبعض الأدباء والحكماء أن يدعو بعض مَنْ يجري مجراه في سلطان أو أدب إلى مآدبة أو ندام أو خروج إلى متنزه أو بعض ما يشبه ذلك ، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه لأصاب مَنْ يحسن الأداء ويصدق في الإبلاغ فيرى أن الكتاب في ذلك أسرى وأنبه وأبلغ ، ولو شاء النبي ﷺ ألا يكتب الكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وإلى بني الجلندري وإلى العباهلة من حمير وإلى هُوْذَةَ بن علي وإلى الملوك العظماء والسادة النجباء لفعل ولوجد المبلغ المعصوم من الخطأ والتبديل ، ولكنه — عليه السلام — علم أن الكتاب أشبه بتلك الحال ، وألحق بتلك المراتب ، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب ، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين ولم يودعها الكتب لفعل ، ولكنه تعالى وعز علم أن ذلك أتم وأكمل ، وأجمع وأنبل ؛ وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يشاكلة أو يجري مجراه ، فلا يرضى بالكتاب حتى يخزمه ويختمه ، وربما لم يرضَ بذلك حتى يُعنونه ويعظمه .

قال الله جل وعز: ﴿ أَمْ لَمْ يَلْبَثْ إِيمًا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۖ ﴾ النجم: ٣٦ - ٣٧ فذكر صحف موسى الموجودة وصحف إبراهيم البائدة المعدومة ليعرّف الناس مقدار النفع والمصلحة في الكتب . قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية تورث البنات العين وتورث البنين الدين ؛ وكانت تصل العجز بالكفاية والمثونة بالكلفة ، وكانت تقول: لا تورثوا الابن من المال إلا ما يكون عوناً له على طلب المال ، واغذوه بحلاوة العلم ، واطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال ، وليرى أنه العدة

والعتاد، وأنه أكرم مستفاد. وكانوا يقولون: لا تورثوا الابن من المال إلا ما يسد الخلّة، ويكون له عوناً على درك الفضول إن كان لا بد من الفضول، فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساد، وإن كان صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم، وبقيتم له من الكفاية ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأن المال لم يزل تابِعاً للحال، وقد لا يتبع الحال المال، وصاحب الفضول بعرض فسادٍ وعلى شفا إضاعة مع تمام الحنكة واجتماع القوة؛ فما ظنكم بها مع غرارة الحداثة وسوء الاعتبار وقلة التجربة! وكانوا يقولون: خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة، وعجل لك حلاوة المحبة، وبقي لك الأحدوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه؛ وليس يجمع ذلك إلا كرام الكتب النفيسة المشتملة على ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرفاق؛ وحجج الدين الذي بصحته وعند وضوح برهانه تسكن النفوس وتثلج الصدور، ويعود القلب معموراً، والعز راسخاً، والأصل فسيحاً؛ وهذه الكتب هي التي تريد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذه وتنفي الخبث عنه، وتفيدك العلم وتُصادق بينك وبين الحجّة، وتعودك الأخذ بالثقة وتجلب الحال وتكسب المال. ووراثة الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة مَنبَهِة للمورث وكنز عند الوارث، إلا أنه كنزٌ لا تجب فيه الزكاة ولا حقُّ السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة ينقصها ما أخذ منها كان ذلك الكنز مائعاً يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورث مذكوراً في الحكماء ومنوّها باسمه في الأسماء، وإماماً متبوعاً، وعَلَمًا منصوباً، ولا يزال الوارث محفوظاً، ومن أجله محبوباً ممنوعاً؛ ولا تزال تلك المحبة نامية ما كانت تلك

الفوائد قائمة، ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثرٌ ما كان من فوائدها على الناس أثر. وقالوا: متى ورّثته كتاباً وأودعته علماً، فقد ورّثته ما يُغْل ولا يَسْتَعْلُ، وقد ورّثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال بايغار، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكار ولا إلى أن يثار، وليس عليها عُشر ولا للسلطان عليها خَرْج، وسواء أفدّته علماً أو ورّثته آلة علم، وسواء دفّعتُ إليه الكفاية أو ما يجلب الكفاية، وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار المسبب، فكتبُ الآباء تحييب للأحياء، ومَحْيَا لذكر الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأب جامعاً بارعاً وكانت موارثه كتباً بارعة، وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليم إليه ويرى تركه خطأ، وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وُطئ له، وأجدر أن يسري إليه عرق من نَجَله وسَقْي من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكتب النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيام مقدار الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة، وإنما تُفسد الكفاية من تمت آدابه، وتوافت إليه أسبابه، فأما الحدث الغرير، والمنقوص الفقير، فخير موارثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب. فخير ميراث وُرث كتب وعلم، وخير المورّثين من أوْرث ما يجمع ولا يفرّق، ويبصر ولا يُعمي، ويعطي ولا يأخذ، ويجود بالكل دون البعض، ويدع لك الكنز الذي ليس للسلطان فيه حق، والركاز الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنعمة التي ليس للحاسد

فيها حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجة، ولا على الجار فيه مئونة.

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكل كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ثمانية أوجه، منها المهمة والمنفعة، والنسبة والصحة، والصنف والتأليف، والإسناد والتدبير، فأولها أن تكون لصاحبه همة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنسب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف. فذكر أن أبقرراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب، وهو كتابه الذي يسمى «أفوريسْمُوا» تفسيره: كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم أصله، وخبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلة خيريه وكثرة شره، واجتماع الأمم كلها على استسقاطه واستسفالته، ومع ضربهم المثل في ذلك كله به، ومع حاله التي يُعرف بها من العجز عن صولة السباع، واقتدارها، ومن تمنعها وتشرفها وتوحشها، وقلة إسماعها، وعن مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها، والانتفاع بها؛ إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخوفة. ولأن الكلب ليس بسبع تام ولا بهيمة تامة حتى كأنه من الخلق المركب، والطبائع الملققة، والأخلاق المجتلبة، كالبعغل المتلون في أخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مزاجه؛ وشر الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادة والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالرابعي من الحمام الذي ذهب

عنه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطلَّ عنه عُمر الورشان، وقوة جناحه، وشدة عصبه، وحسن صوته، وشجا حلقه، وشكل لحونه، وشدة إطرابه، واحتماله لوقع البنادق، وجرح المخالب. وفي الرابعي أنه مسرول مثقل، وحدث له عِظَم بدن وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمه.

وكذلك البغل خرج من بين حيوانين يلدان حيواناً مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقرة؛ فلو كان البغل عقيماً والبغلة عاقراً لكان ذلك أزيد في قوتها وأتم لشدتها، فمع البغل من الشبق والنغظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من الشوس وطلب السِّفاد ما ليس مع أمها؛ وذلك كله قدح في القوة ونقص في البنية، وخرج غُرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبيههما ونزع إلى شيء ليس له في الأرض أصل، وخرج أطول عمراً من أبويه وأصبر على الأثقال من أبويه؛ أو كابن المذكرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجاً من البغل وأفسد أعراقاً من السَّمع،^(٦٦) وأكثر عيوباً من العِسابار،^(٦٧) ومن كل خُلُق خُلِق إذا تركب من ضد، ومن كل شجرة مُطعمة بخلاف؛ وليس يعتري مثل ذلك الخلاسي^(٦٨) من الدجاج، ولا الورداني^(٦٩) من الحمام؛ وكل ضَعْف دخل على الخُلقة، وكل رقة عَرَضت للحيوان، فعلى قدر جنسه وعلى وزن مقداره وتمكنه يظهر العجز والعيب. وزعم الأصمعي أنه لم يسبق الحلبة فرسٌ أهضم قط. وقال محمد بن سلام لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بلقاء.

والهداية في الحمام والقوة على بُعد الغاية إنما هي للمُصممة من الخُضر. وزعموا أن الشَّيات كلها ضعف ونقص، والشَّية: كل لون دخل على لون.

وقال الله عز وجل: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شِئَءَ فِيهَا﴾ البقرة: ٧١ . وزعم عثمان بن الحكم أن ابن المذكرة من المؤنث يأخذ أسوأ خصال أبيه وأردأ خصال أمه فتجتمع فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي، وأنه إذا خرج كذلك لم ينجع فيه أدب ولا يطمع في علاجه طيب، وأنه رأى في دور ثقيف فتى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدثون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب إليه.

وزعمت أن الكلب في ذلك كالخنثى الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لما قُطع منه ما صار به الذكر فحلاً خرج من حد كمال الذكر بفقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى للغريزة الأصلية وبقية الجوهرية؛ وزعمت أنه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحر، فيخرجه من حد الخل، ولا يدخله في حد النبيذ. وقال مرداس بن خدام:

سَقَيْنَا عَقَالًا بِالثَّوِيَةِ شَرْبَةً فَمَالَتْ بُلْبُّ الْكَاهِلِيِّ عَقَالِ
فَقُلْتُ اصْطَبَحْهَا يَا عَقَالُ فَإِنَّمَا هِيَ الْخَمْرُ خَيَّلْنَا هَا بِخَيَالِ
رَمَيْتُ بِأَمِّ الْخَلِّ حَبَّةَ قَلْبِهِ فَلَمْ يَنْتَعِشْ مِنْهَا ثَلَاثَ لَيَالِ

فجعل الخمر أم الخل قد يتولد عنها، وقد يتولد عن الخل إذا كان خمرًا مرة الخمر.

وقال سعيد بن وهب:

هَلَّا وَأَنْتَ بِمَاءٍ وَجْهَكَ تُشْتَهِي رُودُ الشَّبَابِ قَلِيلُ شَعْرِ الْعَارِضِ
فَالآنَ حِينَ بَدَتْ بِخَدِّكَ لَحِيَّةٌ ذَهَبَتْ بِمُلْحِكِ مِلءِ كَفِّ الْقَابِضِ
مِثْلَ السُّلَافَةِ عَادَ خَمْرُ عَصِيرِهَا بَعْدَ اللَّذَازَةِ خَلَّ خَمْرُ حَامِضِ

ويصير أيضاً كالشعر الوسط والغناء الوسط، والنادرة الفاترة التي لم تخرج من الحر إلى البرد فتضحك السن ولم تخرج من البرد إلى الحر فتضحك السن.

هوامش

(١) القوم كالقيام، مصدر قام.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) كذا في الأصل.

(٥) كذا في الأصل.

(٦) راجع ما كتبناه عنه في الفصل العاشر من الكتاب الثالث في المجلد الأول.

(٧) كذا في الأصل.

(٨) هو من أبناء الفرس، وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون، وقد وضع كتاباً حاكياً به كتاب كليله ودمنة وسماه «ثعلة وعفرة». وكان قيّم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) في عهد المأمون. وُلد سهل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة — وفي رواية: في دستميسان، كورة بين الأهواز وواسط والبصرة — في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديراً، ولا يُعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هارون بن راهيون (راهبون)، وكنيته أبو عمرو، فارسي الجنس، أهوازي أو خوزي المولد، عراقي المنشأ، تحول إلى البصرة في سن لم تُعرف، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية، بل مدينة العلم في العالم كله، أو كما قيل فيها «قبة الإسلام، وخزانة العرب»، حوت من العلم الإنساني أصوله وفروعه، ومن القائمين على تنميته مضاعفه وفحوله، فغذى روحه بلُبان مجالسها ومجامعها، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها فتخرج بعلمائها، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جداً، في كل مطلب من مطالب الآداب. وقيل: إن سهل بن هارون كان شيعياً، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الإطلاق معتزلة، ولم يؤثّر عنه أنه تنقّص أحداً من الصحابة الكرام، بل عُرف بالاعتدال مع الأموات، اعتداله مع الأحياء، وما أثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك، ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد، واهتموه بأنه كان مع الشعبيين الذين يصغرون شأن العرب، ولا يرون لهم على العجم فضلاً، وإذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعبية ومن يقول بالنشيع، على المعنى الذي فُسّر به بعد قرون.

وصفه الجاحظ فقال: «كان سهل سهلاً في نفسه، عشيق الوجه، حسن الشارة، بعيداً من الفدامة (العي)، معتدل القائمة، مقبول الصورة، يُقضى له بالحكمة، قبل الخبرة، وبرقة الذهن، قبل المخاطبة، وبدقة المذهب، قبل الامتحان، وبالنبيل، قبل التكشف (الظهور)». وكان الجاحظ مازجاً وثافياً. وقيل للحراني — ولعله إبراهيم بن ذكوان كاتب الهادي ووزيره: «بينك وبين سهل بن هارون صداقة فأنته لنا كي نعرف». فقال: «هو كالخير، وازن العلم، واسع الحلم، إن حودث لم يكذب،

وإن موزح لم يغضب، كالغيث أين وقع نفع، وكالشمس حيث أولت أحيث، وكالأرض ما حملتها حملت، وكالماء طهور للمتمسه، ونافع لعله من أحرّ إليه، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالتنسم؛ وكالنار التي يعيش بها الموقرور، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور» ا.هـ. صورتان جميلتان في وصف سهل صوّرها مصوران مبدعان عاشا بقربه، وفتنهما بخلقه وخلقه.

واتهموا سهل بن هارون باليخل، وأوردوا له قصصاً ونوادير، وربما كان اتهامه باليخل مبالغاً فيه تُراد به النكته والنادرة ا.هـ. من محاضرة للأستاذ الباحث السيد محمد كرد علي، ألقاها بالمجمع العلمي العربي بدمشق ونشرها بمجلتي المجمع والمقتطف.

(٩) الرّيع: النماء والزيادة.

(١٠) إِمْلَاك العجّين: إنعام عجنه.

(١١) اللكعاء: الحمقاء.

(١٢) المزود: وعاء الزاد. والسويق: طعام يتخذ من الخنطة أو الشعير.

(١٣) خصف النعل: خرزها.

(١٤) تصدير القميص: أن يجعل لصدره بطانة.

(١٥) الوضيعة هنا: النقص.

(١٦) هذا مثل يُضرب لمن تظنُّ به الغفلة وهو فطن يَظُن.

(١٧) النزوة: الثورة أو الوثبة.

(١٨) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صُول بن صُول. وصُول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً، وكان ملك وأخوه فيروز على جرجان وتمجّسا بعد التركية وتشبّها بالفرس.

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العمال فظهرت كفايته وبلاغته، وبالبلاغة توصّل إلى الخليفة فعُدَّ أحد أفراد قلائل في رجاله، قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت يوماً على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويصعد فيه ويصوّب، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت إليّ وقال: يا أحمد، أراك مفكراً فيما تراه مني. قلت: نعم. فقال: إن في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة، زعم أن البلاغة إنما هي التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ، على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك. وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة إلينا. ففككته فإذا فيه: «كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قواده، ورؤساء أجناده، في الانقياد والطاعة، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم، فاختلت لذلك أحوالهم، والثالث معه أمورهم». فلما قرأته قال: إن استحساني إياك بعثني أن أمرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته. وفي رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر، وأنه قال لأحمد بن يوسف: لله در عمرو ما أبلغه! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الأخبار، وإعفائه سلطانه من الإكثار!

وكان عمرو بن مسعدة — وكنيته أبو الفضل — أبيض أحر الوجه، وكان المأمون يسميه الرومي لبياض وجهه، وكان يخضب، وتوفي بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين. ولم نعرف منشأه ومولده وأساتيده، وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم — وكان كاتباً أيضاً — تربيتهم

كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التي كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه، ويخلوان معه ويهازان حانه. ولكي يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شئونه يجب أن ينطوي على صفات عالية يعز مثلها في الأقران والأتراب.

قال عمرو بن مسعدة: كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه في روايتهم، فرمى بها إليّ وقال: أحب عنها. فكتبت: «قليل دائم خير من كثير منقطع». فضرب بيده على ظهري وقال: أي وزير في جلدك؟!

وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره؛ ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه: إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظنّ أنه يكتب مثله، فإذا رآه بعد عليه. وهذا كما قيل لأحد البلغاء: ما حد البلاغة؟ فقال: التي إذا سمعها الجاهل ظنّ أنه يقدر على مثلها، فإذا رآها استصعبت عليه.

ولم يؤثّر عن عمرو أنه ألّف في موضوع خاص وأفرد مسألة في التأليف، وعده ابن النديم في الشعراء الكتاب، ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهي من الضائع أيضًا. والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتًا يصرفه في درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة، وما تلقّطه العلماء والأدباء من كلامه، فهو مما صدر عنه بالمناسبات، ورواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه! والمظنون أن لو كانت جُمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير؛ لأن من صرّف أعوامًا طويلة وهو قابض على براعته يعالج بها الموضوعات السياسية والإدارية في ذاك المجتمع العظيم لا شك أنه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلًا معروفًا بالإيجاز. ا.هـ. من محاضرة للأستاذ الباحث محمد كرد علي نشرها بمجلة المجمع العلمي العربي. وفي عمرو بن مسعدة قال محمد البيدق وقد اعتلّ:

قالوا أبو الفضل معتلّ فقلت لهم نفسي الفداء له من كل محذور
يا ليت علته بي غير أن له أجر العليل وإني غير مأجور

وتجد ترجمته في معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوافي بالوفيات للصفدي (ج ٥ ص ٥٠٢ قسم ثالث من الأصل الفتوغرافي المحفوظ بدار الكتب المصرية). (١٩) في الأساس: ومن المجاز فلان طيب الطّعمة وخبيث الطّعمة (بالكسر)، وهي الجهة التي منها يرتزق (بوزن الحرفة).

(٢٠) أجزأني كذا: كفاني.

(٢١) فرّ عن ذكاء، وفطنة؛ أي جرّب واختبر فيهما.

(٢٢) وعض على قارحة، كناية عن بلوغه درجة الكمال.

(٢٣) الدّهاقين: الزعماء أرباب الأملاك بالسواد، وأحدهم دهقان (بكسر الدال معرب).

(٢٤) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال)، والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق).

(٢٥) في العقد الفريد: «بين دير هرقل ودير العاقول».

(٢٦) الموضحة: الشجة التي تبدي وضح العظام.

(٢٧) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنافي البصري صاحب التصانيف الممتعة والرسائل المبدعة. وقد تقدّم الكلام عليه في المجلد الأول من هذا الكتاب. وُلد حوالي سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة، ونشأ بها فتناول كل فنٍّ ومارس كل علم عُرف في زمانه مما وُضع في الإسلام أو نُقل عن الأمم الأوائل، فأصبح له مشاركة في علم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال، فهو راوية، متكلم، فيلسوف، كاتب، مصنف، مترسل، شاعر، مؤرخ، عالم بالحيوان والنبات والموات، وصّاف لأحوال الناس ووجوه معاشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم، إلا أنه غلب عليه أمران: الكلام على طريقة المعتزلة؛ فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة، والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة؛ فهو أول من ألّف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما. وكان غاية في الذكاء ودقة الحس وحسن الفراسة إلى دعابة فاشية، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس أنفسهم ويتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية، وعدم مبالاة بوقوع المتورعين فيه. وكان سمحاً جواداً كثير المماساة لإخوانه، وكان على دمامة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح، فكّه المجلس، غاية في الظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام. وهو على الجملة أحد أفاضل العالم وأحد حجج اللسان العربي. توفي سنة ٢٥٥ هـ ببغداد بمقبرة الخيزران. وتجد ترجمته في معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦-٨٠) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٣).

(٢٨) في الأصل: «المخلص».

(٢٩) قال في شرح القاموس: كل ما في العرب من هذا الاسم «فرافصة» فهو بضم الفاء إلا فراصة أبا نائلة فهو بالفتح لا غير.

(٣٠) أطنوا: قطعوا.

(٣١) حصّ بعضهم بعضاً عليه متهددين.

(٣٢) الزابوقة: موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أول النهار.

(٣٣) نسبه الله إلى الجور.

(٣٤) يشير بذلك إلى ما ورد عن الحجاج أنه قال في كلام له: ويحكم أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله إليهم؟! يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة. وبمثل هذا رمي الحجاج بالكفر، وقد عقد ابن عبد ربه في العقد الفريد فصلاً فيمن زعم أن الحجاج كان كافراً. راجع العقد الفريد (ج ٣ ص ٢٣).

(٣٥) في الأصل: «حسن»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه كما في شرح القاموس والطبري.

(٣٦) كذا في الأصل، ولعله: وصاروا شركاء إلخ.

(٣٧) معان بفتح الميم والعين: المباءة والمنزل.

(٣٨) أي على سفر.

(٣٩) اعتمدنا في تصحيح هذه الفصول على الأصل الفتوغرافي المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ آداب؛ لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر في غاية التحريف وملاى بالأخطاء.

- (٤٠) البَدَدَة جمع بد، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نفسه كما قال ابن دريد.
- (٤١) التَّمِير والترقيح: نمو المال وإصلاحه.
- (٤٢) الأَفِيل: صغير الإبل.
- (٤٣) والصواب أن البيتين لطرفة، وهما من جملة أبيات في ديوانه.
- (٤٤) الغُمَر مثلثة الغين: من لم يجرب الأمور، والجاهل الأبله.
- (٤٥) أجربنا: قصدنا.
- (٤٦) الطلي: الأعناق.
- (٤٧) العريض: الذي يتعرض للناس بالشر.
- (٤٨) كذا في الأصل، وفي اللسان في مادة لجج: تضاحكت حتى يثلج ويستشري.
- (٤٩) في اللسان مادة «فقاً» «المعنى».
- (٥٠) كذا في الأصل وفي اللسان «المحتبي» بالخاء المهملة.
- (٥١) السواف: مرض الإبل.
- (٥٢) الرعلاء: التي تُشقُّ أذنّها وتترك مدلاة لكرمها.
- (٥٣) كذا في الأصل، وفي اللسان مادة عتر «وظلمًا».
- (٥٤) في اللسان: «غضبت».
- (٥٥) في الأصل «وإن» والتصويب عن اللسان.
- (٥٦) الثفر: السير الذي في مؤخر السرج.
- (٥٧) وروي: تائه.
- (٥٨) كذا في الأصل، ولعلها: «بنطي».
- (٥٩) في الأصل: «تميرة» وهو خطأ صوابه ما أثبتناه عن الشعر والشعراء لابن قتيبة.
- (٦٠) النثور: شيء كان يعمل في الجاهلية مثل الخضرة اليوم.
- (٦١) الكرايس جمع كرباس: ثوب من القطن الأبيض. وقيل: الثوب الخشن، فارسي معرب.
- (٦٢) كذا في الأصل، ولعلها زائدة.
- (٦٣) الفرشة: الهيئة.
- (٦٤) المهراق جمع مهراق، وهو ثوب حرير أبيض يسقى بالصمغ ويصقل ثم يكتب فيه، فارسي معرب.
- (٦٥) الطومار: الصحيفة.
- (٦٦) السَّمْع (بكسر السين وإسكان الميم وبالعين المهملة): ولد الذئب من الضبع، وهو سبع مركب فيه شدة الضبع وقوتها وجراءة الذئب وخفته (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ٣٢).
- (٦٧) العَسبار (بكسر العين وبالسین الساكنة) والأُنثى عسبارة: ولد الضبع من الذئب، وجمعه عسابر (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ١٣٩).
- (٦٨) الخلاسي: الولد بين أبوين أبيض وأسود، والديك بين دجاجة هندية وفارسية.
- (٦٩) الورداني (بالراء المهملة): طائر متولد بين الورشان والحمام، وله غرابة لون وظرافة قد.

باب الرسائل

(١) الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة في كل فن^(١)

كتب رجل إلى صديق له:

إن آباءك شادوا أكارمهم بالفضائل التي كانت فيهم، وإنك قد كنت أخذت في مدرجتهم فأوفيت على غايتهم، ثم اختلجك الهوى ببعض جديلتك^(٢) وجودك، من لباس فضلك الذي كنت تطول به على أكفائك، وتملك به أعنة كافة جنذك، وألقيت مالك على شر عواقبه عليك لا لك إن زلت مكاره بوادره عنك.

فصل: قيل إن مروءة الرجل في نفسه نسب لقوم آخرين، فإنه إذا فعل الخير عُرف له، وبقي في الأعقاب والأصحاب، ولقيه يوم الحساب.

فصل: إن حق الله على المسلمين أن ينظروا في دينهم بالنصيحة لأئمتهم، فإن الأئمة إذا صلحوا بَدَل الهوى بالتقوى في قلوبهم، وماتت سورة الغضب فيهم لأحلامهم، وسكنت العامة إلى عدلهم وذلت لإنصافهم. وإذا كان للمحسن من الحق ما يقنعه، وللظالم من النكير ما يقمعه، بذل المحسن الحق عليه رغبة، وذلل المسيء بالحق عليه رهبة. فأول ما أمرك به رجاء الله وتقواه؛ فأما رجاءه فأن تحسن به في الصنع إذا أطلعت، ويكون لك وقاية إذا أثرته مطمئناً. وأما تقواه فأن تكون له فيما أمرك به ونهاك عنه مراقباً؛ فإن تقيّة المؤمن تزيد في انشراح صدره، وإن شدة خوفه ترد هواه على عقله.

فصل: تنبّه إذا نُبهت، واذكر إذا ذُكرت، وانتفع فقد وُعظت، واسمع فقد نوديت، نبّهك الوعيد، وحذرك الزاجر، وأمرّك ونهّاك الكتاب، ونعتك آثار الموت، ودعاك إلى الجنة مليء جواد، فالجد الجد، فقبل المهجرة يريح المدلج. فصل: ما نظرت في معروفي عند أحد، فوجدته قُصّر عن أمله وكان يمكنني أن يكون أكثر منه، إلا عددته سيئة لي عنده، لأنني ذوّقته ما أحبّ، ثم منعتة إياه، وكأني قصدت لأشخاص قلبه. ولا نظرت في معروفي عند أحد فوجدته قد تناهى عند تناهي أمله وكان يمكنني أن يكون أكثر منه، إلا رأيته في ذلك واطرأ النفسي، لأنه كفى عيباً لها وإزاء بها، أن أقنع^(٣) ... فضل نتخذه بمثل ما أقنع رجلاً من فضل يتخذه عليه.

فصل: ما أنت ممن يعلم من جهل به، ولا تحس منه بادرة زلة، ولا يقابل بين أمرين إلا عرف خيرهما فأثره، وشرهما فاجتنبه. وقد رأيت ما ساقط إليك الطاعة من حظ العاجلة، فلا تتعرض لزوال ما أنت فيه، فتخسر الحظين، وتندم في الدارين؛ فقد رأيت من عاند الحق كيف صرعه الله وبسط يد وليّه على سفك دمه، وإحلال النقمة به، فصار بعد أن كان في الأمنية مثلاً، وجميع الخلق غاية وأملاً، فكرةً في الاعتبار، وعظةً للأبصار. فلا يبعد الله إلا من ظلم وختر، وذهب عن الحق وأدبر. وأنت اليوم محكّم في أمرك، مخير في رأيك، تُدعى إلى حظك بالخط الجزيل بتدليل. فاهتبل ما قد هدف لك وهو ممكن لديك، فإنك إن أهملت وتراخيت، لم يكن بالحق ووليه وحشة إليك، ومضت أحكام الله في نصرها وتأييدها على أذلّالها،^(٤) وصفرت يدك بما لا يُشرف لك بمثله، وأخطرت بدمك وأسلّته أخبث مسيل وأضلّ سبيل، حيث لا تبكي عليك السماء والأرض.

فصل: الناس رجالان: عالم لا غنى به عن الازدياد، وجاهل به أعظم الحاجة إلى التعلم، وليس في كل حال يكون العالم لما بيده من الأمور معدًا، ولا المتعلم على ما يستفيد منه قادرًا وفيًا.

فصل: إن أنت عطلتنا من أمورك، وأعفيت ظهورنا من أثقالك ومثوثك، وتركتنا أغفلاً في ولايتك من تنبيهك وتحريكك، فقد أنزلتنا منزلة من لا خير عنده، وجعلت نفسك أسوة من لا معين له، وكفى بذلك ظلمًا.

فصل: إن إعلامي إياك^(٥) ... غير محدّد شيئًا، ولكنه أقرب من الجميل في معرفة عذر المعتذر، وأحمل للائمة على المسيء المقصّر.

فصل: الذي اعتمدنا عليه من رأيك، وثق به من جميل نظرك، قد خلطني بأهل صنائعك، والخاصة من ثقاتك، وبسط أمني فيك إلى غاية خير يُرتجى، أو جزيل حظ يؤمل.

فصل: ليس يسوغ لأحد في الأمير أمل، ولا يتوجه إليه منه رغبة، ولا يلزمه في قضاء حقه، ودنانة^(٦) مئونه إلا وفضله مستغرق لها.

فصل: من أحمد الأمور وأجمل المذاهب، ما كان آخره موصولاً بأوله، ومؤدياً بدؤه إلى حمد عاقبته؛ فحافظ على الأمور التي حُسُن فيها عند أمير المؤمنين أثرك، مستقلاً فيها لكثير ما يكون منك، معتدًا بها في النعم عندك، والإحسان الواصل إليك، فيما يوفقك الله له منها ويخصك به من الفضل في اختيارها، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك، ويستمتع في النعمة فيك.

فصل: قد كان يجب أن تجعلنا بمتابعة النعم علينا في خاصة الشاكرين لفضلك، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات إلينا في عامة الشاكرين لك.

فصل: علمي بما بنى الله عليه أخلاق الأمير — أكرمه الله — وجعل عليه رأيه في بسط العدل على رعيته، وبث الفضل على مُلتَمسي فضله، يبعثني

على الكتاب في مثل ما كتبت إليه فيه، من ظلامة مظلوم يستعيز فيها بعدله، وحاجة ملهوف يرجع فيها إلى فضله؛ فأجمع إلى ما ألتمس من الثواب في ذلك موافقة رأي الأمير، وإذكاره ما يجب أن يذكر به؛ فزاد الله الأمير من نعمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يوجب له تتابعها عنده، وترادفها له.

فصل: أنت — والحمد لله — ممن احتمل الصنوعة، وقبل الأدب، وصدق المخيلة، وخلص على المحنة وحسن الظن؛ فاستقامت طريقته وقدمه جميل مذهبه وآثاره، وجرت على قصد السبيل طاعته، واشتدت على السريرة والعلانية مناصحته؛ فأصبح أمير المؤمنين لا يتناهى في برك وتكرمتك، إلا رآك مستحقاً لها ولما فوقها، ولا يرفعك إلى درجة إلا رآك أهلاً لأشرف منها، صنعا من الله لك بما وفَّقك له من طاعته، ووهب لك من جميل مراتبه، والمكان منه والأثرة عنده.

فصل: فضل مشاركتنا إياك في محبوب الأمور ومكروها يحملنا في السرور بالنعمة عندك — فجددها الله لك — ويوجب الشكر بما يكون لحقها قاضياً، وللمزيد فيها موجباً.

سعيد بن حميد: شُغِّلِكَ يقطعنا عن مطالبتك بالحق في جوابات كتبنا إليك، وصدق مودتنا لك يمنعنا من التقصي في الحجة عليك، ومن يكللك إلى رأيك فإنه لا يفي بك إلا لك، صلة إخوانك والتعاهد لهم من برك، بما يشبه فضلك والنعمة عليهم فيك.

وفلان بيني وبينه مودة أقدمه بها على الأخوة؛ لأنك تعلم قرب ما بين المودة والقربة، وقد بلوته على الحالات كلها، فلم يزدني اختباره إلا اختياراً له؛ ولا أعلم بالعسكر جليلاً إلا وهولي صديق، يشكر بشكره ويوجب

على نفسه المنّة فيما أتى إليه؛ فأما من بين إخوانه فلست أعدل من قضاء حقه، ولا أتأخر عن معروف أسدي إليه؛ فإن رأيت أن تحلّه بالمحل الذي يستحقه بنفسه وسلفه، فوالله ما رأيت سوق الأحرار أنفق منها عندكم أهل البيت؛ أبقى الله تبارك وتعالى باقيكم ورحم ماضيكم.

فصل: إن أحداً ليس بمستخلص شيئاً من غصارة عيش إلا من بين خلال مكارهه، فمن انتظر بعاجل الدرك آجل الاستقصاء سلبته الأيام فرصته، لأن من صناعتها السلب، ومن شرط الزمان الإفاة.

فصل: إن الأمير قد جلّ فضله عن أن يحيط به وصف، أو يأتي على تعداده اجتهداد، فلو كان شيء أكثر من الشكر لكان الأمير يستحقه علينا، ويستوجه منا.

فصل: قد أصبح المختلفون مجتمعين على تقرّظه ومدحه، حتى إن العدو يقول اضطراراً ما يقوله الولي اختياراً؛ والبعيد يثق من إنعامه علينا بما يثق به القريب خاصاً.

فصل: المائلون إليه بين نعم مكتنفة من تالد به يستديمونه، وطارف منه يستعيدونه، ومواهب متجددة، وفوائد مترادفة؛ هي مبسوطة به إلى بركة أيامه، وعلو حظ^(٧) من اتصل به، فزاده الله من فضله، وزاد أوليائه به وبركة دولته.

فصل: اعتمدت أخاً لا يُذمُّ إخاؤه، ولا تُنكر أحواله، على بُعد الدار وقربها، واتصال المكاتبه وانقطاعها؛ تجده متصرفاً معك في الخطوب التي يطرق بها الزمان، ويداً لك في الأمور التي يمتحن فيها الإخوان.

فصل: أسأل الله أن يجعل ما تطول به فيه من الجلالة في القلوب والعيون عند الولي والعدو موصولاً بالإنساء في مدته، والإدامة لعزه وسلامته، والإعلاء ليدّه وكلمته.

أحمد بن يوسف: عندي فلان وفلان، فإن كنا من شأنك فقد آذناك.
في صفة حرب: كانت لكم الكرّة، وعليهم الدّبرة؛ فحملوا حملةً كاذبة،
أتبعناها بأخرى صادقة.

فصل في هديّة: قد أهديتُ إليك من فنون كلامي وعيون مقالي، دفترًا
ظريف المعاني، شريف المباني، صحيح الألفاظ؛ يلذ بأفواه الناطقين، ويلين
على أسماع الصامتين.

فصل في شفاعّة: لفلان قبلك حاجة، ليس يحتاج فيها إلى معدّلتك
ونصفتك المبسوطتين لمن لا يتوسل بخلطتك ومعرفتك، ولكنه يريد
ما في ذلك العدل والإنصاف من الرفق والإحسان المذخورين للخاصة
والإخوان.

فصل لرجل تميمي: ضَعُفُ حالي يدعوني إلى كثرة الطلب، ومعرفتي بجميل
رأيك تحجّزني عن الإلحاح عليك، خوفًا أن أكون جاهلاً بعنايتك، وحسن
نظرك، والكرم يستحيي بعضه لبعض، ويبعث بعضه بعضًا، ودين حيلته
الغير على العقود، فبعثه كرمه للنهوض، أو دعاه هواه إلى المنع، فجاءه عقله
على البذل؛ وحالي جانحة لدى فضلك ونعمة الله عليك من سدّ خلّتها،
ومداواة علّتها بجاهك الواسع، ورفدك النافع.

أحمد بن يوسف: قد بذلتَ لنا من نفسك أعزَّ مبذول وأنفسه، والمودة التي
كلما يُحمد من صاحبها، فهو لها نافع. وثقّتنا بك واستنامتنا إلى ناحيتك،
على أحسن ما أكّد الله بيننا وبينك. وإن كان مدى اللقاء بيننا لم يَطُلْ فأثّل
منه ما يرعاه أهل الوفاء والمخالصة، ويقصّر في المحافظة عليه وعلى أكثر
منه، من دَخِلَتْ نيته، وضَعُفَتْ خلّته.

فصل: قد أصبحت للخاصة عُدَّة، وللعامّة عِصمة، وللأنام ثقة في مناصحتك.

فصل في الصفح لأبي علي: إن الذي فرط منك، وإن تجاوز مني ما أرضاه لك، لم يبلغ ما يُغضبني عليك؛ وحيث انتهى ما يخالفني من قولك وفعلك، فإن وراءه تغمُّدًا مني لإساءتك وصفحًا عن زلتك؛ فإن تأمنًا لا نخنك، وإن يسؤ ظنك فإننا نحتاج إلى إصلاحه منك.

أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها:
بلغني استقلالك لما ألفتك، والذي نحن عليه من الأنس سهّل علينا قلة الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتم.
كتب عقّال بن شبّة إلى خالد بن عبد الله في شفاعته:

إن الله انتجبك من جوهرة كرم ومنبت شرف، وقسم لك خطرًا شهّرتّه العرب وتحدّثت به الحاضرة والبادية، وأعان خطرك بقدرة مبسوطه، ومنزلة ملحوظة؛ فجميع أكفائك من جماهير العرب، يعرف فضلك، ويسرّه ما خار الله لك، وليس كلهم أداله الزمان ولا ساعده الحظ؛ وأنت أحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يُبقي له ذكره ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجّهت إليك فلانًا، وهو من دنية قرابتي، وذوي الهيئة من أسرتي، وعرف معروفك؛ وأحببت أن تلبسه نعمتك وتصرفه إليّ وقد أودعتني وإياه ما تجده باقيًا على النشر، جميلًا في الغب.

فصل في التوديع

أستودع الله الأمير بأحسن وداعه، وأسأله أن يجعله في كنفه وحرزه، فقد أكرم المثوى، وأحسن الابتغاء؛ فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النعماء.

في الصفح

بلغني كتابك، تذكر كتابي إليك بوضعي عنك موجدتي، وردّي لك إلى أحسن ما عهدت من منزلتك عندي؛ وقد حللت منا المحل الذي خلطناك فيه بأنفسنا، وأدخلناك منه مداخل أهل ثقتنا؛ ولست تؤتى من جهالة بما أنت فيه، ولبعض ما أنت عليه من التجارب تُستفاد بمثلها العبر، ويُتفع بها في عطف الأمور.

جواب في فتح

كتب سالم بن هشام إلى يوسف بن عمر حين قتل زيد بن علي رحمة الله عليه: قد بلغ أمير المؤمنين كتابك بما أبلى الله في مدره السوء، وأنه لما عصّتهم الحرب، وآلمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكذب الله ظنونهم، وخذل مخرجهم، وقتل إمام ضلالتهم؛ وحفظ لأمر المؤمنين ما ضيعوا من حقه، وحاط له ما أباحوا من الغدر فيه؛ وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نعمه، الصفح عنهم، وتغمّد حرّمهم، وأن يعمهم من عدله، بما يردُّ به الجاهل عن جهله، والغوي عن غوايته؛ ويعلمون مكانه من الله، واستجابته لعزه ونصره؛ وأنه الخليفة المتّقى، والإمام المتألف؛ وأنه يقدّم العفو في الطاعة، على الحجة في العقوبة، والحسبة في الاستصلاح، على القوة في التأييد؛ فأمسك عنهم بيدك؛ فإن أمير المؤمنين قد وهب ذلك كله لله، ورجا به ما ليس ضائعاً عنده من ثوابه.

في الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع إلى الغدر، قلدناه عنان الهجر، لم يكن أقرب منا إلى الذنب، ونحن نرد عليك من نفسك، ونأخذ لنفسك منك، حتى يكون تركنا إياك، وعذرنا فيه وافرًا.

فصل: الحمد لله على البلية التي طال أمدها، وُبعد ما بين طرفيها.
آخر: اقتفرت في الثبُت أناة ذوي الحجى، وقَدَّمت المقدم من الأناة على العجلة، وأطعت في أمرك النظرة، وانتهيت إلى العذرة والمعرفة، فملك ما ملَّكك، وحكمت على الذي حكم عليك، فأخذت مثل الذي أعطيت.
فصل: بدء أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها، والخيرة بعد الله عز وجل.

فصل اعتذار

لو كان الناس يقضون الحقوق التي تجب عليهم، ويحافظون على الأمور التي تلزمهم، لقلت اللائمة، وخلصت المودة، وارتفعت أسباب العتاب؛ ولكنهم عجزوا منقوصون، يضعفون عن العلم، بأكثر ما تدركه عقولهم، وتعوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر، ولا تستحق الإيثار؛ ولم أزل عاتبًا على نفسي فيما ضيَّعت من مكاتبتك، مع معرفتي بفضلك، وموقع ذلك عندك، وما اعتذاري إليك، سوء ظن بك، ولا مخافة لللائمتك؛ ولئن فعلت ما ظلمت؛ غير أنني أحببت أن أكفيك المئونة، فيما عسيَّ أن تنقبض عنه من مقايستي ومعاتبتي؛ وأنا أحب أن تقبل العذر، وتعين على مستقبل البر.

فصل: أنت في زمان إن لم تغالط أهله، وتحتلهم على ما في أيديهم، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة، لم تصل إلى شيء، ولم تجد أحدًا ما على فضل منك وإن عرفه فيك، ولم يفته من محاسنك شيء، إلا رأى في مساوئ غيرك عوضًا منه؛ فكان بذلك أثلج، وإليه أسكن؛ فعليك بالصبر، فإن غايته إلى خير، وأقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه، ولا يلومه أحد، ولعله يظفر أو يدل.

إلى المأمون من عامل

قُلْ مَنْ يَسَارِعَ إِلَى بَذْلِ الْحَقِّ مِنْ نَفْسِهِ، إِذَا كَانَ الْحَقُّ مُضَرًّا بِهِ، وَقُلْ مَنْ يَدْعُ الْإِسْتِعَانَةَ بِالْبَاطِلِ، إِذَا كَانَ فِيهِ صَلَاحٌ مَعَاشِهِ، وَسَبَبٌ مَكْتَسَبِهِ؛ وَإِذَا تَفَرَّقَ الْحَقُّ فِي أَيْدِي جَمَاعَةٍ فَطُوْلِبَتْ بِهِ، تَشَابَهَتْ فِي الْكُرْهِ لِبَذْلِهِ، وَتَعَاوَنْتَ عَلَى دَفْعِهِ وَمَنْعِهِ، بِالْحِيلِ وَبِالشُّبْهِ قَوْلًا وَفِعْلًا؛ وَاحْتَاجَ الْمُتَبَلَّى بِاسْتِخْرَاجِ ذَلِكَ الْحَقِّ مِنْ أَيْدِيهَا، إِلَى اسْتِعْمَالِ مُجَاهَدَتِهَا وَمَصَابِرَتِهَا عَلَى الْحِيلَةِ فِي مَدَافِعَتِهَا.

ابن الكلبي

كَانَ خَبْرٌ مَا أَبْلَاكَ اللَّهُ فِي فُلَانٍ بَعْدَ أَمَانِهِ مَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمَانِ، خَبْرًا عَظُمَ مَكَانُهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ مِنَ الدِّينِ؛ ثُمَّ رَدَفَ خَبْرَكَ بِإِذْعَانِهِ عِنْدَ مَا عَضَّهُ مِنْ بَأْسِكَ، وَمَسَّهُ مِنْ مَوْلَمٍ إِيقَاعَكَ لِلْإِسْتِسْلَامِ، وَطَلَبَ عَقْدَ الْأَمَانِ؛ وَإِنَّكَ بَذَلْتَ لَهُ مَا طَلَبَ لَا لِرَهْبَةٍ بَقِيَتْ فِي نَاحِيَتِكَ، إِلَّا الْإِحْتِذَاءَ عَلَى مِثَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدْبَهُ؛ فَكَانَ إِبَاؤُهُ مَا عَرْضَتْ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ ذَخِيرَةٌ حَظٌّ فِيهَا كَشَفَتْ عَنْهُ الْبُلُوَى مِنْ مُحَمَّدٍ أَثْرَكَ، وَاجْتَمَعَ لَكَ فِي ذَلِكَ حِظَانُ: الظَّفَرِ آخَرًا، وَالدَّرَكِ لَمَّا حَاوَلْتَهُ أَوَّلًا، فَلَا زِلْتَ عَلَى نَصِييِكَ مِنَ الْحِظِّ، مُؤَيَّدًا بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا حَقَّقَ مِنَ الظَّنِّ^(٨)...

من هذه النعمة على يديك وبسعيك.

إبراهيم بن إسماعيل بن داود إلى ذي الرياستين

وَصَلَ إِلَيَّ كِتَابُكَ بِخَطِّ يَدِكَ الْمُبَارَكَةِ، فَلَمْ أَرَقْلِيلًا أَجْمَعُ، وَلَا إِيجَازًا أَكْفَأَ مِنْ إِطْنَابٍ، وَلَا اخْتِصَارًا أَبْلَغَ فِي مَعْرِفَةٍ وَفَهْمٍ مِنْهُ؛ وَمَا رَأَيْتُ كِتَابًا عَلَى

وجازته، أحاط بما أحاط، وضربتُ ظني في فلان فعظم ذلك سروري، وقد يُستعطف الظالم، ويُستعَب المتجني؛ وفي رفقك وعلمك بالأمور ما يُصلح الفاسد، ويذلُّ الصعب، ويُقبل المدبر؛ ولا يمنعك جور من جار عليك، من الاعتقاد في الحجة عليه، والأخذ بالثقة في أمره، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك منقصة ولا غضاضة، بل فيه الإعذار والإنذار والاستبصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية إلى السلامة، والأمن من الندامة.

فصل: أنا في حال عافية، تتجاوز إلى حال نعمة، والحمد لله حتى يرضى، فقد أَرْضَى؛ فأما ما أشرتَ به، وخبرتَ من إمضاء رأيك فيه، والإمساك عنه، فمثلك جعل لمن نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه فرضاً لبعضه أن يتعدى،^(٩) وذكرت أدب فلانة، وعندنا لفلانة الطمع المستقبل مع الإنعام المتقدم، مع أنه لا شيء لها عندنا قل ولا جل، ولو كان ما استحللنا حبسه صفقة كف، ولا تغميض طرف؛ وذكرت أنه لا يستغني مثلنا عن مثلها، وأبدال الله كثيرة عتيدة، وما بان علينا فقد أحد ممن كان قبلها في دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا اختلنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله جزاءك، وحاط لي فيك ما أحب منك، وكفاك المهم وكفانيه بك، فما تقوم نفس لو كانت لي أخرى مقامك في نصيحتي وبري، والاهتمام لي، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمري، لا أعدميك الله ولا النصيحة منك.

فصل: قال أبو جعفر الكرمانى للحسن بن سهل ووعده شيئاً فأبطأ عليه: أنا أعرف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك؛ وأعلم أن فعلك يُربي

على قولك، وأن إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدّم لي من كرمك، ما أثمره إلى أن^(١٠) يلحقه المتأخر عنه، وإلا فدلّني على ما أقول إذا سألتني من بعثته على شكرك، عما بلغه من الحظ على نيتك. فقال الحسن: تقول ما ينبغي. فقال: فافعل ما ينبغي أقله.

عمرو بن مسعدة

وصل إليّ كتابك، على ظمأ مني إليه، وتطلّع شديد، وبعد عهد بعيد، ولوم منّي على ما مسستني به، من جفائك، على كثرة ما تابعت من الكتب، وعدمّت من الجواب، فكان أول ما سبق إليّ من كتابك السرور بالنظر إليه أنساً بما تجدد لي من رأيك، في المواصلة بالمكاتبة، ثم تضاعف المسرة، بخبر السلامة، وعلم الحال في الهيئة؛ ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج، في ترك الكتاب، سالكاً سبيل التخلص مما أنا مخلصك منه، بالإغضاء عن إلزامك الحجة، في ترك الابتداء والإجابة؛ وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة، لا أجشّمك متابعة الكتب، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب؛ ويقتنعني منك في كل شهر كتاب، ولن [تُلزم]^(١١) من نفسك في البر قليلاً، إلا ألزمت نفسي عنه كثيراً، وإن كنت لا أستكثر شيئاً منك؛ أدام الله مودتك وثبت إخاءك، واستمّاح لي منك؛ فرأيت في متابعة الكتب ومحدثي فيها بخبرك موفقاً إن شاء الله.

عيسى بن واضح إلى الفضل بن الربيع

قد أكّد الله من حرّمتي بك، ووصل من الشّعَب بيني وبينك ما جعله ذخيرة ليوم الحاجة، وعُدّة عند ملّم النازلة.

جبل بن يزيد

أما بعد، فإن من صحب الدنيا لم يخلُ من تصرّف أحوالها، وكثرة معاريض فجائعتها، في اخترام الأنفس في خواصها، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يهداها، ويفر من الأشياء عليها؛ وكان ذلك لا سبيل إلى دفعه، ولا حيلة يستعان بها عند نزوله، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قضى، والتسليم لأمره في كل ما أتى، والسكون إلى الأسوة التي نهج الله سبلها، وخفف بها مواقع المصيبات على أهلها؛ ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشم نفسه مكروهها في موطن الصبر على المصيبة، والشكر في حال العافية.

وله في المطر

قد كنتُ كتبتُ إلى أمير المؤمنين أعلمه المطرة التي أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادت لنا بعدها من الله عائدة رحمة، بوليٍّ مطر أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وابلًا جودًا، لا يفتر غزيره ولا يرعوي جوده، إلا إلى ديمة عن ديمة، يتراخى إليها يسيرًا ريثما تعود، فأقامت علينا سماؤه مستهلة بذلك وكذلك إلى غروب الشمس؛ ثم انقطع مطرها بسكون من الريح، وفتور من القرّ، وفضل من الله عظيم، ينشر به رحمته، ويبسط به رزقه، فأسبغ النعمة، وأوسع البركة، وأوبق بحمد الله معارف الخصب والحمى. والله محمود على آلائه ومشكور على بلائه، وما أنزل الله من سقياه ورحمته، بعد الذي أقبلت به السنة البرية والقحط وعدم الإمطار، وشدة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون.

وله إلى بعض إخوانه

أما بعد، فإن أعظم الأمور فيما بين الناس حقاً أمران: منهما الإخاء في الدين، فهو سبب وصية الله بين عباده بالألفة والمحبة التي انقطعت بها قرائن القلوب من بعضهم إلى بعض، فاتصلت بحبائلكم مرائر حبلكم، وتقطعت فيما بينهم عاطفات وصلها؛ ومنها مجاملة جميل الأعداء، وحفظ ما يحق لأهل حسن البلاء؛ ثم الصنائع بعد ذلك في مواقعها فضائل بقدر ما جرت به أسبابها ولطفت مداخلها.

فصل: الصناعة ليست يزيدها الأخلاق الجميلة، ويزيد في أسبابها أواصر المودة؛ وقد جعلك الله في صناعتك مقدماً، وفي مودتك متفضلاً؛ فلا زالت عنك نعم الله، ولا برحت سكناً لإخوانك، وأنساً وموضعاً لما تستميحون من معروفك، ويستميرون من يدبرك.

فصل: إنَّ لك من قلبي لموضعاً معموراً بالمودة والثقة، والاسترسال والأنسة، فلا تُخرج فلاناً من سعة جميل برك، إلى عُقبى استحقاقه.

آخر

قد طالت الصبابة إليك، وللدهر عُقبٌ عائدة بالنفع والصنع، ولا سيما لمن كان على مثل شاكرتك في أدبك وفضلك وإنصافك لإخوانك وبرك بهم، وما توجه به على نفسك لهم مما يقصرون عن شأوك فيه.

الكلبي

كان أسلافنا تقارضوا ديوناً من الصفاء يستأديها كل عَقب من صاحبه؛ وقد أورثونا مودة لا نعجز عن اكتساب مثلها.

ابن أعين كاتب الخيزران

ليس يكون منك شيء وإن حَسُن، إلا وحُسْن ظني بك يبلغه، فاستتمَّ أحسن ما كان منك، يتم لك أحسن ما تحب مني. ولا يمنعك الاكتفاء بحالك اليوم من طلب الزيادة في غد؛ فإنه لقل شيء لا يزيد إلا نقص، والزمان يمحق الكثير، كما يربو على الزيادة القليل.

ابن الكلبي

أنت مَنْ أطول بمكانه وأثق بجميل رأيه، وأعتمد على رفده، وأرجو دَرَك كل فضيلة به؛ وما أحب علمه مقر نعم الله عز وجل لديك.

علي بن عبيدة إلى ابن الكلبي

وصل الله أيام عمري باتباع موافقتك؛ ولولا موعدُ أخذ عليٍّ، لأطعتك فيما أمرت به، متبعًا مع إجابتك سرور نفسي برؤيتك في السلامة. أما بعد، فإني أصبحتُ وقد استفرغ الأمير مني كل مودة ونصيحة، ومبلغ جهد و طاقة فيما عرفتُ له فيه موافقة.

فصل: فإن الذي شَعَب الله بيننا من التواصل والتكاتب، يدعوني إلى متابعة الكتب إليك في تعهد حقك، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قلما يغني، فإن له من الأنس والموقع في الكتب ما ليس لمستعرضات الأخبار.

فصل: قد كنت أعلمت الأمير انقطاع بني فلان إلى فلان، بأهوائهم وبصائرهم وشراء^(١٢) ما قبله بغيره، وما كان وصل إلينا في ذلك من الأمور التي حملوا إصرها، وبقي لنا أجرها وذكرها ونافلتها وسابقتها؛ فنحن عدد الأمير وخباياه وذخائره، ومن يأمل يومه وغده، ولا متخطي له عنه ولا مقتصر دونه.

عمارة

بلغني كتابك يصف كذا، فإن رأيت ألا تعتمد على ما لصقت [به] من عذرك، وأطعت فيه الهوى من قبول عفوك، وتجعلني أحد من يُسرُّ بسرورك، وتشركه في مهمات أمورك، فإني أحدهم وأوسطهم عناية بما عناك وتوسطاً لما عراك، فعلت.

فصل: والدنو من دارك إذ الدار جامعة والحبل متصل، إذ نحن في الاستيفاء بالخبر والعلم بدخلة الحال، بمنزلة من كأنه يعاني من يشتاق إليه ويصبو به في كل يوم، حتى نأت النوى، وأنت في اللقاء والإنظار في كل أمر وعلى كل حال من لا يُشك في صفاء غيبه، وصدق إخائه.

فصل: مشاركتنا إياك في محبوب الأمور ومكروها يحلنا محلك في السرور بالنعمة يجدها الله لك، ويوجب من الشكر علينا^(١٣) مثل الذي يوجب عليك. فوصل الله كل نعمة يهبها لك من الشكر بما يكون لحقها قاضياً، وللمزيد فيها موجباً.

سعيد بن عبد الملك

كتبت على شُغل في قُطع من القرطاس، ولم يقطع بي حسن الظن بك في قبولك العذر، وتحسينك ما أنت أهل لتحسينه؛ فإنك تقبل دون حقك، وتهب الذنب فيه، فيكون شكرك جارياً على سبيلين، كلاهما يبين لك عن فضلك، ويوجب لك ما لا يقصر معه إلا مغبون الحظ خسيس النصيب.

فصل: وقد ظهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته، ما هو أعدل شاهد على حسن منقلبه، ورد إليك من رأيه وتفقدته ما أرجو أن يكون فيه أعظم

العِوض. والله أسأل أن يتولى لك أمورك في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والشكر وحسن العزاء.

جبل بن يزيد إلى بعض إخوانه

تم الله علينا وعليك النعم، وأجزل لنا^(١٤) ولك محاسن صالح القسم. إن الله تبارك وتعالى أجرى بيننا وبينك لطيف مودة، وخاص أخوة، غير أن المعرفة قد تحمد بعد الخبرة، والثقة إنما تُعرف بعد التجربة، وقد أحبت أن يعلم من قبلك^(١٥) الذي أحدث الله لك من حال دولتك، وأن يُعلم هل أبقت لنا منك النعمة سعة، أم تركت لنا منك صفحة نعرف بها عهدك ونأمل بها وصلك؟ فإن أصحاب السلطان، بحال بلوى في التغير والانتقال، إلا من نالته من الله تبارك وتعالى عصمة. فإن كنت على ما رجونا من الوفاء، وحسن الحفظ للمودة والإخاء، فمثلك لم يرض لنفسه إلا بأجمل الأخلاق وأوفقها للسداد. وإن حجزك عن ذلك ما تأتي به الأقدار في متصرف الليل والنهار، نعذر بك بما نعذر به أهل السلطان، إذا غيرتهم الحال، وتنكرت شمائلهم بين الإخوان.

وله إلى بعض إخوانه أيضًا: اعلم أني إليك مشوق، وأن صلة الإخوان كرم، وخير الصلات ما لم يكن لها وجه إلا الرجاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء؛ فإن الذي يكتب إخوانه على حال الرغبة يكفي القائل كتابه حيث شاء، إن أحب مال به إلى الصحة، وإن شاء وضعه للرغبة، والرغبة أملكهما^(١٦) به. والذي يكتب إخوانه على حال الضرورة، فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة^(١٧) من الناس على القطيعة الشنعاء المشهورة لإخوانه؛ فإن الذي لا مودة له قد يصل ذلك في تلك القطيعة بأهل البلاء.

والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق إلى المحادثة بالكتاب، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير، ولا يوضع منك الرغبة في الإطعام. إياك أن تعتلّ بالأشغال أن كنت في خاصة نفسك، فإن أداء الحق وصلة الإخوان أعظم الخاصة بك خاصة. وإنما أمرنا في كل هذا كأمرك في الذي يستغني من خاصتك تلك التي لنا، فإن لنا ما لك، وهذه التي لنا لك؛ أليس ما سرّنا سرّك وما سلبناه حظاً لك، فهذه كذلك وذلك كهذي. والله يوفّقنا وإياك. وأنت أبا يوسف. هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفت لأبي سعيد، غير أنه سألنا أمراً لم يسألناه قط، فله فضل سبق علينا في المسألة، ولنا فضل المنزلة عليك في اللائمة. ولن أدعك والفعل، دون أن تشفعه بالعمل الذي هو صلة القول. وسلام عليك ورحمة الله، وقضى الله عز وجل بالحسنى لنا ولك.

فصل: أتاني كتابك، فأنعمتُ أن يسرني بسلامتك، وما حاق فيه كرم برّك، ولطيف عنايتك، ما لم أفقد في حالة من حالاتك، فكان الكتاب مصدّقاً لما سلف، مبشراً بما يستأنف، مذكّراً منك عهداً موصو^(١٨)... مثاله طرفي وقلبي، ملصقاً ذكره بلساني وقلبي. فلا عدمتك، بل أمتعني الله بك فأطال، وكثرتي ببقائك.

فصل: أتاني كتابك فطامن قلبي وطرفي، بعد ما كان شاخصاً إليه، متشوقاً إلى رؤيته، ثم ملأني سروراً ما رأيت فيه من آثار برك وكريم تفقّدك. وأفضل ما عندي منك قبله، مما إن ذكرته، فللاستراحة^(١٩) إلى الذكر، وإن أمسكت، فللعجز عن الشكر. فأما الضمير فمبني على الإقرار بفضلك، والنية خالصة بشكرك. وقليل ذلك لك، فأعطاك الله فأطاب، ووهب فأجزل.

فصل: وصل إليّ كتابك فخيّل لي حين نظرت إلى أثر يدك بمجرى قلمك في بطن صحيفتك، أنك ماثل بين عيني: أنظر إلى شخصك وأسمع من لفظك، فابتعث ذلك مني طرباً شائقاً، وصبابة هيّجت الأحران وذكّرت الإخوان. وكنت من إخواني الذين أفخر بسلامتهم للود الذي أجرى الله بيننا وبينك، فتواصلنا بحرمته، وتعاطفنا بوصله.

فصل: إن الله جعل عاقبة كل نعمة وإن عظمت، تبعاً لأولها، وجعل الشكر عليها سبباً لتمامها وموجباً لأحسن الزيادة منها.

فصل في شكر: فإن الله جعلك للخير معدناً، وللفضل موضعاً، فيما حملته نفسك من ثقل أعباء المروءة، وحملتها عليه من عظام المكارم، حتى صرت بما أنعم الله به عليك، منتهى كل أمل وغاية كل رغبة. ثم ألبست النعمة لباس التواضع، وناسبت في الأخلاق من سبقت به عليك الأمور، حتى كأنهم في النعمة لك شركاء. وتحنّنت على الأقربين والمتقربين من الإخوان والأكفاء، حتى كأنهم لك ولد، وأجبرت نفسك حين ساعدك الدهر، على طبيعة التقرب إلى العامة؛ فكلهم يدلي إليك بدلو رغبته، ويمتاح منك متاحة فضل؛ فلا عدمت ألا تزال تُنعش سقطة، وتُقبل عشرة، وتسد خللاً، وتنيل أملاً؛ ولا عدم من شهد ذلك منك، أن يستتم هذه النعمة عليك وعلى نفسه؛ فإن من سعادة العامة أن يجعل سارها عند خيارها. ومن البلاء العظيم عليها الموضع لها، أن يخص شرارها بموضع رغباتها.

فاسلم كلاك الله بهذه النعمة، غير منغص بها، ولا مكدر عليك^(٢٠) صفوها، حتى تسلمك النعمة العاجلة إلى النعمة الباقية؛ فإننا وإن علمنا أن من شأن الدهر الغدران في العواقب فقد علمنا أنك فيما أهدى

الله إليك من النعمة، قد أدّيت حق الله عز وجل ثم حق إخوانك فيها، فكنْتُ آخرَ من نال فضلك، كرمًا في السناء، ورضًا في الأثرة، غير متطاول لما نأمل، ولا متضعع لما تحذر؛ فإننا نجزي شكر الماضي منك، ورجاء الباقي، فنرى تضييعًا منا في عقد الرأي، وإزراء بنا في وثائق الأمور، ألا نمحك من أنفسنا مودة الولد ورقة الوالد، وإذا أعطاك امرؤ ثمرة فؤاده، فقد فرغ إليك من جميع حقك؛ لأن ذات يد امرئ في البذل أهون عليه من ذات نفسه في الشكر. وكفى لامرئ من امرئ أن يستولي عليه حتى لا يدع لغيره فيه فضلًا. وكفى بك لنا من غيرك. وكثير منا أن نقوى على أداء أدنى صنوف حقك، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألا نسأم النظر إلى فنائك بهجين بك إن برزت، وعاذرين لك إن شُغلت.

فصل: إن الهدى والضلالة يقتسمان دول الأزمنة، لغير كرامة للباطل، ولا هوان للحق. وأهل الحق كيف تصرفت أحوالهم في كرامة من الله عز وجل، ونعمة بين دولة تكون لهم، يقومون لله فيها بحقه ويُظهرون هداه ودينه، ودولة تكون للباطل، يكونون فيها كهوفًا للخيرات، ومعدنًا للحسنات، يستكنُّ الحق في صدورهم، ويأوي البر والصدق إليهم؛ فهم بين يومئٍ صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه في الفضل.

وأهل الباطل كيف تصرفت أمورهم بين سخط الله وعقوبته؛ لأن الله تعالى لم يجعل في الباطل فرجًا لأهله، وإن كانت لهم دولة كانت إملاءً واستدراجًا، وكانوا فيها على مدرجة هلكة وسبيل نقمة؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق، كانوا فيها بين ذيل وضميم، وخوف وجزع، وقد سدت عليهم المطالع، وضائق عليهم الأرض بما رحبت. ففي أي يومئهم مستراحهم:

أيوم دولتهم، وهم لا يشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النعمة؟ أم يوم علو الحق عليهم، وهم لا يصبرون على المحنة ولا يُبصرون من العمى؟ وأهل الحق بين حالي غبطة وحسبة، وأهل الباطل بين حالي إملاء ونقمة.

فصل في صفة الجند: إن الغالب على أهواء جماعة من فئام أولياء الأمير وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله، والتقرب إلى الله بمحبته ومناصحته وطاعته، ومعاداة عدوه؛ وتلك نعمة يعتدونها ويتقربون إلى الله بها، ويتوسلون إلى الأمير بخزي قوم خالفوا.

فصل: حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم، فإن ذلك أَرْضَى لربك، وأَجْمَعَ للألفة، وأَقْوَمَ لعمود الخلافة الذي سدد الله دعائم الإسلام وأَسَّسَ الدين به. واعلم أن من حاط الله دينه، ورمّت عن فوقه الجماعة، وعادى أهل النقض لها، ابتعثه الله آمناً من هول الحساب وضيق المحشر، والله بنصره أحق وأولى. وكن لله بحيث افترض عليك، فإنه قال لنبه ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ.

كتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى رجل لم يكتابه

لست بما صرفت إليّ من معروفك بأسر مني، بما أهديت إليّ من قضاء الحق عنك، وقلة ذوي الحرمة بك؛ لأنك قد تصل من لا يثق ولا يأنس إلا بمن يعتمد عليه.

كتب الفضل بن يحيى إلى رجل يشاوره في أمر حدث

ليس كل امرئ وإن كان ذا عزيمة في رأيه، وأصالة في عقله، بمستغن عن مكاشفة أهل الرأي؛ لتوزيع الله عز وجل، أقسام الفضل في خلقه، وإشراكه إياهم، في عطاياه؛ فرأيك في كذا.

**ركب إبراهيم بن المهدي إلى أحمد بن يوسف، فكتب أحمد إلى
إسحاق بن إبراهيم الموصلي**

عندي من أنا عبده، وحجتنا عليك، إعلامنا إياك.

توسّل

توسّل رجل إلى رجل بمحمد بن عبد الملك وادعى قرابته منه، وبلغ ذلك محمداً فكتب إلى المتوسّل إليه:
بلغني أن رجلاً ادعى قرابتي، وأورد عليك كتاباً ذكر أنه مني؛ وما أنكر أن يتنفع بي من توسّل بنسبي، إلا أنه من ادعى قرابة، ولا قرابة له، كان استعمال الشفاعة في أمره أولى.

كتب طاهر بن الحسين إلى الفضل بن سهل

أسعدك الله بمحاربتك، التي بذلت فيها مهجتك، ومهج من هو موصول بك منا.

محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أعدى لك: من صديق مؤمّل، أو حميم راجٍ، إن منعتهما شتماك وبهتاك، وإن أعتتهما الباهتة^(٢١) اغتالاك.

محمد بن مسعر

قال: كنت أنا ويحيى بن أكثم عند سفيان، فبكى سفيان، فقال له يحيى: ما يبكيك يا أبا محمد؟ قال: بعد مجالستي من جالس أصحاب رسول الله ﷺ ابتليت بمجالستكم! فقال له يحيى: فمصيبة من جالست منهم

بمجالستهم إياك بعد أصحاب رسول الله ﷺ أعظم من مصيبتك بنا! فقال: يا غلام، أظن السلطان سيحتاج إليك.

دخل ميمون بن مهران على بعض خلفاء بني أمية — وأحسبه عمر ابن عبد العزيز — فقال له وقد قعد في أخريات مجلسه: عِظْني! فقال له: إنك لمن خير أهلِكَ إن وقيت ثلاثاً. قال: ما هن؟ قال: السلطان وقدرته، والشباب وغرته، والمال وفتنته. فقال: أنت أولى بمكاني مني فارتفع إليّ. فأجلسه معه على سريره.

ابن وهب في الاعتذار

لو لم نَعذرَكَ لم نَعذرْ أنفسنا بقطيعتك، فكن لنا في لائمة نفسك، كما كنا لك في عذرِكَ.

وفي مثله

ليس في الإساءة فضل عن الاعتذار، وفي عائدتك فضل عن إساءتنا، فمن أين يسقط بين فضلك والاعتذار!

آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله في شكرهم، ويقل لهم كثيره في عظيم حقوقهم.

فصل: لئن عميت عن الرأي فيك، لقد أبصرتك بك.

فصل: تغيب فأشتاق، وملتقي فلا أشتقي.

(٢) فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مُثلٌ مما كتب به الكتاب في أبواب لا نظير لها.

فمن ذلك ما كُتب به في التحميد لله عز وجل في أوائل الفتوح وأواخرها
وأوائل الكتب التي فيها تحميد الله عز وجل.

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والربوبية، والمتفرد بالبقاء
والقدرة، والمتجبر بالكبرياء والعظمة؛ ذي الجلال والإكرام، والإفضال
والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمثل الأعلى؛ الأول بلا
غاية، والآخر بلا نهاية، الذي لا يحيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مدى
عظمته أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو
اللطيف الخبير؛ لا يئوده حفظ كبير، ولا يعزب عنه علم صغير، يعلم خائنة
الأعين وما تخفي الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في
ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

التحميد الثاني

الحمد لله الذي خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير
حدود، ودبر الأمور بلا مشير، وقضى في الدهور بلا ظهير، وسمك السماء
بقدرته، وبنهاها على إرادته، وأسكنها ملائكته الذين اصطفاهم لمجاورته،
وجبلهم على طاعته، ونزههم عن معصيته، وجعلهم حملة عرشه، وسكان
سماواته، ورسله إلى أنبيائه، يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ ودحا
الأرض وبسطها لكافة خلقه، وقسم بينهم الأرزاق، وقدر لهم الأقوات،
فهم في قبضته يتقلبون وعلى أفضيته يجرون، حتى يرث الله الأرض ومن
عليها وهو خير الوارثين.

وصدرت حميد مفرد

الحمد لله العلي مكانه، المنير برهانه، التامة كلماته، الشافية آياته؛ والحمد لله ولي أوليائه وعدو أعدائه.

وصدرت حميد

الحمد لله الغالب الذي لا يُغلب، والمقتدر الذي لا يُعان، والمنجز وعده، والمؤيد أوليائه، والخاتم بالفَلَج^(٢٢) والظهور لهم، والمديل من أعدائه، ومحيط دائرة السوء بهم.

ولكاتب خزيمة بن خازم في فتح الصنارية تحميد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذي الملكوت والقدرة، والجبروت والعزة، والسلطان والقوة؛ أهل المحامد كلها، ومدبر الأمور ووليها، وخالق الخلائق وبارئها، ومميئها ومحبيها، وباعثها ووارثها؛ الذي أوجب على نفسه بما نفذ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت في اللوح المحفوظ عنده إعزاز دينه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجته، وإزهاق باطل أعدائه؛ الصارفين عن طاعته، والجاحدين لربوبيته، المكذبين بكتبه ورسله؛ بلغ بذلك أمره، ونطق به كتابه؛ فإنه يقول تبارك اسمه في المنزل من فرقانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ الأنبياء: ١٨ .

وتحميد لأحمد بن يوسف إلى الولاة عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذي المنن الظاهرة، والحجج القاهرة؛ الذي قطع بينه وبين عباده المعذرة، ورادف عليهم البينة، ومُهله النظرة؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم المكتوب، وما ذخر لهم من ثواب الآخرة بالنجح

المطلوب؛ فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شتى في الرحمة؛ يختص بها أهلها المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال؛ المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدد آجالهم، قبل حلول ما يُتوقع، وفوت ما لا يُرتجع.

وتحميد لإبراهيم بن العباس في فتح إسحاق بن إسماعيل

الحمد لله معز الحق ومديله، وقامع الباطل ومزيله، الطالب فلا يفوته مَنْ طلب، والغالب فلا يُعجزه مَنْ غلب؛ مؤيد خليفته وعبد، وناصر أوليائه وحزبه؛ الذين أقام بهم دعوته، وأعلى بهم كلمته، وأظهر بهم دينه، وأدال بهم حقه، وجاهد بهم أعداءه، وأنار بهم سبيله؛ حمداً يتقبله ويرضاه، ويوجب أفضل عواقب نصره، وسوايغ نعمائه.

التحميد الثاني

الحمد لله الغالب ذي القدرة، والقاهر ذي العزة؛ الذي لم يقابل بالحق باطلاً في موطن من موطن التحاكم بين عباده، إلا جعل أولياء الحق منهم حزبه وجنده، وجعل الباطل بهم فلا منكوباً، ودحيضاً زهوقاً؛ إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرقة ما جمع، ومبترة ما أعد، وقائدة بأشياعه إلى مصرع الظالمين، حتى يكون الحق الطالب الأعز، والباطل المطلوب الأذل؛ وأولياء الحق الأعلىين يداً وأيداً، وأشياع الضلال الأخسرين أعمالاً وكيداً؛ قضاء الله وستته، وعادة الله وإرادته، في الفئة المنصورة أن تعز فلا ترام، وأن يمكن لها في الأرض كما مكن للذين من قبلها؛ وفي الفئة الناكبين عنه، أن تزل فتكون كلمتها السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم.

وتحميد له مبتدأ مقام بين يدي الخليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أيد يحصى، والآخر بلا أمد يفنى؛ الظاهر لخلقه بعزته، العزيز في سلطانه بعظمته، الفرد في وحدانيته بقدرته، المدبر في ملكه بجبروته؛ الذي نأى عن الأشياء أن يكون فيها محويًا، واتصل بها فلم يك من علمها خليًا، وهو فيها غير مستكنٍّ، ومعها غير مماسٍّ في لجج البحار، ومفاوز القفار، وشوامخ الجبال، وكثبان الرمال؛ مع كل خلق، وفي كل أفق، وعلى كل شرف ومكان، وفي كل وقت وأوان؛ موجود إذا طُلب، وقريب حيث نُدب؛ عالم خفيات الغيوب، وخطرات القلوب، وما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم؛ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

وتحميد ثانٍ يتلو الأول

الحمد لله المتعالى عن تشبيه الجاهلين، وتحديد الواصفين، وتكييف الناعتين؛ يُوصف لا بالعرض والطول، ويُنعى بغير الشبح الممثول، ويُحد لا بالخلق المحدود، والجسم الموجود؛ بل يتناهى من وصفه، إلى ما دل عليه من صنعه، ويُوقَف عليه من نعته، على ما أخبر به عن نفسه؛ وكيف يُوصف من لم يره أحد، ويحد من لم يحده بلد؛ أو يشبه غير ذي أعضاء، أو يكيف غير ذي أجزاء؛ لو رئي لوصف، ولو وصف لمثل، ولو مثل لكان له نظير؛ سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، لا تُجَنِّه الأقطار،

ولا يحويه قرار؛ ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يوصف أولاه، ولا يدرك أخراه، ولا يعرف منتهاه؛ عَظُمَ أن يحصره وهم، وجلَّ أن يدركه فهم، وامتنع من أن يخاله علم، ولا يغيره ليل ولا يوم؛ ولا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما، وهو العلي العظيم.

وتحميد ثالث

الحمد لله الذي ألهمنا من الإقرار بربوبيته، والإيمان بوحدانيته، وأنه غير ذي صاحبة يسكن إليها من وحشة، ولا ولد يتكثّر به من ضعف قلة، ولا شريك يعاونه من عجز قدرة، ولا ظهير يكافئه لملال فترة؛ ما جعل لنا به أوثق الأسباب لديه، وأرجى الوسائل إليه؛ إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصير بجحد ما أخنعنا الاعتراف فيه، إلى أليم عقوبته بالمعصية التي استحكمت السخطة على أهلها، وحلت النقمة بمن فارقتها؛ ثم جعلنا تبع إشراف كثير على أنفسنا في مشيئة منه، بسط إليها آمالنا وأحسن عليها أطمانا بكرم عفوه، وعظيم حلمه، وسعة رحمته، التي وعد أهل الإيمان بها؛ إذ صار من فارقههم في ذلك بما استهوت عليهم، بتزيينه لهم شياطينهم، ورائت على أفئدتهم^(٢٣) ... وما ظلمته قرباؤهم إلى الناس من كل طمع يجدي وخبر ينجي؛ جزاء بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد حبط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وتحميد يتلو الثالث في هذا المقام

الحمد لله الذي ابتدع لا من شيء ما أنشأ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ؛ فجعل كثيراً من لطائف تقديره، وصنوف تدبيره، وتصارييف أموره؛ حجباً واضحة، وآيات بينة، وعبراً شافية؛ تشهد له بعزة القدرة، ونفاذ الحول والقوة؛ فخلق مدبراً بلا مشورة أحد، سبغاً دحاهن على الماء على غير سند؛ مبسوطات في تكاثف أجزاءهن، على معين ماء مسخر من تحتهن، فجرّ خلاهن أنهاراً، وقدّر فيهن من المعاش أقواتاً، وجعل لهن من الجبال أوتاداً، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. ففطر من الدخان في خفته على الهواء سبغاً، جعل بينهن من الجو متسعاً، سبع سموات طباقاً مرتفعات، بلا دعائم قبلها ولا علاقات، يمسكهنّ بقدرة أن يرتفعن فوق ما حبسهنّ عليه، وأن يهوينَ إلى قرار دون ما رفعهنّ إليه؛ فأتقنَ صنعها، وأوحى في كل سماء أمرها؛ وزين السماء الدنيا بالمصابيح النيرة، والشهب الثاقبة، والنجوم الواضحة؛ وسخر الشمس والقمر علماً للمهتدين، وسراجاً للمبصرين، ورجوماً للشياطين، وأوقاتاً لاختلاف السنين، ومعرفة لكل حين؛ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون؛ فقضاهن سبع سموات في يومين، ولو شاء خلقها في أسرع من طرف العين؛ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؛ بلا معاناة لقول، ولا ضعف من حول؛ ثم أسكنهنّ من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته، واجتباهم لتبليغ رسالته، معصومين من أن يشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، وأن يقولوا على الله إفكاً وهتاناً؛ يسبحونه بالليل والنهار لا يفترون ولا يسأمون من عبادته،

ولا يستحسرون عن طاعته؛ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون.

وتحميد في فتح لابن العباس

أما بعد، فالحمد لله الذي حمد نفسه، وفرض حمده على خلقه، وأعز دينه وأكرم بطاعته أوليائه، وأكرم طاعته بأوليائه، فجعل جنده منهم المنصورين، وحزبه منهم الغالبيين؛ نهج بهم سبيله، وأقام بهم حجتة، وجاهد بهم أعداءه، وأظهر بهم حقه، وقمع بهم الباطل وأهله؛ وأعلى كلمتهم، وأيد نصرهم، وألف لهم وبهم، ومكن لهم في الأرض، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين.

والحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، الناصر لخلفائه، الممكن لحزبه؛ المنتقم بهم ممن صدف عنه، مؤيداً دينه بالنصر، ليظهره على الأديان، وحفه بالعز، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وجنوده بالفلج فهم الأعلون إن استنصر بهم، والأعزون إن كاد بهم؛ والأقربون منه إخلاصاً وعملاً؛ حمداً يؤازري نعمه، ويمتري بمثله فواضله ومزيده.

وله في فتح ابن البعيث لما ظفربه

أما بعد، فالحمد لله ناصر أنبيائه وخلفائه، وهادي أوليائه، أولياء الحق وحزب الهدى؛ الذين أقام بهم سبل الرشاد، ونصب بهم مناهج الدين، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وله صدر كتاب الخميس في تحميد الله وتمجيده

أما بعد، فالحمد لله الذي جلّت نعمه، وتظاهرت مننه، وتتابع آياده، وعمّ إحسانه؛ إله كل شيء وخالقه، وبارئه ومصوره؛ والكائن

قبله، والباقي بعده، كما قال في كتابه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص: ٨٨. العلي في مشيئته والقاهر فوق عباده، المتعالي عن شبه خلقه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، خلق العباد بقدرته، وهداهم برحمته، وأوضح لهم السبيل إلى معرفته بما نصب لهم من دلائله، وأراهم من عبره، وصرفهم فيه من صنعه، كما قال جل جلاله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ السجدة: ٧ - ٩.

وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم، والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم، وأسماعهم وأبصارهم، ويسر لهم خواطرهم وفكرهم، والهيئة التي هيأهم لها ليقع الأمر والنهي عليهم؛ فلا يكلفهم فوق طاقتهم، ولا يجشمهم ما يقصر عنه وسعهم، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم؛ ليؤمنوا به ويعبدوه، فيستحقوا به رحمته ورضوانه، والخلود في النعيم المقيم، والظل المديد، والعيش الدائم؛ كما قال تعالى ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود: ١١٩ وكان من نظره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياء ورسله، يدعونهم إلى طاعته، ويبينون لهم هداه، ويوضحون لهم سبيله؛ ويهدونهم إلى رحمته، ويعدونهم ثوابه، وينذرونهم عقابه، ويبسطون لهم توبته، ويحذرونهم سخطه، ويبينون لهم سنته وشرائعه، ويكشفون لهم مواعظه، ويعلمونهم كتابه وحكمته، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّكَ

اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأنفال: ٤٢ وكان من رأفته بهم، ونظره لهم، أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة، والأعلام البينة، والشواهد الناطقة، التي أظهر بها

صدقهم، وأقام بها برهانهم، وأوضح بها دليلهم، وأثابهم عمل سواهم، ليكون أدعى لهم إلى تصديقهم، والقبول عنهم، وأوكد للحجة على من أبى ذلك منهم.

وتحميد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرأ بخراسان

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذي العز والسلطان، والنور والبرهان؛ فاطر السماء والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول على أهلها؛ قبل استحقاقهم لمثوبته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذي جعل ما أودع عباده من نعمته، دليلاً هادياً لهم إلى معرفته، بما أفادهم من الألباب، التي يفهمون بها فصل الخطاب؛ حتى اقتنوا علم موارد الاختبار، وثقفوا مصادر الاعتبار، وحكموا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر؛ واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومتقن صنعته، وحاجة مترايل خلقه ومتواصلة، إلى القوام بما يلزمه ويصلحه، على أن له بارئاً هو أنشأه وابتدأه، ويسر بعضه لبعض، فكان من أقرب وجودهم، ما يباشرون به من أنفسهم؛ في تصرّف أحوالهم، وفنون انتقالها، وما يُظهرون عليه من العجز عن التأتّي لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواتهم، مع أثر التدبير والتقدير فيهم، حتى صاروا إلى الخلقة المحكمة، والصورة المعجبة، ليس لهم في شيء منها تلطف يتيمّمونه، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم؛ فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يَتَأَيَّمُوا إِلَى النَّسْنِ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۖ﴾ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ۖ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۖ﴾ الانفطار: ٦ - ٨ وما يتفكرون فيه من خلق السماء، وما يجري فيها من الشمس والقمر؛ والنجوم مسخرات على مسير لا يثبت

العالم إلا به، من تصارييف الأزمنة، التي بها صلاح الحرث والنسل، وإحياء الأرض، ولقاح النبات والأشجار، وتعاور الليل والنهار، وممر الشهور والأيام؛ والسنين التي تحصى بها الأوقات؛ ثم ما يوجد من دليل التركيب، في طبقات السقف المرفوع، والمهاد الموضوع، باختلاف أجزائه والتثامها، وخرق الأنهار، وإرساء الجبال، ومن التثام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثه بعد أن لم يكن، مترقيًا في النماء، وثباته إلى أجله في البقاء، ثم محاربه منقضيًا إلى آخر الفناء؛ ولم يكن له مفتتح عدد، ولا منقطع أمد، وما ازداد بنشوء، ولا تحييفه نقصان، ولا تفاوت على الأزمان؛ لأن ما لا حد له ولا نهاية، غير ممكن الاحتمال للنقص والزيادة؛ ثم أجرى فيما ذكر من خلق الله وخلق الإنسان إلى ذكر ما تفضل الله به على عباده الأنبياء، وما اختصهم به من مبعث النبي ﷺ، إلى ذكر الخلفاء أولًا، ثم إلى ذكر المأمون ودولته.

وتحميد للعباس في مقام له بين يدي المأمون

الحمد لله على نعمه علينا، وإحسانه إلينا، بالأرض المبسوطة، والسماء المرفوعة، والرياح المسخرة، والأمطار النازلة، والأوقات القائمة، والمنافع الدائمة؛ والدين المبين، والأدب القويم؛ حمدًا يكون إليه صاعدًا، ولديه ناميًا، وملكوته مالئًا؛ والحمد لله حمدًا يثبت رضوانه، ويورث إحسانه، ويوجب مزيده؛ فهو المنعم المحمود، والمتطول المشكور؛ لا إله إلا هو لا شريك له، كما شهد الله وملائكته قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وتحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري

الحمد لله الناصر لدينه، وأوليائه وخلفائه، المظهر للحق وأهله، والمذل

لأعدائه وأهل البدعة والضلالة؛ الذي لم يجمع بين حق وباطل، وأهل طاعة ومعصية، إلا جعل النصر والفلج والعاقبة لأهل حقه وطاعته، وجعل الخزي والذلة والصغار، على أهل الباطل والخلاف والمعصية؛ حمداً يتقبله ويرضاه، ويوجب به لأمر المؤمنين وأهل طاعته الزيادة التي وعد من شكره؛ والحمد لله على ما يتولى من إعزاز أمير المؤمنين ونصره وإفلاجه وإظهار حقه، على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلاف عليه من سطواته ونقماته وبأسه، فيما ولي أمير المؤمنين من موالاة من والاه، وعداوة من بغى عليه وعاداه؛ لا يكله في شيء من الأمور إلى نفسه، ولا إلى حوله وقوته ومكيدته، فإنه لا حول ولا قوة لأمر المؤمنين إلا به.

وتحميد في آخر فتح

الحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، الناصر لأوليائه، المنتقم من أعدائه أهل الكفر؛ المنزل بهم من بأسه، ونقمته وجوائحه؛ الذي لم يجمع بين أهل حقه، وباطل عدوه، في موطن من موطن التحاكم، إلا جعل فيه لأوليائه الظفر، وأفرغ عليهم الصبر، ومنحهم النصر؛ وجعل الدائرة وسوء العاقبة على عدوه، وأهل الكفر؛ حمداً كثيراً يرضاه من الشكر، ويحسن به المزيد.

وتحميد في فتح إلى أمير لقمامة

الحمد لله الفتاح العليم، الذي خص الأمير بأفضل الكرامة وأتم النعمة؛ وأحسن الولاية، وأعظم الكفاية؛ وحفظ ما استرعاه، وأعز أوليائه، وقمع بالمدلة أعداءه، وجعل حسن العاقبة له ولأهل طاعته، ودائرة السوء على أهل معاندته؛ حمداً يحسن به القضاء، وتزيد به النعماء.

وصدرت حميد لغسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الذي لا يُدرَك خيراً إلا برحمته، ولا يُنال الفضل إلا بنعمته؛ وليّ التسديد للحسنات، والعصمة من السيئات.

تحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العلي مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصادق وعده؛ الذي قدر على خلقه بملكه، وعزّ في سماواته بعظمته، ودبر الأمور بعلمه، وقدرها بحلمه، على ما يشاء من عزمه؛ مبتدعاً لها بإنشائه إياها، وقدرته عليها، واستصغاره عظيمها، نافذة إرادته فيها، لا تجري إلا على تقديره، ولا تنتهي إلا إلى تأجيله، ولا تقع إلا على سبق من حتمه، على كل ذلك بلطفه وقدرته، وتصريف وحيه؛ لا معدل لها عنه، ولا سبيل لها غيره، ولا علم أحدٌ بخفاياها ومعادها إلا هو؛ فإنه يقول في كتابه الصادق: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ الأنعام: ٥٩ إلى آخر الآية.

وتحميد ثانٍ

الحمد لله الذي علا بالحُجُب التي استتر بها عن جميع خلقه، واستغنى بها عنهم لما توحد به دونهم من عباده الذين فطرهم على المعرفة، رءوفاً عليهم بمنه ومتطولاً وهو فيما يمضي من أقداره، مفصلاً لهم بابتدائه خلقهم في أحسن تقويم، وإعطائهم إياهم عاجل كل خير مقسوم، وتسخيرهم لهم جميع ما في السموات والأرض، وبسطه لهم في معاشهم أوسع الرزق، وإسباغه عليهم فيها أفضل النعم التي لطف فبطنت، وعظمت فظهرت، ولبست فعُمت، وانتشرت فجَللت، وكثرت فلا يحصيها عادٌّ، وجزلت فلا يؤدي

حق ما افترض منها شاكر، فإنه يقول: ﴿وَلِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل: ١٨.

والحمد لله الذي لم يقتصر بهم في إكرامه وتفضيله إياهم على عاجل، فإنه مضمحل زائل مما أعطاهم إياه، ولم يكلهم في معرفة خالقهم تبارك وتعالى، ومتولي النعم عليهم، والإحسان إليهم، والارتياش لهم؛ ولا في مبتغى سبيل طاعته، وأداء حقه، وشكر نعمته، واستيجاب غبطة المعاد إليه إلى أن يعوا ذلك بعقولهم، والنظر فيه بألبابهم، والتصريف له على أهوائهم؛ فإنه لو أُلْجَأَ ذلك إليهم، وأُفْرِدَهم فيه إلى أنفسهم، ووكلهم فيما أمرهم به إلى مقدرتهم، لحارت عنه منهم الأبصار، ولتاهت فيه منهم العقول، ولأضلهم عن قصده العمى، ولمال بهم إلى غيره الهوى، ولا استحكم عليهم شرك الردى؛ ولكنه بعث فيها أنبياءه الهادين، يدعونهم إلى الصراط المستقيم، بنوره المضيء، ودينه القويم، وآياته البينة، وكتبه الفارقة التي بين فيها محابته ومكروهه، وطاعته ومعصيته، وثواب الفريقين في ذلك من عباده ليحذروا ما حذرهم فيه من سخطه، ونزل بهم فيه من نقمته؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به إلى أفضل المثوبة، وأحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وكشف لهم الجهالة، وهدى من الضلالة، وبصّرهم سبيل الحق، وبين لهم معالم الإسلام، ليرجع جائز، ويقصد زائغ، ويعرف جاهل، وليعبد الرب بما وحد به نفسه، وليستبين العلم، ويستضيء الحق، وليبتغي من الله الثواب بلزوم دينه الذي شرع، وأداء فرائضه التي فرض، وإيثار طاعته التي أوجب، وليكون لله الحجة البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسفهاوا بعد استبانته لهم، واستفاضته فيهم وإعذاره إليهم، فإنه يقول: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ

هَلَاكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ الأنفال: ٤٢ ،
ويقول: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَلِمُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ النجم: ٣١ .

لأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذي بالقلوب معرفته، وبالعقول حجته، الذي بعث محمداً ﷺ أميناً فوقى له، ومبلغاً فأدى عنه فحجَّ به المنكر، وتألَّف به المدبر، وثبَّت به المستبصر، إلى أن توفاه على منهاج طاعته، وشرعية دينه، ثم أورثكم عهده وخصكم بكلمة التقوى، وجعلكم الأمة الوسطى.

ولعبد الحميد في فتح يعظم فيه أمر الإسلام بمحمد ﷺ

أما بعد، فالحمد لله الذي اصطفى الإسلام ديناً رضي شرائعه، وبَيَّن أحكامه ونوَّر هدايه، ثم كنفه بالعز المؤيَّد، وأَيَّد بالظفر القاهر، وآزره بالسعادة المتجبة، وجعل من قام به داعياً إليه من جنده الغالين، وأنصاره المسلمين، كلما قهر بهم مناوئاً أورثهم رباعتهم المأمولة، وأمواهم المثرية، ودارهم الفسيحة، ودولتهم المطولة، أمراً حتمه على نفسه؛ ثم جعل من عاندهم وابتغى غير سبيلهم مسلماً قد استهوته ذلة الكفر بظلمها، وحيرة الجهالة بحوارها، وتيه الشقاء بمغاويه، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباء، ازداد الحق إليهم ازدلاًفاً، وعليهم عكوفاً، وفيهم إقامة، إلى أن يحل بهم عز الغلبة؛ ونجاة المتجاوز؛ راغبين فيما شَوَّقهم إليه، محافظين على ما نذبهم له، قد بذلوا في طاعة الله دماءهم، وقبلوا المعرض عليهم في مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجنة. محمودٌ صبرُهم، مسهلٌ بهم عزمهم، إلى خير الدنيا والآخرة.

والحمد لله الذي أكرم محمداً ﷺ بما حفظ له من أمور أمته؛ أن اختار لمواريث نبوته ما أصرار إلى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نهوض به وشح عليه، ومنافسة فيه، أن فعل وفعل. والحمد لله الذي تم وعده لرسوله وخليفته في أمة نبيه مسدداً له فيما اعتزم عليه. والحمد لله المعز لدينه، المتولي نصر أمته بنبيه المتخلي ممن عاداهم وناوأهم، حمداً يزيد به من رضي شكره، وحمداً يعلو حمد الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نعمه فلا توصف، وجلت أياديها فلا تُحصى، الذي حمّلنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ذلك، وإليه يرغب، إنه على كل شيء قدير.

ولعبد الحميد أيضاً

أما بعد، فالحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، وارتضاه ديناً لملائكته، وأهل طاعته من عباده، وجعله رحمة وكرامة ونجاة وسعادة لمن هدى به من خلقه، وأكرمهم وفضلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءه المقربين، وحزبه الغالبين، وجنده المنصورين، وتوكل لهم بالظهور والفلج، وقضى لهم بالعلو والتمكين، وجعل من خالفه وعزب عنه وابتغى سبيل غيره أعداءه الأقلين، وأولياء الشيطان الأخسرين، وأهل الضلالة الأسفلين، مع ما عليهم في دنياهم من الذل والصغار، وما عجل لهم فيها من الخذلان والانتقام، إلى ما أعد لهم في آخرتهم من الخزي والهوان المقيم، والعذاب الأليم، إنه عزيز ذو انتقام.

وفي ذكر الإسلام وأهله وما فضلهم الله تعالى به

أما بعد، فالحمد لله الذي عظم الإسلام تعظيماً، وفضله تفضيلاً، فلم يبق ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا إمام لأهل حق مهتدٍ إلا دان به، واتصل إلى ولاية الله بما هداه له منه، وليس في دين الله الذي ارتضى، وخيرته من

أهل الإسلام الذين اصطفى، تغاشم ولا تظالم، ولا تحاسد، ولا تقاطع ولا تدابر، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل بالتبار والتراحم، والتواد والتناصف، قلوبهم متفقة، وأهواؤهم مؤتلفة، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطة، أعواناً على الحق، وإخواناً في الدين، أَلَفَ الله بينهم، وجعل الإسلام نسبهم، فقال في كتابه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الفتح: ٢٩ إلى آخر الآية. فهذه صفة الله أهل دينه فيما بينهم، وكذلك كان أسلاف الحق قبلهم، في تواد وتبارهم، وتواصلهم وتعاونهم، وبذلك دان أهل السماء، فلم يختلفوا فيه، ولم يرغبوا عنه، ولم يحتدوا مثلاً غيره، وبه يدين الله الباقون من خلقه، المتمسكون بحقه إلى يوم القيامة، سنة مسنونة، وشريعة متبوعة، لا يبتغون بها بدلاً، ولا يريدون عنها حولاً، فأهل طاعة الله أهل سلامة في دنياهم، وإخوان — كما قال الله عز وجل — في آخرتهم، لم تنقطع الولاية فيما بينهم، لانقطاع الدنيا عنهم، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم، فجمعهم في داره وجواره، كما أَلَفَ في الدنيا بين قلوبهم، وعصم بالإسلام ألفتهم.

تحميد

الحمد لله المنيب على حمده وهو ابتداءه، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه، والمنني بالإيمان وهو عطاؤه.

ولقمامه

الحمد لله الذي أكرم الإسلام وفضله، وشرّفه وعظّمه، وأعلى منزلته، وجعل أهله القائمين به، والحامدين عليه، أوليائه وحزبه الذين قضى لهم بالتمكين، والظهور على الدين كله ولو كره المشركون.

ولزيد بن علي - رحمة الله عليه - خطبة

الحمد لله الواصل النعم بالشكر، والشكر بالمزيد، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة، وأن تركه خطيئة مهلكة، وأومن بالله إيماناً نفى إخلاصه الشرك، ويقينه الشك، وأتوكل عليه توكل الواثق به ثقة أهل الرجاء، ومفزع أهل التوكل.

تحميد في الإسلام

الحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً لنفسه، وأنبيائه ورسله، وشرفه وعظمه، وأناره، وأظهره، ونزّهه وأعزه ومنعه، ولم يقبل غيره، ولم يجعل حسن الجزاء إلا لأهله، الذين كتب لمن أسعده بالوليعة فيه منهم الرضوان والمغفرة والرفقة، وعلى من خالفه وابتغى غير سبيله الحسرة والندامة، والذلة والصغار في الآخرة والأولى، والممات والمحيا، إذ يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ آل عمران: ٨٥ والحمد لله الذي اجتنبى محمداً ﷺ بما اصطفاه من نبوته، واختاره له من رسالته، وحباه بفضيلته، واجتبه من أفضل عمائر العرب، وأشرفها منصباً، وأعرقها حسباً، وأكرمها نسباً، وأوراها زناداً، وأرفعها عماداً، فبعثه بالنور ساطعاً، وبالحق صادقاً، وبالهدى آمراً، وعن الكفر زاجراً، وعلى النبيين مهيمناً، وإلى سبيل ربه داعياً، وبالكتاب عاملاً، فبلغ عن الله الرسالة، وهدى من الضلالة، وانتاش من الهلكة، وأنهج معالم الدين وأدى فرائضه، وبيّن شرائعه، وأوضح سننه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاها اليقين، ﷺ.

تحميد لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي شرع لإظهار حقه وإنفاذ سابق قضائه فيمن ذرأ وبرا من عباده، بإدخال من أراد أن يدخل في رحمته، وإنجاز ما حق له من العبادة على خلقه، بابتدائه خلقهم، ومظاهرتة الآلاء عليهم، وإحسانه البلاء عندهم، وإبلاغه في الحجج إلى عامتهم، ديناً رضيهِ لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله، فأتمن على وجه من لم يرض إلا به، ولم يقبل إلا إياه، ثم كان ما أعز به نفسه، وأظهر به نوره، وأراد أن يبلو به عباده، تحقيقاً لما سبق به علمه، وإنفاذاً لما جرت به مقاديره، أن بعث لما شرع من دينه، واصطفى لتسيحه وتقديسه من ملائكته المقربين، من ارتضى واختار من أنبيائه ورسله المجتبيين، لتبليغ رسالته وإظهار حقه، واستشلاء^(٢٤) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التي اطلعت عليهم وعمَّتْهم، ليعبد مخلصاً له، محموداً بما استحمد به إلى خلقه، مشهوداً له بما أشهد به من كلمة الحق، فكان منهم التبليغ لما أرسلوا به، والنصيحة لمن أرسلو إليه، غير مختلفين فيما بُعثوا له، ولا متفرقين فيما استعملوا فيه، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أول، فيصدق بذلك بعضهم بعضاً، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فمضت رسل الله وأنبيأؤه على ذلك سالكين منهاج الحق وسبيله، والدعاء إلى الله عز وجل وإلى طاعته، هادين مهدين غير مبخوسين شيئاً مما كانوا أهلهم في المنزلة عند الله، والقربة منه، والوسيلة إليه، هم ومن آمن بهم وعززهم، واتبع النور الذي أنزل معهم، حتى تقضت بهم الأعمار، وتقطعت بهم الآثار، وتخرمتهم الآجال.

وكذا لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمة قَدَّمَهَا لعباده قبل خلقه إياهم، واستيجابهم إياها منه، فاصطفاه لنفسه وشرَّعه لهم دينًا يدينون به، ثم جعل تحديد وحيه ومتابعة رسله رحمة تلافاهم بها بعد تقديمها، ومَنَّةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها، تطولاً على العباد بالنعماء، وإعذاراً إليهم بالحجج، وتقديمًا بالوعد، وإنذاراً إليهم عواقب سخطه في المعاد.

والحمد لله الذي ابتعث محمدًا ﷺ بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل، وطموس من معالم الحق، ودروس من سبل الهدى، عند الوقت الذي بلغ في سابق علمه ومقاديره، أن يجتبي لدينه الأصفياء، ويختار له الأولياء، الظاهرين بحقه، القاهرين لمن ابتغى سبيلًا غير سبيله، فعظم حرمة، ووسَّع حوزته، وصدع بأمره، وجاهد عن حقه في حومات الضلالة وظلمات الكفر، بالحق المبين؛ والسراج المنير، ثم جعله مصدقًا لمن سبقه من الرسل ومجددًا لما بُعثوا له وهدى ورحمة؛ ثم جعل لدينه وظائف وظفها على أهله، وشرائع شرعها لهم لا يكمل دينهم إلا بها، وجعل أداؤها إليه، واعتصامهم بها إمامًا لدينه، ونظامًا لنوره، وقوامًا لحقه، واستيجابًا لما وعد عليه من ثوابه، وأمنًا لما أوعد من خالفه من عقابه؛ فليس يسع أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضله وأجره، وجعل لهم عزه وعلوه، واختار لهم الغلبة والعاقبة على من فارقهم فيه إلا معرفتها، وأداؤها بما يستكمل به حدودها، ومما لها من كذا وكذا.

إبراهيم بن المهدي: صدر رسالة له في الخميس

الحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً لنفسه، ورضي أن يعبد من في سمواته من الملائكة المقربين، ومن في أرضه من النبيين والمرسلين، ومن آمن بالنور الذي هداهم له من الثقلين، واختار لرسالته في سابق علمه، والذكر الحكيم عنده، محمداً ﷺ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيه ﷺ موصولة بكذا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ النساء: ٥٩.

تحميد

الحمد لله المتكبر في جبروته المتعزز بسلطانه، المتعالي في سمواته، المحتجب عن خلقه، فلا تدركه في الدنيا أبصار الناظرين، ولا تحيط به أوهام المتوهمين، ولا تبلغه صفات الواصفين، الذي لا يئوده عظيم، ولا يفوته مطلوب، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

تحميد آخر

الحمد لله الحكيم العدل، الذي فصل بين الحق والباطل، فنفذ قضاؤه في خلقه، وحكم فيهم فجرى حكمه على إرادته، يقضي بالنصر والتأييد، والعز والفلج، والتمكين للحق وأهله، وبالذل والوقم والخزي والصغار للباطل وأهله، وجعل ذلك من فضله وحكمه عادة جارية باقية، وسنة ماضية، لا راداً فيما قضى منه لقضائه.

والحمد لله الذي اختص محمداً ﷺ بكراماته، واصطنعه لرسالاته، وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

تنزيل من حكيم حميد، بما أحل وحرّم، ورّضي وسخط، وأمر به ونهى عنه، وجعله خاتم النبيين والمهيمن عليهم، وكتابه الذي أنزل، آخر الكتب المصدق بها النبي ﷺ.

تحميد في الإسلام وما امتنَّ به على أهله من مبعث النبي ﷺ وهو في صدر الجهاد

أما بعد، فإنّ لدين الله الذي ارتضاه لنفسه، ولمن اصطفاه من خلقه، واجتبه من عباده وجعله معلِّماً بين الهدى والضلالة، وفرقاً بين الحق والباطل، وحاجزاً بين الكفر والإيمان، وظائف وظفها على أهلها، وشرائع شرعها لهم؛ فجعل أداؤها إليه ومعرفتها له، ومحافظتهم عليها، واعتصامهم بها قواماً لدينه، ونظاماً لنوره وثباتاً لحقه، واستيجاباً لما وعد من ثوابه، وأمنّاً لما أوعد من عقابه؛ فليس يسع أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الذين سباهم المسلمون بالإسلام، وأحرز لهم فضله وعزه، وأصار لهم الغلبة على من خالفهم وفارقهم بما ركنوا إليه من الصدود عن سبيله، والتكذيب بكتبه ورسله، ودلتهم فيه قرباؤهم، وقادتهم إليه أهواؤهم، من الملل الضلالة، والأديان المجموعة، التي لم ينزل بها من الله سلطان، ولا كتاب ولا برهان، إلا معرفتها وأداؤها بما يستكمل من حدودها ومعالمها.

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي ﷺ

أما بعد، فإنّ الله خلق الخلائق بقدرته، وقدر الأمور بعلمه، وأنفذ على ما مضى من مشيئته، من غير أن يكون له ظهير في ملكه، أو معين على ما يرى من عجائب خلقه، واحتذاء منه على سابق من صنعة غيره، فوحّد نفسه بما

تفرد به دون غيره من خلقه، ليعبد مخلصاً مبرأ من الأنداد، إتماماً لنوره، وتعزيزاً لتوحيده، وتأليفاً لدينه، وإعلاء لمن اعتصم به، وإقلاً لمن خالفه وعند عنه وعبد غيره، وإحقاقاً لكلمته، فإنه يقول: كذلك ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ غافر: ٦ الآية؛ بذلك أنزل كتبه، وأرسل رسله، واحتج بهم وبما أنزل إليهم على من مضى من القرون السالفة، والأمم الخالية، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أولهم، من عبادته وتوحيده، لا يستوحشون من قلة، ولا يؤتون من كثرة؛ يعزهم الله بقوته، ويؤيدهم بجنده، وينصرهم وينصر بهم إلى أن بعث الله محمداً ﷺ بما خصهم به، وجعله مصداقاً لهم، ومهيماً عليهم، وخاتم النبيين بعدهم؛ يمضي لأمر الله، ويجاهد من لم يجبه إلى الدخول في دين الله، فأظهره الله وأثار حقه، وأرهق عدوه، وأنجز له ما وعده وأتم بذلك النعمة عليه وعلى من اتبعه، فإنه يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ التوبة: ٣٣ .

تحميد في فتح

الحمد لله الفتح العليم، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذي أعز الإسلام بقدرته، وأيده بنصره؛ فلم يلحد فيه ملحد، ويسع في تشتيت الكلمة وشق العصا ساع، ويوضع في الكفر والمعصية موضع، ويمتنع من قضائه وإرادته ممتنع إلا أذله الله وقصمه، وأضرع خده، وأتسع جده، وضلل سعيه، وعجل بواره واستئصاله؛ حمداً دائماً لا انقطاع له، ولا نفاد لمدته.

تحميد ثانٍ

والحمد لله الذي اختار الإسلام وشرفه، وكرمه وطهره، وأظهره وأعزه، وفطر عليه ملائكته، وبعث به أنبياء ورسله، واختار له خيرته من

خلقه محمداً ﷺ، فبعثه برسالته، وأكرمه بوحيه، واصطفاه على خلقه؛ يبشر بالجنة من أطاعه، وينذر بالنار من عصاه؛ وجعله دينه القيم الذي لا يقبل ديناً غيره ولا يشب أحداً إلا عليه.

تحميد في فتح

الحمد لله العزيز في ملكوته، القاهر فوق بريته، الذي خلق الخلق بقدرته، وأنفذ فيهم إرادته ومشيتته، وقدر كل شيء وأتقنه وأحكمه، وأحاط علماً به؛ فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

صدر تحميد في فتح

الحمد لله الذي ابتدع الخلق لا من شيء، وجعل الليل والنهار كهفاً ومستجناً لكل حي؛ بقدرته تبهرت البحار، وجرت لمواقيتها الأنهار؛ فدار وتطارد الليل والنهار، لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

والحمد لله الذي فات بعظمته أبصار المرتئين، وعلا بمجده عن خطرات الحاسبين، واحتجب بأستار جبروته عن مواقع فكر المحصلين المتعمقين؛ فلم تحوهِ الكمية، ولم يقع عليه أدوات التحصيل والكيفية، ولا أدركه هاجس تبعض ولا كلية، ولم ينسب إلى زيادة في حين، ولا إلى تقصير في شهور ولا سنين، فكل أمره — عز جلاله — تمام ودوام، وكل صفات صنعه اعتدال وكمال؛ وكل ما دونه يحتكم فيه الفناء والزوال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والحمد لله الذي عرفنا ربوبيته إلهاماً، ونهج لنا سبل طاعته مناً وإكراماً، وتعبدنا بفرضه تقويماً وتعليماً وامتناناً؛ فقامت علينا وعلى الخلق حجته،

بالصادع بأمره، والمبلغ لرسالته، والمجاهد فيه حق جهاده، محمد ﷺ. والحمد لله الذي أعز دينه، وأظهر تمكينه، ونصر وليه، وخذل عدوه، وأوقع بأسه ونقمته بمحل الفرية، وجرثومة الضلالة، ومناخ الشرك، ومركز الكفر؛ بعد طول الإملاء، والاعتداء في سفك الدماء، والمثلة بالأسرى، وقلة المراقبة والارعواء.

تحميد

الحمد لله حمداً يكون رضاه منتهاه، والمزيد من فضله جزاءه، والحمد لله حمداً إليه يتناهى حمد الحامدين، وشكر الشاكرين. والحمد لله الذي لا تحصى نعمائه، ولا تجزى آلاؤه، ولا يكافأ بلاؤه، ولا يبلغ شكره إلا بمنه وتوفيقه؛ حمداً يرضاه ويتقبله، ويزكو لديه، ويوجب ما تأذن للشاكرين من يده.

تحميد على فتح

أما بعد، فالحمد لله الواحد القهار، العزيز الجبار، ذي المن والإنعام، والجلال والإكرام؛ الذي اصطفى الإسلام ديناً، واصطفى له من عباده أهلاً هداهم له، وأكرمهم به وبيّن لهم ما يأتون، ولم يتركهم في ريب من أمرهم، ولا شبهة من دينهم؛ فله الحجة البالغة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

والحمد لله الذي ختم بمحمد ﷺ النبوة، وانتجبه لتبليغ الرسالة، وبعثه إلى خلقه كافة، فبلغ رسالته، وصدع بأمره، وقام فيما بعثه له بحقه، ثم أنجز له وعده، وأتم له كلمته، وأظهر دين الإسلام به على الدين كله ولو كره المشركون.

تحميد في فتح

أما بعد، فالحمد لله الأول الآخر، الظاهر الباطن، الولي الحميد، القوي العزيز؛ الذي لا يقدر العباد قدره، ولا يحصون نعمه، ولا يبلغون شكره؛ المحيط بكل شيء علماً، والمحصي كل شيء عدداً؛ فلا يعجزه كبير، ولا يعزب عنه صغير، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون.

تحميد

الحمد لله المتوحد بالخلق والأمر، قادراً قاهراً أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وملاًه عظمة، ووسعه عدلاً، وأتقنه صنْعاً. والحمد لله الذي أعز بالحق من أطاعه، وأذل بالباطل من عصاه، وجعل الطاعة والجماعة حرزاً حريزاً، وموتلاً منيفاً؛ فلم يجمع بين أهل كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، إلا توحد بالصنع لأهل طاعته، وأنجح سعيهم، وأعلى كلمتهم، وأفلج حجتهم، وأنزل بأهل الكفر المعاندين عنه، الرادين لأمره الذلة والصغار في عاجلهم وآجلهم؛ حمداً يكون لمزيده موجباً، ولحقه مؤدياً.

تحميد في فتح لسعيد بن حميد عن وصيف

أما بعد، فالحمد لله الحميد المجيد، الفعال لما يريد؛ الذي خلق الخلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته، ودبره بعلمه، وأظهر فيه آثار حكمته التي تدعو العقول إلى معرفته، وتشهد لذوي الأبواب بربوبيته، وتدل على وحدانيته؛ لم يكن له شريك في ملكه فينازعه، ولا معين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه؛ فليس يتصرف عباده في حال إلا كانت دليلاً عليه، ولا تقع

الأبصار على شيء إلا كان شاهداً له، بما رسم فيه من آثار صنعه، وأبان فيه من دلائل تدبيره، إغذاراً بحجته، وتطوُّلاً بنعمته، وهداية إلى حقه، وإرشاداً إلى سبيل طاعته، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه؛ وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

والحمد لله العزيز القهار، الملك الجبار، الذي اصطفى الإسلام واختاره، وارْتضاه وطهره، وأَعلاه وأظهره؛ فجعله حجة أهله على مَنْ شاقَّهم، ووسيلتهم إلى النصر على [مَنْ] عَنَدَ في حقهم، وابتغى غير سبيلهم؛ وبعث به رسله يدعون إلى حقه، ويهدون إلى سبيله، بالآيات التي يبينون بها عن المخلوقين، ويوجبون بها الحجة على المخالفين؛ حتى انتهت كرامة الله إلى خاتم أنبيائه، وحامل كتابه، ومفتاح رحمته ﷺ؛ على حين فترة من الرسل، واختلاف من الملل، ودثور من أعلام الحق، واستعلاء من الباطل؛ والناس عاندون عن سبيل ربهم، يتسافكون دماءهم، ويحلون ما حرم الله عليهم، ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم؛ وأيده بالبرهان الواضح، والحجج القواطع، والآيات الشواهد؛ وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ وجعل فيه أوضح الدليل على رسالته، وأعدل الشواهد على نبوته؛ إذ عجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على مر الأيام، وكثرة الأعداء والمنازعين؛ يتحداهم به في المواسم، ويقصدهم بحجته في المحافل؛ ولا يزدادون عنه إلا حسوراً وعجزاً، ولا تزداد حجة الله عليهم إلا تظاهراً وعلوًّا؛ ثم أيده بالنصر بأنصارٍ أَلَفَ بينهم بطاعته، وجمعهم على حقه، ولمَّ شعْثهم بنصرة دينه،

بعد الشقاق المتصل بينهم، والحرب المفرقة لجماعتهم؛ كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال: ٦٢. وقدم إليه وعده بالنصرة والتمكين؛ فجعله بشرى للمؤمنين، وحجة على الكافرين، ودليلاً على ما بعثه به من الدين؛ فهزم بالقليل من عددهم الكثير من عدد أعدائهم، وغلب بضعفائهم أهل القوة ممن ناوَاهم؛ ففلَّ به حدَّهم، وفضَّ جموعهم، وافتتح حصونهم، وحريز معاقلهم؛ وأظهر بحجته ونصره عليهم، وأنجز سابق وعده لهم وفيهم، والله لا يخلف الميعاد.

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة، والآلاء الظاهرة؛ الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه، ولا يدفع قضاؤه ولا أمره؛ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس: ٨٢. والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه، ودبر الأمور بحكمه، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه؛ بقدرة منه عليها، وملكة منه لها، لا معقَّب لحكمه، ولا شريك له في شيء من الأمور، يخلق ما يشاء ويختار؛ ما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم، سبحانه الله وتعالى عما يشركون. والحمد لله الذي جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذي ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده، فقام به ملائكته المقربون، يعظمون جلاله، ويقصدون أسماؤه، ويذكرون آلاءه، لا يستحسرون عن عبادته ولا يستكبرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه، يطيعون أمره، ويذَّبُون عن محارمه، ويصدقون بوعده، ويوفون بعهده، ويأخذون بحقه، ويجاهدون عدوه؛ وكان لهم عند

ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه حجتهم، وإعزازه دينهم، وإظهاره حقهم، وتمكينه لهم؛ وكان لعدوه وعدوهم عند ما أوعدهم من خزيه، وإحلاله بأسهم، وانتقامه منهم، وغضبه عليهم، مضى على ذلك أمره، ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى، وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقي، ليتم نوره ولو كره الكافرون؛ وليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. والحمد لله الذي لا يقضي في الأمور ولا يدبرها غيره، ابتدأها بعلمه؛ وأمضاها بقدرته، وهو وليها ومنتهاها، وولي الخيرة فيها، والإمضاء لما أحب أن يمضي منها، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون.

والحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم، ذي المن والطول، والقدرة والحول، الذي لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته، ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته، ولا راد لأمره في ذلك وقضائه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. والحمد لله المتيب بحمده ومنه ابتداءؤه، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه، والمثني بالإيمان وهو عطاؤه.

لآخر

الحمد لله الذي يتطول بالنعمة مبتدئاً، ويعطي الخير من يشاء ويثيب عليه. **تحميد لغسان بن عبد الحميد كاتب جعفر بن سليمان في المطر:** الحمد لله الذي نشر رحمته في بلاده، وبسط سعته على عباده، الذي لا يزال العباد منه في رزق يقتسمونه، وفضل ينتظرونه، لا ينقضه ما قبله، ولا ينقضي ما بعده.

لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله ولي الحمد، وأهل الشاء والمجد، خالق الخلق، ومدبر الأمر؛ المسبغ على عباده، والموجب عليهم حجتة؛ فليسوا يرجون إلا سعة فضله، ولا يحذرون إلا ما اجترحوا من معصيته؛ لما سبق من جزيل إحسانه، وتظاهر من امتنانه، وتقدم به الإعذار والإنذار اللذان لا يستخف بما عظم منهما إلا من استحوذ عليه الشيطان، واستولى عليه الخذلان، وقاده الحين إلى موارد الهلكة.

التحميد الثاني

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام ديناً فطهره وأسناه، وأظهره وأعلاه؛ وزينه بكل حسنة، ونفى عنه كل سيئة، وجعله إلى مذخور كرامته سبباً وأصلاً، وسبيلاً ونهجاً، وبعث به محمداً ﷺ ليهدي من كان حياً، ويحق القول على الكافرين.

تقريظه في الخليفة

الحمد لله الذي اصطفى أمير المؤمنين لخلافته، وتلافي الأمة بسلطانه، فجعله القائم فيهم بقسطه، والمستفرغ في التماس مصلحتهم همه.

لأحمد بن يوسف

عن ذي الرياستين إلى إبراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح:
أما بعد، فالحمد لله الذي حفظ من دينه ما ضيع الملحدون، ورأب منه ما [فرّقه] ^(٢٥) الصدعة؛ وأعاد من حبله ما حاولوا نقضه، حتى أعاد لعباده أحسن ألفتهم، ورد إليهم أجمل عودهم، من الاستشلاء بعد التردّي في

قُحِمَ المعاطب، والاستنقاذ بعد التوريط في المهالك؛ وبلغ خليفته القائم بحقه، المؤتمم بكتابه، الذائد عن حريم الدين، وميراث النبيين، أجزل ما بلغ للخلفاء الراشدين المهديين، من إعلاء الكلمة، وغلبة الأعداء، والفوز بالعاقبة التي وعدوها المتقين؛ وفرغه لما أشعر قلبه، وشرح له صدره، من إمضاء حكم الفرائض الموجبة، واقتفاء السنن الهادية، حيث سلك به من المناهج؛ حمداً يوازي نعمه، ويبلغ أداء شكره، ويوجب مزيده.

والحمد لله على ما خصنا به من إعلاء الدرجة، وإسناء الرتبة، في مشايعة أمير المؤمنين — أيده الله — والمجاهدة عن حقه، والوفاء لله بما عقده له؛ لا نريد بما كان منا إلا وجهه، ولا نسعى فيه إلا لرضاه؛ حمداً لا يحصى عدده، ولا ينقطع أمده.

تحميد لأبي عبيد الله

أما بعد، فالحمد لله ذي الآلاء والقدرة، والطول والعزة؛ الذي اصطفى الإسلام ديناً لنفسه، وملائكته وأنبيائه ومن كرم عليه من خلقه؛ فبعث به محمداً ﷺ اختصاصاً له في ذلك بكراماته، واصطفاه له به على عباده؛ فأعزه ومنعه، وكفاه وحاطه، وتوكل لأهله بالعلم والتمكين، والظهور والتأييد؛ فلم يلحد فيه ملحد، ولم يزغ عن قبول حقه زائغ، بعد إعدار الله إليه، وإعادة الحجة لله عليه، إلا أنزل به من الذل والصغار والاجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قمعاً؛ حمداً كثيراً دائماً مرضياً له، مؤمناً من غيره، موجباً لأفضل مزيد ثوابه.

تحميد لسعيد بن حميد في فتح

أما بعد، فالحمد لله المنعم، فلا يبلغ أحد شكر نعمته، والقادر فلا يعارض في قدرته، والعزيز فلا يغالب في أمره، والحكم العدل فلا يرد حكمه، والناصر فلا يكون نصره إلا للحق وأهله، والمالك لكل شيء فلا

يخرج أحد عن سلطانه، والهادي إلى سبيل رحمته فلا يضل من انقاد لطاعته، والمقدم إعداره ليظهر به حجته؛ الذي جعل دينه لعباده رحمة، وخلافته عصمة، وطاعة خلفائه فرضاً واجباً على كافة الأمم؛ فهم المستحفظون في أرضه على ما بعث به رسله، وأمناءه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه، والحاملون لهم على مناهج حقه، لئلا تشعب بهم الطرق المخالفة لسبيله، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الجادة التي ندب إليها عباده؛ بهم حمي الدين من البغاة الطاغين، وحُفظت معالم الحق من الغواة المخالفين، محتجين على الأمم بكتاب الله عز وجل الذي استعملهم به، ورعاة للأمر بحق الله الذي اختارهم له؛ إن جادلوا كانت حجة الله معهم، وإن حاربوا فالنصر لهم، وإن جاهدوا كان في طاعة الله نصرهم، وإن بغاهم عدو كانت نكاية الله حائلة دونهم، ومعقلاً لهم، وإن كادهم كائد فالله في عونهم؛ نصبهم الله لإعزاز دينه، فمن عاداهم فإنما عادى الذين عزَّ بهم وحُرس بهم حقه، ومن ناوأهم فإنما طعن على الحق الذي تكلَّوه حراستهم، جيوشهم بالرعب منصوره، وكتائبهم بسلطان الله من عدوهم محوطة، وأيديهم بذبها عن دين الله عالية، وأشياعهم بتناصرهم غالبية، وأحزاب أعدائهم ببيغيهم مقموعة، وحجتهم عند الله وخلقهم داحضة، ووسائلهم إلى النصر مردودة، وأحكام الله بخذلانهم واقعة، وأقداره بإسلامهم إلى أوليائه جارية، وعادته فيهم وفي الأمم السالفة والقرون الخالية ماضية، ليكون أهل الحق على ثقة من إنجاز سابق الوعد، وأعداؤه محجوجين بما قدم إليهم من الإنذار، معجلة لهم نقمة الله بأيدي أوليائه، مُعدّاً لهم العذاب عند ردهم إليه خزيًا موصولاً بنواصيهم في دنياهم؛ وعذاب الآخرة من ورائهم، وما الله بظلام للعبيد.

وصلى الله على محمد أمينه المصطفى، ورسوله المرتضى، والمنقذ من الضلالة والعمى، صلاة نامية بركاتها، دائماً اتصافاً، وسلم تسليماً.
والحمد لله تواضعاً لعظمته، والحمد لله إقراراً بربوبيته، والحمد لله اعترافاً بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته.

فيما يُقرّظ به الخليفة

والحمد لله الذي حاز لأمر المؤمنين وراثته، وساق إليه خلافته، بالحاجة منها إليه، والرغبة منه عنها، واستخلص من خلقه من جعله ظهيراً للحوادث، وعُدّة للنوازل؛ فلما أفضت الخلافة إليه حسر أمامه أحاجلته،^(٢٦) وكشف قناعه لمحاربتة؛ فالحمد لله الذي اختص أمير المؤمنين بخلافته، وارتضاه لولاية أمر أمة نبيه محمد ﷺ، والقيام بحقه، والذب عن حرّماته؛ وحاط له ما استرعاه من ذلك، وقلده بحسن الولاية والكفاية، وتوكل له بالحفظ والتأييد، والنصر والغلبة والظهور على من عَدَّ عن طاعته، وصدف عن حقه، وابتغى غير سبيله؛ كرامة من الله تطوّل بها عليه، ومَنَّة منه توخّد بها له.

والحمد لله الذي جعل نية أمير المؤمنين عزيمته، وفكره ورويته، منذ أفضى الله بالخلافة إليه، وجعله القائم بإرث نبيه محمد ﷺ، واستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عز الدين، ونظام أمر المسلمين وترهين الشكر، وإذلال الأعداء، وإشجائهم ووقمهم، وتحصين البيضة، وإشحان الثغور، ولم المنتشر، وضم الأطراف؛ لا يفثأه عن ذلك فائئ، ولا يذهله عن تفقّد كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهل؛ يستقل كثير ما ينفق من الأموال في سد الثغور، وتحصينها وحراستها، لما يرجو فيه من جسيم الحظ، وجزيل الذخر،

وكثير الأجر؛ تقرباً إلى الله واحتساباً له في جنب ثوابه، وكريم مآبه؛ حتى رَأب به الصدع، ورتق به الفتق، وأَمَّن به السبل، وأقام به العوج، وأفلج به الحجج، وأعلى به الدرج، وأزَهَق به الباطل، وأحيا به الحق، وأشام به سيوف أهل الضلالة والفتنة؛ لا تأخذه في القيام بحق الله والانتصار لدينه، والانتصاح لأمة نبيه محمد ﷺ، والذب عن حوزتهم، والرمي من ورائهم، ودفع بائقة أهل الشقاق والنفاق والخلاف والمعصية عنهم فترة ولا سامة؛ توفيقاً من الله، وتسديداً لحرمة، وتأبيداً لعزمه، إذ كان لله شاكرًا، ولدينه ناصراً، وبحقه قائماً؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون.

والحمد لله الذي لم يزل منذ أفضى إلى أمير المؤمنين بخلافته، وحيَّاه بكرامته، يختصه بالخير في كل ما أمضى من أمره، ويتولاه بالتوفيق في كل ما أبرم من تدبيره، ويحمل عنه أعباء ما حمَّله، ويعينه بتأييده على ما قلَّده، ويحوطه بجميل الصنع فيما ولَّاه واستحفظه، ويلهمه جهاد عدوه، ويحبوه بنصره؛ حمداً قاضياً لحق نعمته، موجباً أفضل مزيده.

والحمد لله الذي أورث أمير المؤمنين مواريث نبوته، وصيَّر إليه مقاليد خلافته، وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله ﷺ، والوراثة لوراثته من عصبته وأولى الناس به؛ ثم أعز نصره، وأعلى كلمته، وأفلج حجته، وأظهر على المشركين والمنافقين، ومن حادَّه وعانده من الناكثين والمارقين، والباغين والملحدّين، فأتعس جدودهم وفعل وفعل.

والحمد لله الذي عرَّف أمير المؤمنين منذ استخلفه في أرضه، وائتمنه على خلقه، من عظيم نعمه، ولطيف صنعه، وجميل بلائه، وإعزاز نصره،

وإعلاء يده وكلمته، وإفلاج حجته على من ضاده وحاده، إن الله بعظيم طوله ومنه ارتضى أمير المؤمنين لدينه، واصطنعه لخلافته؛ فملاه سربالها، ورداه بهاءها وجمالها، فاستعمله بالكتاب والسنة والحق والعدل فيها؛ فأيده بقوته، وأعزه بنصره، وحاطه بكفائته، وتولّى الصنع له في جميع أموره؛ فلم يكده كائد، ويعانده معاند، ويمرق عن طاعته الواجبة مارق، ويلحد في إمامته ملحد، ممن يعالان بمعصية وشقاق، أو ينطوي على غلّ ونفاق، إلا أوهن الله كيده، وأتعب جسده، وعاجل المبادئ بعداوته، الشاهر على الدين والمسلمين سيفه، باصطلام وبوار، وأمكن منه بذلة وصغار، وقتل المسر غيره، المنطوي على غله بغيظه وغمه، وأماته بدائه وحسرتة؛ إنجازاً منه جل ثناؤه لوعده، وإتماماً لكلمته فيما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من استخلافهم في أرضه، والتمكين في دينه؛ وله الحمد دائماً، والشكر خالصاً، كما هو أهله، وكما ينبغي أن يُحمد ويُشكر، لا إله إلا هو الواحد القهار. والحمد لله الذي لم يُبقَ لأمر المؤمنين عدوّاً من الناكثين والجاحدين، والمشرّكين والمنافقين، حاول نقضاً لإمامته التي صيرّها الله إليه، وقلده إياها؛ أو صاول جيشاً من جيوشه التي أعدّها للمحاربة عن دين الله ومحارمه، وإقامة سننه ومعامله، إلا أحلّ به النقمة، وأصاره إلى الصغار والذلة، والبور والهلكة، وعجّله إلى ناره وعذابه.

والحمد لله الذي لم يزل يتولى أمير المؤمنين بحياطته، ويتوحد له من إعزاز نصره وإعلاء كلمته، وإفلاج حجته، وتأييد أوليائه وأنصار حقه؛ وأنزل البأس والنقمة والمثالث والسطوة بمن عانده، والذب عن حريم المسلمين وأهله؛ بما يبين به عن مكانه منه، ومنزلته عنده؛ حميداً ربنا

بذلك كما هو أهله ومستحقه، مشكورًا بعظيم منته فيه وطوله، مسئولًا لتمام أحسن عائدته وماضي سنته؛ فإن الله المحمود على نعمه، المشكور بآلائه، لم يزل ما يتوحد به لأمر المؤمنين بسلطانه من التعزيز، وفي أوليائه من التأييد بنصره، عادة يتبين بها برهانه، ويفلج بها حجته، ويدل بها على كرامته عليه، ويخبر بها عن منزلته عنده؛ ويجعل ما نزل بأعدائه المتولين عنه، الراغبين إلى غيره، الملحددين في حقه، عظة لمن قسا قلبه، وران عليه سوء عمله، ليكون ما يعطيه من البسط في ملكه، والتمهيد فيما خوّله له، ويوفقه من السطوة بعدوه، والتنكيل بمن خالفه، حجتين متظاهرتين، وعبرتين يعين^(٢٧)؛ فيعتصم معتصم، وينجو ناج، وليشجب [شاجب]^(٢٨) ويهلك هالك، وقد مضت من الله المشيئة، ووضح منه الإعذار، وكان الله بعباده عليماً، وبأعمالهم خبيراً.

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بخلافته، وجعله وارث وحيه، وقيّمه بكتابه في عبادته، وأكرم هذه الأمة التي جعلها خير أمة أخرجت للناس به؛ فهو الميمون في تدبيره المنجح حويله، الميمون النقيية، الموفق الرأي والسياسة؛ فإن الله عز وجل خلق الخلائق بقدرته، واختارهم بعلمه، فاختر أمير المؤمنين لخلافته، واصطنعه للقيام في العباد والبلاد بأمره وقسطه، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه، والعمل بحقه وعدله، وأبلى أهل الشرك به، وأخرها إلى أيام دولته، وحظرها عمن كان قبله؛ حتى حاز له أجرها، وأبقى له سناءها وذكرها، ونشر عنه أحوثها وسماها؛ وفتح عليه البلدان القاصية، والمدائن المتناية، التي لم تكن ترام من أهلها، ولا يطمع في زوالها؛ وذلت له الملوك القديم عتوها وعنادها،

والأمم المستصعب مراسها وجهادها، الحامية في آباد الدهور حماها؛
فأنفذ فيهم مكيدته، وأنجح سعيه، ورماهم بالتخويف، وملأ قلوبهم
رعباً منه؛ فأذعن مدعنوهم بطاعته، وانقادوا لأمره، وصاروا يداً وأعواناً
لأوليائه على أعدائه.

أما بعد، فإن أعظم النعم قدرًا، وأجلها أمرًا، وأسرها موقعًا، وأوجبها
شكرًا، ما عم الإسلام والمسلمين نفعها، وعادت عليهم عائدتها، وجعل الله
فيها عز الدين، وذل المشركين؛ وقد جعل الله ذلك في خلافة أمير المؤمنين
أطال الله بقاءه بيمينه وبركاته، وما أخلص الله من نيته وطاعته، وتأدية حقه
فيما استحفظه من أمر دينه وعباده، وفرغ له نفسه، وأنصب فيه بدنه، وأسهر
فيه ليله، من حياطة حريم الإسلام، والزيادة في حدودها متصلًا متتابعًا،
والنعم متظاهرة ومتوافرة، فسَهِّل الصَّعب، وذلَّ له العزيز، وقصم عتاة
الأعداء ومتكبريهم، والمستعصين والمستصعبين منهم، في آباد الدهور على
من رامهم، وفتح عليهم حصون مدائنهم؛ وممتنع قلاعهم، وأنفذ مكيدته
فيهم؛ فبين مقتول ومأسور، وشريد طريد عن محلته، وموضع عزه ومنعته،
مستسلم معطٍ قياده باخع بطاعته؛ وكذا فإن الله بمنه وطوله قد أوصل
لأمير المؤمنين من صنعه له فيما قلده من خلافته، وحياطته إياها فيما يحوطه
من دينه، وعرفه من كفايته فيما قام به من حقه، وأيده من نصره فيما جاهد
عنه في سبيله، ما قد جعل النعمة به عامة، والشكر به لازمًا، والمنة به واجبة،
والصنع عظيمًا؛ فالحمد لله على نعمه في ذلك كثيرًا.

والحمد لله الذي جعل اجتهد أمير المؤمنين ومقام أمره وتدبيره، في آناء
الليل ونهاره، فيما فيه صلاح عباده، وإعزاز دينه وإقامة حقه.

تحميد

الحمد لله الذي لما افترض من الطاعة لولاية الأمر من خلفائه جعل أوائلها ناطقة عن فضل أواخرها، وبوادئها مخبرة عن حميد عواقبها، ومواردها مبشرة بالعلو في مصادرها، بما يعقبه أهلها من السعادة في الماضين من أوليائها القائمين بحقها؛ وعاد من الشقوة على مقارفي المعصية الملحين إليها؛ حين أقبلت بهم هوادي الفتن، وكشفت لهم تواليها عن البوار والهلكة؛ معتردين حين لا عذر ولا حجة، طالبين للمহারب بعد أن كانت منازل السلامة بهم مطمئنة، وخائفين وقد كانت سبل الأمن لهم واضحة؛ قد جعلتهم النعمة الواقعة بهم أمثالاً سائرة، وفرقت بينهم وبين النعم الشاملة، وحصلت السعادة لمن اتعظ بهم باقية، سنّة من الله فيهم ماضية، وعادة جارية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته فحرس به دينه من البغاة الناكليين عنه، واختصه بإعلاء رتب كرامته، وافترض طاعته على عباده، وجعلها بمواقعها في دينه نظاماً لسائر فرائضه، فتاركها مفارق لعصمة حقه، خارج من جملة الأمة التي سبقت لها رحمته؛ يستنصر أشياع الباطل والله خاذله، ويُغالب الحق والله غالبه، ويطلب ما لا سبيل له إليه والله طالبه؛ حتى يخلجه أجله عن أمله، وأقدار الله فيه عن تقديره، ونفوذ قضاء الله فيه عن نفوذ حيله؛ فضلاً من الله على أوليائه وقضاءً منه عدلاً في أعدائه، والله ذو الفضل العظيم.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لرعاية عباده، وحفظ بلاده، وتنفيذ أحكامه، وإقامة حدوده؛ فجمع به الألفة، وكفّ به بوائق الفتنة، وأصلح

به أمور الأمة، وسكّن به الدهماء، ودفع به عظيم البلاء، وأنقذ به من الجهد والألواء؛ وجدّد لرعيته العبر الشافية، والعظة الناهية، وجعل همه السعي لربه، وطلب الحق الذي أوجبه له من خلافته، ليؤدي فرضه في الأمانة التي حملها؛ فيوجب له بذلك ما لا يزول ولا ينقطع من ثوابه، فأعمل رأيه في الرأفة بمن ولّاه أمره، والحيطة له، والعناية بصلاحهم؛ فأعطاه لين الموعدة في وقت التآني، والنفوذ لإقامة الحجّة والبيّنة، وشدة السطوة على من غمط النعمة وعندّ به الإصرار عن النزوع والفيئة؛ منّا من الله وتفضلاً، وإحساناً وتطوّلاً، والله ذو فضل عظيم.

ويسأل الله أمير المؤمنين مبتدئاً ومعقباً، وأولاً وآخرًا، وقبل كل مسألة، وأمام كل رغبة، ومقدّمة كل طلبية؛ أن يصلي على صفوته من عباده، وخيرته وخاتم أنبيائه ورسله، محمد عبده ورسوله، أفضل صلواته، وبيارك أكثر بركاته، وأن يديم له كرامته، ويجري عنده أجمل عاداته، ويتمم له ما اختص به من إحسانه؛ حتى يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، والإسلام تأييداً وعزاً، والشرك ذلاً وقمعاً؛ إنه ولي كل نعمة، ومنتهى كل رغبة، وغاية كل حاجة. ولم يزل أمير المؤمنين منذ الوقت الذي أفضى الله إليه بخلافته، وأكرمه برد حقه من إرث نبوته، يتلقّى عظيم النعمة في ذلك بالإخلاص للنية والطوية في الصفح عن كل زلّة، والإقالة لكل عثرة، والتعمد للهفوة وقبول الفيئة، والإنابة ممن عظم جرمه، وجل ذنبه، وظن أن لا توبة له؛ وكلما جدّد الله له نعمة، جدّد له في ذلك نية حسنة، شكرًا لله عز وجل على ما ابتدأه به، وارتهاناً لنعمه عنده، واستزادة من جميل مواهبه، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رعيته، واستقامة أمورها، وحياطتها والذب عنها،

وكف الأذى والمكروه عن الداني والقاصي منها؛ ويتخلص إلى ذلك بكل ما يجد إليه السبيل ويجتهد فيه، ويعمل لكثرة أوقات دهره في كل ما بلغه محبته نظرًا لها، وحذبًا على كافتها، وإشفاقًا من سوء حالها؛ إذ كان لها والدًا برًّا، وراعياً كالثَّاء، وناظرًا لطيفًا؛ ويستعمل كل ما يرجو ائتمامها، والإبقاء على أحوالها، والسلامة لها في دينها ودنياها؛ وينصب لذلك ليله ونهاره، ويذيب فيه نفسه، ويجعله شغله دون غيره.

والحمد لله الذي اصطفى أمير المؤمنين بخلافته، وأكرمه بإرث نبوته، وجعل خلافته خلافة يُمن وبركة، ولطف وسعادة؛ انتاش بها أوليائه من موارد الهلكة فرفع منزلتهم، وشرف درجتهم، وأعلى كلمتهم، وأذل بها أعداءهم، وجذّ دوابرهم، وردّ دائرة السوء عليهم؛ وحباه مزية نصره وتمكينه، وإعزازه وتأيينه، وإظهاره على من ناوأه وعند عن حقه، وصدف عن طاعته؛ فإن الله لما اختار أمير المؤمنين لخلافته فأيده بها، جعل الحق نيته، وإعزاز الدين بغيته، ومجاهدة أعداء الله شرقًا وغربًا وبرًّا وبحرًا نهمته وإرادته؛ ثم يسّره في ذلك لما أحسن به عونته، على من استحفظه وقلده، فضلًا من الله ونعمة، والله عليم حكيم.

والحمد لله الذي كان لسابق علمه وسالف قضائه، الذي لا يستطيع الناس رده، ولا منعه ولا صرفه، ما ولى المؤمنين من خلافته، وما ابتعثه له من النصر لدينه، والطلب لحقه، والجهاد لأعدائه؛ وأحسن في ذلك عونته فيه وبلاءه، وأيده في نفسه، لم ينقصه خذلان خاذل، ولا مخالفة من خالف، ولم يزد أمره في شيء من ذلك إلا تمامًا وإحكامًا؛ حتى أظهر حقه، وأفلج حجته، ومحق باطل أعدائه، وأدحض حججهم؛ وجعل أهل طاعته

حزبه الغالبين، وجنده المنصورين؛ وجعل عدوه وعدوكم حزب الشيطان الخاسرين، وأولياءه الأذلين؛ بغير حول من أمير المؤمنين في شيء مما ولّاه وأبلاه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لأبي عبيد الله

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بما أصار إليه من الخلافة وإرث النبوة، وجعله القائم بأمر عباده وبلادهم، والمحيي لسننهم، والذاب عن دينهم وحقهم، والمناصب لأهل الشرك والجحود به؛ ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودولته، ومكّن له في بلاد عدوه، وجعل كلمته العليا وأنصاره الغالبين، ومن ناوأه من أهل الخلاف الأذلين المقهورين؛ وعرفه من نعمته في ذلك ومنته وجميل صنعه وعاداته، أحسن ما عود أحدًا من أوليائه الذابين عن الإسلام وأهله؛ حمدًا متتابعًا لا انقطاع له ولا انصرام، دون بلوغ حقه، وقد كان كذا وكذا.

ما يكتب به في المخالفين في وقت الهزيمة

نكصوا على أدبارهم منكوبين مهزومين، قد ضرب الله وجوههم، وفَتَّ في أعضادهم، ومنح الأولياء أكتافهم؛ فقتلوهم في كل فج، وعلى رأس كل تلعة ومهرب ومسلك؛ أباد الله خضراءهم وغضراءهم، وحصد شوكتهم، وفلَّ حدَّهم، وأباخ^(٢٩) نيران ضلالتهم وكفرهم، وشفى منهم الصدور، وأدرك منهم الإحن؛ ونفَّل المسلمين أموالهم وذرائعهم، وجعلهم لهم خولًا وعبيدًا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحلَّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة والظهور والغلبة جزاءً من الله لمن أخلد إلى المعصية وابتغى غير سبيله المسلوكة. وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين، ويستدرجهم من حيث

لا يعلمون، إن الله لا يخلف الميعاد. ثم أنزل الله عز وجل من صار إلى الأمصار منهم هرباً، واعتصم بالحصون، وتعوذ بالجبال، ولاذ بالقللاع، ولجأ إلى الأودية، من صياصبيهم، وأمكن من نواصبيهم، واستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوذهم، وأخذ أسيراً ذليلاً منكوباً خائفاً قد نخب الوجل قلبه وملأ الرعب صدره، متوقفاً أن ينزل الله به من النقمات والمثلات ما لا مرد له عن مثله من القوم الظالمين، وفشت في الكفرة الجراحات، وعصتتهم السيوف، وشرعت فيهم الفناء، وهرتهم نار الحرب، وغالهم النزال، ومارسهم الأبطال، واستحرف فيهم القتل، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر، فلم يُطيقوا بالموت مرأماً ولا على الحرب مقاماً.

في صفة الخالعين

الناصبين لدين الله، المكذبين بآياته، الجاحدين رسله، الجاعلين معه إلهاً، لا إله إلا هو، لطول مدتهم، وشدة شوكتهم، وصعوبة مرامهم، وقطعهم السبل وانتهاكهم المحارم وسفكهم الدماء التي أوجب الله على من سفكها بغير حلها واقترف واحتمل وزرها، أليم العذاب وشديد العقاب، فأبوا إلا تمادياً في ضلالتهم، وعتوا في طغيانهم، وثبوتاً على عصيانهم، ومقاماً على كفرهم، لأحداثه السالفة، وغوائله المتقدمة، وبوائقه المشجية، فوقف مميلاً بين ثكل التقدم وحقيقة الاصطلام في التأخر، دعاهم إلى الفئنة والمراجعة والإنابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة، استظهاراً بالحجة عليهم، ورجاءً لصنع الله فيهم. فلما بلغهم نزولي فيمن معي، جمَعَ أصحابه، وضمَّ جنده، وتحرَّز في معسكره، وخندق على منزله، واحترس بجهده، فأقمت معسكري، وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رسلي وأدعوه إلى حظه، من طاعة

أمير المؤمنين والدخول في أمانه، وأعلمه أن له نظراء ممن غمط الطاعة، وسَفِه الجماعة، وقد ركضوا في الفتنة عمرهم وسعوا فيه دهرهم، فانتشر خبرهم، وكثر تبعهم، وكبر وزرهم، وثقل وقرهم، ثم أذعنوا لطاعتهم، واستقلوا ناهضين من عثرتهم، ومتنعشين من زلتهم، فغُفِرَتْ ذنوبهم، وقُبِلَتْ توبتهم، وفُسِحَ لهم في أمانهم، وشُرِفَتْ منزلتهم، واستبدلوا بالخوف أمانًا وبالذل عزًّا؛ فأبى به ميل الهوى، وغلبة الشقوة، ومستعلي الغواية، والقدر المحارب، والقضاء المحتوم. وتقدمت في موافقتهم وترغيبهم، والأخذ بالمخنق منهم، من غير قتال، ولا تناول سلاح، ولا تناوش صيال^(٣٠) وعرضت عليهم التوبة، ودعوتهم إلى الإنابة، وأعطيتهم الأمان، وأعلمتهم أنهم إن قبلوا حمدتهم وأخذت نار الحرب بيني وبينهم، وإن أبوا إلا تماديًا في غيهم ونكوصًا على شقائهم، وَلِيتُ مناجزتهم وعرفت من الله الخيرة في محاربتهم، واستعنته عليهم، واستكفيتهم أمرهم، ورجوت حسن عاداته عند أمير المؤمنين في أمثالهم. ثم وجَّهت الأولياء فنَقَذُوا نحو عسكرهم ليلاً وهم متفرقون في رحالهم، مغترون في أوطانهم، قد آمنوا خدع الحروب ومكرها ومكيدتها، ووقعة البيات وهولها، إلا طائفة منهم أهل عدد وعدة، وبأس في أنفسهم وقوة، اتخذوا الليل جملاً، وسروا نحونا يرجون غرتنا ويأملون غفلتنا، فوقف جندنا بمكانهم آخذين أهبتهم، متمسكين بالطاعة فيما به إمرتهم، فأسرعت إليهم من أعدائهم طائفة فدفعوهم عن أنفسهم، ونالوهم بجراحات مع قتلى منهم عند تناوشهم، ثم نكصوا على أدبارهم، ورجعوا القهقري على أعقابهم إلى الباقين من سريتهم، فاستجاشوهم فاجأهم بالمكائفة والمؤازرة، وأقبلوا بحميتهم

وحققهم حتى حملوا حملة رجل واحد، وضاق الفضاء وطارت أفئدة جندنا رعباً من حملتهم، وبلغت القلوب الحناجر منهم، إلا طائفة قليلة من لواقع الحرب ومواضي رواسخها وأشبال لبدتها، تزينوا بالطاعة فأموا حسن العاقبة، ونصروا الدين، فوثقوا بالتمكين، انتدبوا إليهم، ووقفوا لهم، وازدادوا بصيرة في أمرهم، ونفاذاً وجداً في اجتهادهم ومجاهدتهم، فثبتوا قائمين بالقسط في أحوالهم، قائلين بالعدل في أملائهم، يسألونهم الكرّة بعد الكرّة، ويعدونهم الغلبة، ويمنونهم السلامة، ويضمنون لهم الغنيمة؛ ففأوا إليهم، ورجعوا إلى الحق لله عز وجل عليهم، فشافعوا ساعة بالقنى بعد تراميهم إرشاقاً بالسهم.

فلما رأى أعداء الله جدهم، وعرفوا صدقهم، وخافوا حدهم، نكصوا على أعقابهم، يريدون اللحاق بمعسكرهم، وتحرك أصحابنا في طلبهم، ورجوا سوء الصباح لهم، فأمعنوا في أثرهم؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة وولوا إلى ديارهم لا يلوي قريب على قريب، ولا ذو رحم على حبيب؛ ونالتهم القنى فدرستهم، وعضت هامهم السيوف فكلمتهم، وحيل بينهم وبين الدخول من باب عسكرهم، فأخذوا في غير طريقه منهزمين، قد فل الله حدهم، وقلل كثرتهم، وقتل عامتهم؛ ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم بعد التشريد والتفريق بجماعتهم، فأحاطوا بهم في آخر ليلتهم، فلما رأوا غفلتهم، وأمنوا غرتهم، وانتهزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون، فأروا غافلون متفرقون، فوضعوا السلاح فيهم، ضرباً بالسيوف، وطعنًا بالرماح، وضرباً بالأعمدة، وذبحًا بالشفار، لا يشوون من جرحوا، ولا يُيقون من كلموا، غير مدفوعين ولا ممنوعين، حتى انثنت السيوف، وتحطمت القنى واندقت الأعمدة، وكلت الشفار، وبقيت منهم عدة يسيرة وشرذمة قليلة

ممن لم ينله القتل، فأخذوا أسرى، وأوثقوا حديدًا، وكُبلوا قيودًا، وكان أول رأس أتاني بخبره^(٣١) بشيرهم وأسرع به إليّ ذو المعرفة منهم رأس^(٣٢) عدو الله المارق الباغي، الشاق لعصا المسلمين، ملأني رئيس ضلالتهم، وقائد جهالتهم، ومستغوي جماعتهم، فعرفته بحليته ونعته وصفته في عدد كثير من رءوس قواده وأهل الفتنة وأئمة البدعة، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدّعوا في كل جبل وخمر، منهزمين هارين، لا يستطيعون لما أتاهم من عذاب الله دفعًا ولا منعًا بأيدي ولا قوة؛ ولا يلجئون إلى ركن وعصمة، قد تشتت بهم نظامهم، وفارقهم وجوههم وأعلامهم، فأخذهم أسرًا قسرًا قد منهم النصب، وملأ قلوبهم الرعب وتخمرتهم الوقائع، ونخبتهم الهزائم، وتحيفهم القتل، وغلب الله عز وجل لأمر المؤمنين على حصنه الذي كان مناف عزه، وموضع منعه في نفسه، ومجتمع عدته، ومادة قوته، فقوضوا عساكرهم، وأقشعوا عن حصنهم يتبع آخرهم أولهم، متحيرين متلذذين، أذلة خاسرين، فتفرقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم. فلما استحرّ القتل فيهم، وفشت الجراحات في عامتهم، وطحتهم الحرب بكلكلها، وألما وقع حديد أنيابها ومساعرها، قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم، فولوا منهزمين مغلولين، وركب المسلمون أكتافهم، يقتلونهم في رءوس جباههم، وخلال غياضهم، وبطون أوديتهم، ومقاصي تلاعهم، وفي كل ناحية من نواحيهم، حتى عجز الليل دونهم، وأعجزوهم هربًا في معاقلهم.

وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عزَّ بضلاله، وتحصَّن بمعاقله، واستكمل قواه، وكثَّف تدبيره، ولجأ إلى مانع منه ودافع عنه، عطف عليه عواطف الحق

بأولياء الحق وأنصاره، ناقضين ما أبرم، ومتداولين ما سد، ومتوغلين إلى غيه ببصائرهم، وإلى باطله بحقهم، فاستنزل عن موضع عزه قسرًا، وأمكن الله أوليائه أسرًا؛ سنّة الله فيمن عَنَدَ عن سبيله، وألحد في دينه، ومرق عن الطاعة وثائقها، واستبدل بالحق ومنهاجه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً، ولن تجد من دونه ملتحدًا ولا نصيرًا؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه، وأرهق الله باطلهم بحقه، وجعل الفلج والظفر لأولى الحزبين به، بذلك جرت سنة الله في الماضين من خلقه، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته.

وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما بلا من طاعته، واختبر من نصيحته، ويؤمن نقيته، وشدة شكيمته، وصحة عزيمته، وصدق نيته، وثقل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين، وعلمه بمراوضة الحرب وممارستها، ومكايدة الأعداء ومواقفتهم فيها، فشمر تشمير أهل الحسبة وحسن الظن بالله من غير ونية ولا فترة ولا بقاء جد ولا اجتهد، راجيًا أن يُنَجِّحَ الله سعيه، ويفلج حجته، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذي حمّله، والاضطلاع بما أسند إليه، والامتثال لسيرته، والانتهاز إلى أمره، والقبول لأدبه، والخفوف بما يستنهضه له من حروبه وأموره مثل الذي جعل عند فلان: يفضلهم بطوله، ويطولهم بمحاسنه، ويتقدمهم بحسن بلائه وغنائه، ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين في جميع خصاله إلا وجده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمناهجه، قابلاً لأمره، متبعاً لأثره، سامياً بهيمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدماً في القدر والرتبة، مخصوصاً

بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلاً في كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه ولياً ظهيراً. فأقدموا متوكلين على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللأواء والجهد والتعب وكَلَب الشتاء وحمارة القيظ، وصعوبة المرام من أعداء الله الكفرة، يرجون نصر الله وتَنَجُّز ما وعد الصابرين والمجاهدين في سبيله من الظفر والنصر والغلبة على عدوهم، توحد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالنصر والعز والحيطرة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكَبَت من حادهم وأخلد إلى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم؛ أعظمهم غناء، وأحسنهم بلاء، وأشدّهم صولة، وأقساهم نكاية، وآمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جأشاً، وأصدقهم بأساً، وأملاهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيثار، وأشدّهم تحدياً على السلطان، فأزره بهم، وحصّن أطراف خلافته بأيديهم، فكفوه المهم وقاموا دونه بالملم، غير مستطيلين بغناء، ولا متعرضين لطلب جزاء، قد تعبدتهم الوفاء، وغنّوا بقربة الولاء؛ فإن الله جعل آباءه أعلاماً في الطاعة يهدون إليها، وأوليّته قادة إلى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقياً على كرّ الأيام ذكر مساعيهم، وزائدة على تصرف الأيام حقوقهم، وبادياً للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وصلوه بحادث، ولا يتقادم لهم من بلائهم أول إلا اتبعه آخر. ففلان يجري في أمره على منهاج قد أوضحوه له، ويسلك في الطاعة طريقاً قد سهّلوا له مذهبهم، ويتمسك بعرى وثيقة قد رأى آثارها على من تقدمه، والله محمود. ولم يزل الله يعرف

أمير المؤمنين في كل ما أسنده إلى فلان من أعماله وقلّده من أموره، المبالغة في قضاء الحق عليه ويؤمن النقيبة فيما يتولاه، والاجتهاد في كل ما قربّه من الله وخليفته. وأمير المؤمنين يحمّد الله على ما يخصه به من نعمته، وإياه يستعين على قضاء حقه، إنه سميع قريب.

فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلع إليه منك ويؤمله عندك، ويرجو أن يوفقك الله فيه لرشدك، ويؤثرك منه بحظك، للذي كان يبلغه وينتهي إليه من خبرك، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير، وتنقلك في درجتها، مسامياً لأهل الفضل في مراتبهم، متزیناً بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم، وحسن طريقتهم، ولين أكنافهم. فحقّق الله ظنه بك، وأجاب دعاءه لك، وبلغ بك أمنيته، وأعطاه فيك رغبته. وكنت فيما هُديت له بانقيادك إليه راغباً، ودخولك فيه محتسباً، مستولياً على أسنى الأمور مئونة، وأفضلها ذخيرة، وأعلاها درجة، وخيرها عاقبة، وأعمها سلامة، وأمنعها كهفاً، وأبقاها شرفاً، وأعدّها حكماً، وأطولها سلماً، مستحقاً بذلك على الله عز وجل زيادة الملك فيها، وبهاء الثروة، وانبساط القدرة، واتساع المملكة، وظهور الغلبة وعز التمكين، والنصرة في الدار التي حُببت فيها بقليل ما ترجو أن تصير إليه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازاته بالنعيم المقيم في دار الأمد، ومحل الأبد، بما لا يبلغه إحصاء، ولا يكون له انتهاء؛ وملاؤه فرحاً وابتهاجاً، وسروراً وجدلاً، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقه أن يغلب لك على حظك، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبته، وإلى ذلك سموك وهمتك. وليس ينفك أمير المؤمنين مقتفراً فيك أثراً يحمده، ومتصفحاً بخبر يبهجه، ومستحدثاً نعمة من الله عز وجل

يرجو اتصالها واتساقها لديه بك، حتى يتناهى إلى الدرجة العليا، والغاية القصوى، فيما [يبتغيه]^(٣٣) من اجتثاث أرومة الفسقة وقطع دابرهم. وبالله الثقة والحوّل والقوة، متعرّفاً من الله فيما فارقه من جهاد عدوه أتم مصادق وعد القائمين بحقه، الصابرين في جنبه، وأحسن ما أبلى، ذائداً عن حريم، ومحصّناً لبيضة، ومدافعاً عن ملة، فشمّر شارياً لله نفسه، طارحاً عنه لباس الغفلة، متجافياً عن مهاد الوطأة، وليس تدخله الخلّة والوحشة على من كنت قريباً منه، ولا يمتنع لأمر المؤمنين طرف أنت فيه، ولا أمر يعين عليه ويتمسك بسبب من أسبابه.

وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السمو إلى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوثقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، منشرة صدورهم بمكانفته، منبسطة أيديهم بمعاونته؛ وقسم لأمر المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره، قومٌ آزرهم بالنصر، وكنفهم باليقين، وألف بصائرهم على الحق، وأيدهم بمؤيدات التقوى؛ فلما أمرهم أطاعوا أمره، ولما فرضوا في ذات الله طاعته، فرض الله نصرهم وتمكينهم، فجاهد مجاهدتهم مستبصراً محتسباً، وقام قائمهم بالحق عليه مخلصاً مجتهداً؛ وقادتهم طلائع الدين ودواعيه أرسالاً قدماً، فاتبعوا سبيله لا ناكلين عن إقدام، ولا متوقفين عن ارتياب، ولا متهيئين، مع دخائلهم وبصائرهم، عدواً ولا عناداً؛ طالبين بثأر الدين بغاته، وبطوائل الإسلام عداته: من صنوف أمم الكفر ومردة النفاق وأئمة الملحدين؛ متقلدين للحق ونصرته، ولئن تم الحق بهم ومضى، ولئن مع الحق من نكث عنه بألستهم وأيديهم، حتى فتح الله عز وجل لأمر المؤمنين معاقل الشرك وأممهم، وأنار الباطل وأركانهم، وأعلام البدع

وأتباعها، فضلاً من الله ونعمة، والله عليم حكيم؛ إن هزرتهم قطعوا قطع الحسام، وإن أجريتهم في عزيمة وقعوا وقع الجياد، وإن استغنيت ودام الغناء لك عن جميع العاملين، كانوا رصدًا لك فوق أعناق الحاسدين.

ما يُقَرَّظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب

ليعرفوا موقع نعم الله عند أمير المؤمنين، يحوطه به في أوليائه، من النصر والتمكين، وعلى أعدائه من الوقم^(٣٤) والتوهين؛ ويشكر الله على النعمة في ذلك، إن الشكر محصن للنعم، وأمان من الغير، لتحلو مواقع النعمة عليهم، فيما يجمع الله بأمير المؤمنين من كلمتهم، ويحوط من حريمهم، ويُجَل من بأسه ونقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشتيت جماعتهم وتوهين حقهم، ويقابلون ذلك بما ترتبط به نعمه، ويستدر مزيده.

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المراق الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للمزيد.

(٣) التحاميد في أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما استحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمّله.

تحميد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

فالحمد لله المزيل لما يمهّد المبطلون، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكيناً لعبده وخليفته، وذنباً عن دينه وحقه، وإظهاراً لأوليائه

وحزبه، وإمضاء لعزائمه وقدرته، منعمًا قادرًا، ومعلمًا ممهلاً، عدلاً إذا استدرج، متفضلاً إذا أنعم، حمداً يُستنزل به نصره، ويُبلغ به رضوانه، ويُمتري بمثله فواضل مزیده.

تحميد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التي تُحمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولي به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعز به وليه، وقمع به من ألد عن سبيله، حمداً يؤدي حق نعته، ويوجب به أفضل مزیده بمنه وطّوله.

تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمر المؤمنين في دولته وسلطانه، ولعامه المسلمين من صنعه وكراماته، في جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تمامًا، وعلى ما يحل بعدوه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه واستئصاله، ما يكون لموعدده إنجازًا، حمداً يبلغ رضاه ويستوجب مزیده.

تحميد آخر

الحمد لله الذي تمّ لأمر المؤمنين نعمته، وأكمل دعوته، وجعل العاقبة فيه لمن اختاره لخلافته، ورد إليه من شدّ عنه من رعيته، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حد نيته وقدر أمنيته، ولم يفل رأيه ولم يخلف ظنه، حمداً كثيراً دائماً بما يزكو عنده فيقبله، ويرفع إليه فيبلغ رضاه؛ حمداً يكون لأسبغ نعمه جزاءً، ولأفضل إحسانه كفاءً، وللمزيد من فضله وإحسانه موجباً، وإلى أعلى الدرجات عنده مؤدياً، وللخلود في جنته وسيلة وسبباً.

آخر: الحمد لله الذي جمع لأmir المؤمنين ما حباه بمزية نصره وتمكينه وإعزازه وتأيينه، وإظهاره على من ناوأه وصدَّ عن حقه، وصدف عن طاعته، ووفقه لاختصاص فلان بها وكله إليه وعصبه به من أعباء أموره وجلائل أعماله، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جده ويمن طائره، من تتابع الفتوح، وتواتر النصر، وإقبال الصنع، وإعلاء الحق وإنارته، وإزالة الباطل وإبادته، حمداً يؤدي حقه، ويرى عزه، ويمير من أحسن^(٣٥) مزیده، بكرمه وجوده.

آخر: الحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بالخلافة، وخصه بالإمامة، وقلده من أمور عبادته وبلاده ما تولاه بكفايته وكلاءته وتأيينه وحياطته، حمداً يوجب المزيد من فضله.

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر عبده، وأيد جنده، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقاً وغرباً مشفوعة بين إقامة حق وإدالة باطل وإزالة عاند وإبادة عائد وإقالة^(٣٦) مستقيل. ويسأل الله أمير المؤمنين، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة إليه متذللاً له أن يصلي أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه.

دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه، أن يکنفه فيما حباه واستحفظه عليه بأفضل تأيينه وأعز نصره، وأن يهب له مع كل نعمة يجددها له حارساً من شكرها، يتابع به أفضل مزیده، فإن النعمة منه، والشكر بتوفيقه، والمزيد لمن شكره.

وأمر المؤمنين يسأل الله ربه وربكم ووليَّ النعم عليه وعليكم، أن يلهمه وإياكم أداء حقه وشكر نعمته وحمده عليها، ويطوّقه وإياكم أفضل الأعمال وأرضاها عنده وأشدّها استيجاباً لما وعد الشاكرين من مزيده؛ إنه سميع قريب.

وأمر المؤمنين يسأل الله الذي ولاه خلافته وأعلاه بها، أن يطوّقه ما حمّله، ويلهمه العدل بين رعيته، ويلهمهم نصيحته وطاعته، ويصلح أمرهم به في ولايته وخلافته. ويرغب إلى الله الذي أيده بنصره ومكّن له بغير حول منه ولا قوة، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته، ويشمله وإياكم بطاعته ومرضاته ومحبته، وأن يعرفه وإياكم الزيادة في نعمه والنصر على عدوه والتمكين في بلاده؛ إنه ذو فضل عظيم.

وإلى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانته على نيته وتبليغه منتهى سؤاله وغاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب. وأمر المؤمنين يسأل الله الذي دلّ على الدعاء تطوّلاً وتكفلاً بالإجابة حتماً، فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر: ٦٠ أن يجمع على رضاه ألفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم، وأن يمتعكم بأحسن ما عودكم من مننه، ويؤزّعكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده، وأن يكفيكم كيد الكائدين، وحسد الباغين؛ ويحفظ أمير المؤمنين فيكم، أفضل ما حفظ به إمام هدى في أوليائه وشيعته؛ ويحمل عنه ثقل ما حمّله من أمركم؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوي من جزائكم بالحسنى، وحملكم على الطريقة المثلى، وبه يرضى لكم ناصراً ووليّاً، وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً. ويسأل الله أمير المؤمنين، أن يُحسن على صلاح نيته عونته، وأن يتولاه فيما استرعاه، ولاية جامعة، لصلاح ما قلده، إنه سميع قريب.

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مفاتيح مقاديره وفواضله، أن يصلي أفضل صلواته على أفضل أنبيائه، وأن يجعل ما ادخر لأمر المؤمنين إلى دولته وخلافته، وحباه به من وسائل الخير عنده، أن يجمع إلى أحسن توفيقه لما يرضى من شكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه، فإنه شاكر يحب من شكره ويوجب لمن وفق لشكره مزيداً بمنه وطوله وفضله وإنعامه، إنه جواد كريم.

ويسأل الله أمير المؤمنين مبتدئاً ومعقباً وأولاً وآخرًا، وقبل كل مسألة، وأمام كل رغبة ومقدمة كل طلب، أن يصلي على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله، محمد عبده ورسوله، أفضل صلواته، ويبارك عليه أكثر بركاته؛ وأن يديم له كرامته، ويجري عنده على أجمل عاداته، وأن يتم له ما اختصه به من إحسانه، حتى يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، والإسلام تأييداً وعزاً، والشرك ذلاً وقمعاً، إنه ولي نعمته ومنتهى كل رغبة، وغاية كل حاجة، وهو على كل شيء قدير.

وأمر المؤمنين يقول: الحمد لله طاعة لأمره، واعتصاماً من الفتنة بشكره، واستدامة لنعمه المتزايدة^(٣٧) عنده، إنه سميع قريب.

وأمر المؤمنين، يسأل الله السامع كلام من جهر، والعالم بغيب من أسر، المطلع على ضمائر العباد ووسوستهم، والمستنقذ من يشاء برحمته، والممتن على من يشاء بقدرته، أن يجمع على الحق أهواءكم، وينصركم على أعدائكم، ويصلح ذات بينكم، ولا يكلكم في موطن من مواطن اللقاء، والتحاكم والتناجز إلى أنفسكم، ويكفيكم ويكفي بكم إنه سميع قريب.

الدعاء لأمير المؤمنين في أواخر الكتب

ونسأل الله أن يَهِنَا أمير المؤمنين ما صنع له، ويُعِينَهُ على شكر ما أولاه،
إنه ولي ذلك وإنا إليه راغبون والسلام.

وله: ونسأل الله أن يَهِنَا أمير المؤمنين الكرامات التي يتابعها، والنعم
التي يظاهرها عليه، والفتوح التي جعلها في خلافته، وولايته ودولته،
ويهب له من المعرفة بحقه في ذلك والشكر له بحسن بلائه فيه، ما يبلغ
أعظم رغبة وأقصى أمنية، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر وحسن الثواب
في الدنيا والآخرة.

أسأل الله لأمير المؤمنين في غابر أموره، أحسن ما عَوَّدَهُ في سالفها، من
السلامة التي حرسه بها من المكاره، والعز الذي قهر له به الأعداء، والنصر
الذي مَكَّنَ له في البلاد، والهدى الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي
أَدْرَّ له به الحَلَب، والاستصلاح الذي اتسقت له به الرغبة، حتى يكون بما
أعطاه من ذلك، وما هو مستقبل به، أبعد خلفائه ذكراً، وأبقاهم في العدل
أثراً، وأطولهم في العمر مدّة، وأحسنهم في المعاد منقلباً.

أسأل الله لأمير المؤمنين نعمة لا تزول، وكرامة لا تنفد، وعزاً لا يضام،
ونصراً لا يغلب، وكفايةً ينتظم بها جميع الصلاح، حتى لا يكون بأول من
ذلك أسعد منه بآخر، ولا بماضٍ أسرَّ منه بمستقبل.

أسأل الله لأمير المؤمنين في عاقبة كل نعمة أفضل ما وهب له في عاجلها،
حتى يجعل كل نعمة أنعم بها عليه، وكرامة حازها له، موصولة بالتمام،
محوطة بالحفظ، مكلوذة من الغير، ممدودة إلى طول غايات البقاء؛ لا يشوب
صفوها كدر، ولا سلامتها غير، ولا سرورها تنغيص؛ وهنأ الله أمير

المؤمنين الظفر، وأدام له عادة النصر والتمكين الموضح، وحجته المدحضنة لحجة أعدائه، والغلبة المظهرة لحقه، المجتاحة لمن خالفه؛ ثم لا برحت نعمة الله راهنة بمثله في الأولياء نصراً، وفي الأعداء إباحةً، وفي الناكثين تنكيلاً. سرَّ الله أمير المؤمنين بما أهدى له من كفايته، وحاطه به من منعته، وأيده به من نصره، وجعله وما استرعاه من دينه وسلطانه، في كنفه الذي لا يُستباح وتحت يده المانعة وجناحه المحفوظ.

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْذِي به عيون أعدائه في تمكينه وتوهمينهم، ونصره وخذلانهم، وإعزازه والمجاهدة لهم؛ ولا زالت نعمة الله تزيده في قوة الظفر، وعزة النصر، وتفد من آفاق الأرض بالبشارات والفتوح، حتى تملأ له ما بين طرفي ملكه أمناً وعزاً، ويملاً به قلوب أعدائه خوفاً ورعباً، ويعدهم على خلافه سطوةً وتنكيلاً.

أحمد بن يوسف

وهنا الله أمير المؤمنين نعمة، وملأه كرامته، وأولى له فتوحه، وأدام إعزازه، وتولَّى حياطته وكفايته، فيما دنا منه وما غاب عنه، وأطال بقاءه والامتناع به.

(٤) مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

تهنئة خليفة بظفر

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين مع الغلبة الحجة، ومع الظفر المعذرة، وجمع لعدوه مع الذل السطوة، ومع دحوض الحجة النكال؛ فلم يجمعه والناكثين موطن من مواطن الصبر، إلا جعل الحجة عليهم فيه، ولسان العذر فيه معه، ويد الظهور فيه له؛ ثم وهب له عند الظفر من الشكر، وعند الفلج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مستوجباً لما أصفاه

به، معرّفًا بأن العذر منقطع ممن نكبه، وأن مستزاد الحجة ومطلب السلامة، في التمسك بطاعته ومناصحته، والمجاهدة دونه.

وفي مثله: أدام الله لأmir المؤمنين السرور بما يُقْذِي به عيون أعدائه.

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم بعد فتح عمورية

الحمد لله الذي تَمَّ لأmir المؤمنين غزوته، فأذَلَّ بها رقاب المشركين وشفى بها صدور قوم مؤمنين؛ ثم سهَّلَ الله له الأبوة سالمًا غانمًا، وكذا وكذا؛ وليهنئه ما كتب الله له، مما أحصاه فلا ينساه، ليقفه به موقفًا يرضاه، فإنه عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ التوبة: ١١١ الآية، فطوى الله لأmir المؤمنين نازح البعد برًّا وبحرًا، ووقاه وصَبَ السفر سهلاً ووعراً، وحاطه بحراسته كالئًا، ودافع عنه بحفظه راعياً؛ حتى يؤديه إلى المحل من داره، والوطن من قراره؛ وجزاه عن الإسلام خاصة، وعن رعيته كافة، بتخيره مستخلفاً عليهم، وقائماً مقامه فيهم هارون ابن أمير المؤمنين؛ فقد استخلفه رفيقاً شفيقاً، حليماً وقوراً، يقظان ساكناً؛ لم يشذب عليه أمر، ولم ينتشر عليه طرف، ولم يَضِعْ معه سبيل، ولم يُسَخِّطْ ولياً مكانفاً، ولا عدواً مخالفاً، بلا سيف أشرعه، ولا سور أقرع به؛ فمَثَّلَ جزاء أمير المؤمنين في تخيره إياه، فجزاه الله على ما حفظ من وصاته، على محمود مقامه، إنه مجيب الداعي.

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يهنئه بخضر

بلغني — فتح الله عليك — خروج ابن السري إليك، فالحمد لله الناصر لدينه المعز لوليه وخليفته على عبادته، المذل لمن صد عن حقه ورغب

عن طاعته؛ ونسأل الله أن يظاهر النعم ويفتح بلدان الشرك به؛ والحمد لله على ما والاك منذ ظننت لوجهك، فإننا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك، ونكثر التعجب لما وفقت له، من وضع الشدة والليان بموضعهما، ولا نعلم سائر جند ولا رعية عدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك.

تهنئة خليفة بحج

أصلح الله أمير المؤمنين وأراه من الزيادة في نعمه، ما يكون تمامًا لما ابتدأه به من فضله؛ والحمد لله على ما خص به أمير المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل في نيته، وجعله يستعين على دينه، بما بسط له في دنياه، ويحمل على بدنه النَّصَب فيما يتقرب به إليه؛ فيجفو عن دعتة على لينها، ويشخص عن طمأنينته على فضلها، إثارًا لآخرته، وأداء لحق ربه؛ بادر له بذلك ليكرمه به، ثم يستعمل فيه نفسه، تقربًا إليه، فيسعده بالإذن في ذلك حين كان من الله له، وبالعمل فيه حين كان لله منه؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له، دليلًا على قبوله الخير عنه حين يعمل لربه؛ وكان من ذلك ما أذن الله لأmir المؤمنين في زيارة نبيه ﷺ العام، وموافاة مشاعره العظام، في وقتها من الأيام، التي لا توافي إلا معها، ولا تكون مناسكه إلا فيها؛ فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه، وخرج منه بقضاء نسكه، أجرًا عقده الله عليه في ابتدائه، ثم أتمه له باستيفائه.

ولمحمد بن مكرم تهنئة لحاج

بلغك الله الرضا في أملك من نُجح كل حاجة وإبلاغ كل أمنية، وتقبُّل كل دعوة خصصت بها نفسك أو عممت بها أحدًا من أهلك، في مجامع

وفوده، ومعتزل قراره، فكنت شافع من شاهدك، ووافد من غاب عنك، يستفتح بدعائك، ويرجّي بركة محضرك، والقربة إلى الله عز وجل بفضل جاهك.

تهنئة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية، لنا خاصًا وإلينا واصلًا.
آخر: ولم تتخطني النعمة إذ أصابتك، ولم تتعدني إذ دخلت بك، ولم أخل من لازم شكرها، وما يُنفلك الله منها، إذ قلّدتها، اعتدادًا بكل ما طوّقت من المنن، وإيجابًا على نفسي ما حملت من الشكر.

ولسعيد بن حميد إلى بعض إخوانه

سرّك الله بتتابع نعمه، وترادف إحسانه، وزادك من فواضل أقسامه.
بلغني — أكرمك الله — ما وهب الله لك من سلطانك، فقواك الله على ما استرعاك. ورزقك الشكر على ما أولاك.

وفي مثل ذلك: أكمل الله لك السعادة، وزادك في الكرامة، وخصك بدوام النعمة. بلغني ما وهب الله لك من سلطانك، فسُررت به، وسألت الله إتمام نعمه عليك فيه بتأييدك، وتوفيقك للعدل في سيرتك، وغرس المحبة لك في قلوب رعيّتك، وأن يعينك عليه، ويرزقك السلامة في الدين والدنيا.

وله في مثله: أنا أهني بك العمل الذي وُلّيته، ولا أهنتك به، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب، ويصدره مصادر الحجة، ويصونه من كل خلل وتقصير، ويمضيه بالرأى الأصيل، والمعرفة الكاملة، قرن الله لك كل نعمة بشكرها، وأوجب لك بطوله المزيد منها، وأوزعك من المعرفة بها ما يصونها من الفتن، ويحوطها من النقص.

آخر: قد وُلِّيت من العمل ما أسأل الله عز وجل أن يرزقك بركة بدئه وعاقبته، ويعطيك الرضا ممن وليت له وعليه.

آخر: هنَّاك الله هذه النعمة المقبلة، الدالُّ أولها على تمامها، وأوزعك شكرها.

آخر: أسعدك الله بهذه الولاية وجعلها مباركة، تنتقل بظل السلامة منها، ونيل الكفاية فيها إلى أَمَلِك بنهايته ورجائك بغايته، ورزقك السلامة ممن وَلِّيت له وعليه.

آخر: سرَّك الله بما جدَّد لك من هذه المنزلة، ونفعك بهذه الولاية، وأرضى عنك من وليت له ومن وليت عليه.

وكتب محمد بن مكرم إلى أحمد بن دينار

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من جميل أثرك فيما تلي من أعمالك، وزمَّك إياها بحزمك وعزمك، وانتياشك^(٣٨) أهلها من جور من وليهم قبلك، وسرورهم بتناول أيامك والكون في ظل يدك وجناحك، في إعانة من تخصه وتعمه نعمتك، وتحول به الحَوْل حيث حالت بك؛ فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك، ولم يَرُدُّ علينا آمالنا فيك منكوسة، كما رَدَّها على غيرنا في غيرك. ولوددتُ أن أباك كان عاين آثارك هذه ومناقبك، وإن كان الافتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خَلَفَهُ، وألقى إليك بأمره ومعاقده ثقته، وجعلك موضع اختصاصه وأثرته، وصرف ذلك عمَّن كان لا يستحقه، وذمَّ سالف رأيه فيك وفيه وحمد آخره، ثم نعمة اتصلت لك بما قبلها، انتظمت بها أمورك فاعتدلت، وتلاحمت عليها واتسقت، ما منحت في كاتبك، ومستقر ثقتك، وحامل أعبائك، من الكفاية والنصيحة، ووضع

عن قلبك مئونة التهمة والقص لأثره، وإدخاله راحة الطمأنينة إليه وروح الثقة به، لا كما ابتلي أخوك، فإنه صحبه فخلط عليه أمره، وأفشى أسرارهِ إلى صاحب بريده، فأنفل ذلك بينهم، وقطع حبالهم، حتى هجنت آثاره مع حسنِها ووضوحها، وصفرت يده من حظ عمله، ولزِمه الذم من أهله؛ فهذه كُتِبَ إليَّ، في اطراح نصيحة له كانت فيه، ويسألني أن أشخص إليه كاتبًا يحمل ثقله، ويفتح له ما أرتجيه من أمره. وهذا من سعادة جدك، ويؤمن طائرُك، وإقبال الأمور إليك، وسعيها على طريق موافقتك، وهنيئًا هنالك الله نعمه خاصها وعامها، وأوزعك شكرها، وأوجب لك بالشكر أحسن المزيديها.

تهنئة بعزل

كتب رجل إلى مالك بن طوق لما عُزل عن عمله:
أصبحتَ — والله — فاضحًا متعبًا: أما فاضحًا فلكل والٍ قبلك بحسن سيرتك؛ وأما متعبًا فلكل والٍ بعدك أن يلحقك.

فصل

سواء علينا أوليت أم صُرفت، إنا لنشهد بك الولاية، بما بسط الله من يدك ببذل العُرف، ونهنئك بالعرف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميل؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عملاً وأنت محلٌّ له، ولا أن تصحبه وليس به فاقة إليك. فهنالك الله النعمة، وأعانك على الشكر، وأيدك بالمزيد.

تهنئة بعزل عامل عن عمله

بلغني صرفُك، فخار الله لك، وهنالك لطيف نظره وجيليل إحسانه، فأني أرى الرجل عند خروجه من العمل سالمًا نقيًا من مآثمه ودنسه، أولى

بالتهنئة منه عند دخوله فيه، وأرى الدعاء له عند بدء تلبسه به بالخلاص منه معصوماً بريئاً من تبعاته ورواجع آثامه، أولى بمن عني به وأحبّ صلاحه، ولذلك قدمتُ تهنيتك.

ولسعيد بن حميد في مثله إلى بعض إخوانه: حفظك الله بحفظه، وأسبغ عليك كرامته، وأدام إليك إحسانه. إن سروري بصرفك، أكثر من سرور أهل عملك بما خُصوا به من ولايتك. وقد كنتَ — أعزك الله — فيما يُربأ بك عنه، بما أنت عليه في قدرك واستئهاك؛ ولكننا رجونا أن يكون سبباً لك إلى ما تستحق، فطَبْنَا نَفْسًا بِالذِي رَجَوْنَا. فالحمد لله الذي سَلَّمَكَ مِنْهُ، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك، بتبليغك أملك وآمالنا فيك، وشفاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب؛ ثم خَصَّكَ اللهُ بِجَمِيل الصنع، وبلغك غاية المؤمنين. إن من سعادة الوالي - حفظك الله - وأعظم ما يُخَصُّ به في عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم، ونوائب الدنيا وشرها، والعاقبة مما يُخَافُ مِنْهَا؛ وقد خَصَّكَ اللهُ مِنْهَا بِمَنْهُ وَطَوَّلَهُ مَا نَرْجُو أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لَكَ إِلَى نَيْلِ مَا تَسْتَحِقُّ مِنَ الْمَرَاتِبِ. وَاللَّهُ نَسْأَلُ إِيزَاعَكَ شُكْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ، وَتَبْلِيغَكَ غَايَةَ أَمْلِكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ.

آخر: ما أحسن ما كشفتُ عنك الولاية! وأجمل ما أبرز منك العمل! قد كَسَبَكَ اللهُ حَمْدَ وَلَايَتِكَ وَعَزَلَ عَنْكَ لَائِمَتَهَا، بِمَا انْتَشَرَ عَنْكَ مِنْ عَدْلِكَ، وَظَهَرَ مِنْ مَعْرِفَتِكَ، فَإِذَا سَاءَكَ هَذَا فَلْيَسْرَرْكَ.

وكتب محمد بن مكرم إلى إبراهيم بن المدبر: الحمد لله رب العالمين حمداً يجوز حمد الحامدين، الذي جعل قضاءه خيرة لك؛ فإن زادك نعمة وفقك لشكرها، وإن امتحنك ببلوى من نفث حاسد أو كيد كائد، أنار برهانك

وأفلح حجتك وجمع بين وليك وعدوك في الشهادة لك؛ وإن نقل أمرًا عن يدك، فربما يرجعه إليك مختلاً لفقدك. هذا إلى ما جعل عندك من خواص النعم التي إن ذكرناها فأطنبنا أو تجوزنا فقصرنا، كان غايتنا إلى الحسور دون مدى غايتك. وقد زادك الله بهذا الحادث فضلاً عظيماً، لما ظهر من وله العامة إليك وتطلعها إلى ما كانت فيه: من لين إنصافك وكريم أخلاقك، ووحشة الخاصة لما فقدت من حسن معاملتك وكثير تفضلك. وأيقن أهل الرأي والتأمل لصفحات الأمور، أن كل ما خرج عنك فعائد إليك ومتصل به غيره، حتى تستقر في يدك عرى الأمور ومعاقدها، وتفتح برأيك وتدبيرك أبوابها ومغالقها، فليهنك أن كل ما زاد غيرك نقصاً زادك فضلاً، وكل ما نقص من الرجال وحطها ألحق بك شرفاً. فزادك الله وزادنا منك، وجعلنا ممن يقبله رأيك، ويقدمه اختيارك، ويقع من الأمور بموافقتك، ويجري منها على سبيل طاعتك.

وكتب سعيد بن حميد إلى بعض إخوانه: جعلني الله من السوء والمكروه فداءك، وأطال في الخير والسرور بقاءك، وأتم نعمه عليك، وأحسن منها مزيدك، وبلغك أقصى أمنيته، وقدمني أمامك، وقد بلغني ما اختار الله لك، فسررت من حيث يغتم لك من لا يعرف قدر النعمة عليك، ولا يراك بعين استحقاقك. ولئن ساءني ما ساء إخوانك من عزلك، لقد سرني ما يسر الله لك. والحمد لله الذي جعل انصرافك محموداً، وقضى لك في عاقبتك الحسنى، وأقول:

لِيَهْنِكَ أَنْ أَصْبَحْتَ مُجْتَمَعَ الْحَمْدِ وَرَاعِي الْمَعَالِي وَالْمُحَامِي عَنِ الْمَجْدِ
وَأَنَّكَ صُنْتَ الْأَمْرَ فِيهَا وَلَيْتَهُ ففَرَّقْتَ مَا بَيْنَ الْغَوَايَةِ وَالرُّشْدِ

فلا يَحْسَبُ البَاغُونَ عَزْلَكَ مَغْنَمًا فَإِنَّ إِلَى الإِصْدَارِ عَاقِبَةَ الْوَرْدِ
وما كنتَ إِلَّا السَّيْفَ جُرِّدًا لِلْوَعَى فَأَحْمَدَ فِيهَا ثُمَّ رُدَّ إِلَى الْغَمَدِ

وقد قال الأول:

فمن يَكُنْ بورود العَزْلِ مُكْتَتَبًا فَإِنِّي بورود العَزْلِ مَسْرُورٌ
بعدَ الْوَلَايَةِ عَزْلٌ يَسْتَبِينَ بِهِ طَوْلُ الْوَلَاةِ وَبَعْدَ الْعَزْلِ تَأْمِيرٌ

أما ما عندي مع تصور العاقبة لك في نفسي، فيمسنني في أمرك في حال المحنة ما يخصني منه في وقت تجدد النعمة. وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندي ما أجده لك في نفسي. فلا زلت في نعم متتابعة متجددة، ولا عدمت الثروة والزيادة؛ وبلغك الله أقصى أملك، وأمل أخيك لك، وكبت أعداءك، وجعلني وقاءك المقدم عنك. أحب أن تشرح لي صورة الأمر الإلزام تأدّت، وكيف كان الابتداء؛ فإني لا أشك أنها حيلة ونية من عز الصاحب الجليل القدر؛ ولها عاقبة منه إن شاء الله محمودة، وتفضي من ذلك إلى ما تسكن إليه نفسي، إن شاء الله.

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليُمن فليكن هذا البناء، وبأسباب السعادة فليتصل عقد هذا الاجتماع، وبكل ذكاء الولد، وثروة العدد، فلتَجِرْ لك الأقدار، وفي أطول غايات البقاء فلتدُم هذه الغبطة والسرور.

تهنئة بتزويج

بلغني تزوجك من فلانة، فبالرفاء والبنين، تهنئة السلف الصالحين، ومبلغ سنّة المجتهدين المتبحرين، ونقول على يمين الطائر، وسعادة الجد،

ونماء العدد، واتفاق الهوى، وطيب المناسمة، واجتماع الشمل، وثبات الريع، وتملي النعم. أسأل الله الذي قضاها أن يجعلها لك سكناً ويجعلك لها شجناً، وأن يؤخر حمامها إلى انتهاء نفسك عنها، وجعلك جائزاً تربها، ووليت المال وهناء العيش وملاهاة الغواني بعدها.

تهنئة لغسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغني جمع الأمير أهله على الحال التي جمعهم عليها من نعمة الله عليه. فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة. فأسأل الله أن يجعل الطائر في ذلك ميموناً، والشمل مجتمعاً، والبركة عظيمة، والأمر سليمة؛ وكذلك فقد عظم الله القسم منه لزوجته، جعل الأمير سكناً لها، وأجرى المودة والرحمة بينهما، فإنه يقول عز وجل: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم: ٢١. فلما كان الأمير هو المنظور إليه، وهي المنظور إليها، اختارها الأمير لنفسه واختار نفسه لها، وأراد الله عز وجل أن يزيدها مع فضلها في نفسها فضلاً باختيار الأمير إياها، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها؛ فكان ذلك فضلاً من الله زينته بفضل، وكرامة من الله وصل بعضها ببعض. فترغب إلى الله عز وجل في أن يزيد الأمير في كل سعة مبسوطة، ونعمة مقسومة، ويعطيه في ذلك شكراً يكون لرضاه موجباً، كما أعطاه فضلاً كان الشكر له به واجباً؛ ثم يملئ الأمير ذلك بأحسن ما ملئ أحداً من خلقه كرامة اصطنعها عنده.

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي إلى المأمون يهنئه بمولود له:
قد كان أجذلي ما أحدث الله لأمير المؤمنين من الموهبة التي ليس - وإن

كان أولى بها من غيره - بأعظم فيها حظاً من رعيته. فعمر الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يشد بهم عضدك، ويسد بهم ثلمتك، ويبلغهم الغاية المأمول لهم بلوغها بعدك، غير مقعد بك مهل، ولا محل بك أجل، ولا مكذبك أمل، ولا منقطعة أيامك، حتى تحترم أنفسنا قبلك.

وكتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له:

بارك الله في مولودك الذي أتاك، وهناك نعمته بعطيته، وملاك كرامته بفائدته، وأدام سرورك بزيادته، وجعله باراً تقيّاً، ميموناً مباركاً زكياً، ممدوداً له في البقاء، مبلغاً غاية الأمل، مشدوداً به عضدك، مكثراً به ولدك، مداً به سرورك، مدفوعاً به الآفات عنك، مشفوعاً بأكثر العدد، من طيب الولد.

وله في مثل ذلك:

هناك الله هذه الفائدة التي أفادكها، وبارك الله في الهبة التي رزقكها، وشفعها بإخوة متواترين، يسرونك في حياتك ويخلفونك في عقبك.

كتب رجل إلى رجل يهنئه بمولود:

جعلت فداءك، للبقاء مولودك، في السناء نباته، وفي اليمن شبابه، وعلى البركة ميلاده.

كتب الحسن بن سهل إلى ذي الرياستين:

إنه ليس من نعم الله، وفوائد قسمه - وإن خُصَّ موقعها ووجب شكرها نعمة تعدل النعمة في الولد، لنمائها في العدد، وزيادتها في قوة العضد، وما يُتَعَجَّلُ به من عظيم بهجتها، ويُرجى من باقي ذكرها في الخلف والأعقاب، ولاحق بركتها في الدعاء والاستغفار. وإن الله قد أفادك وأنالك غلاماً

سريًا، سمّيته فلانًا، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين. فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذي أظهرنا الله به على عدو الدين والمسلمين من دلائل بركته ويمنه، وشواهد سعادته والسعادة به. فبارك الله لأمر المؤمنين في طارف نعمه وتالدها، وشفّع له قديم مننه بحادثها، ورزقه ذكورًا طيبين مهذبين، يأنس بهم ربه، ويتصل بهم نجاحه، ويجعلهم ذرية زاكية، وبقية صالحة.

آخر: بلغني الذي وهب الله لك، فجعله الله ذخراً سنياً، وعقباً كريماً.

عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل

أما بعد، فإن هبة الله لك هبةٌ لأمر المؤمنين، وزيادته إياك في عدده لمحللك عنده ومكانك في دولتك من دولته. وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاماً سرياً، فبارك الله لك فيه، وجعله باراً تقيّاً، مباركاً سعيداً زكياً.

تهنئة بمولود

الحمد لله الذي رضي منا بيسير القول عند عظيم النعمة، حمداً نستوجب به بقاء هذه الموهبة للنماء والفائدة؛ فإن نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة، فقد كان ما يقبض الأمل منّا ذكر انفراد الأمير بنفسه وقلة نسله، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بفوات الأجل، ومن دثور الأنام، بواقع الحما، وقد أصبحنا من الله من يدين في فسحة المهل، ومدّه مواقع الأجل، لمن أراد فيه موضع أملنا في حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره.

تهنئة بمولود

سرورك سرور يخصني منه ما يخصك، وتلبسني فيه النعمة ما تلبسك، والحمد لله على النعمة فيك وعندك.

كتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود:

أما بعد، فقد بلغني من متجدد نعم الله عز وجل عليك، وإحسانه إليك فيما رزقك من الهبة ما اشتد جذلي به، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله؛ ولذلك أقول:

قد شُفِعَ الواحد بالوفد وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسدِ
أبا حُسَيْنٍ قَرَّ عَيْنًا بِهَا أَعْطِيته من هِبَةِ المَاجِدِ
قد قَلْتُ لَمَّا بَشَّرُونِي بِهِ بُورِكَ في المولودِ للوالِدِ
إنَّا لَنرجو وafdًا مثله والطائرُ الميمونُ للوفدِ

وله إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود:

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورًا وفرحًا، إلا كنت به بهجًا، أعتد فيه بالنعمة من الله الذي أوجب علي من حَقِّكَ وعَرَّفَنِي من جميل رأيكَ. فزادكَ الله خيرًا، وأدام إحسانه إليك. وقد بلغني أن الله وهب لك غلامًا سرّيًّا، أكمل لك صورته، وأتم خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتد سروري بذلك، وأكثرت حمد الله عليه. فبارك الله فيه، وجعله بارًّا تقِيًّا، يشد عضدك، ويكثر عددك، ويقر عينك.

وكتب إسحاق بن يحيى إلى بعض إخوانه يهنئه بابنة له:

ربَّ مكروه أعقب مسرَّةً، ومحجوب أعقب معرَّةً. وخالق المنفعة والمضرة، أعلم بمواضع الخيرة.

كتب ابن المقفع إلى صديق له ولدت له جارية:

بارك الله لك في الابنة المستفادة، وجعلها لكم زينًا، وأجرى لكم بها خيرًا، فلا تكرهها؛ فإنهن الأمهات والأخوات، والعَمَّات والخالات،

ومنهن الباقيات الصالحات؛ ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم.

وكتب عبد الحميد بن يحيى إلى أخ له في مولود ولد له وهو أول مولود كان؛

أما بعد، فإن مما أتعرف من مواهب الله، نعمة خُصّصت بمزيتها، واصطفيتُ بخصيصتها، كانت أسرّي من هبة الله ولدًا سمّيته فلانًا، وأمّلت ببقائه بعدي حياة وذكرى، وحسن خلافتي في حرمتي، وإشراكه إياي في دعائه، شافعًا إلى ربه عند خلواته في صلاته وحجه، وكل موطن من موطن طاعته، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدي وظهر به سروري، وتعطف عليه منه أنه الولد، وتولّت عني به وحشة الوحدة، فأنا به جذل في مغيب مشهدي، أحاول مس جسده بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يعدله عندي عظيما الفوائد، ولا منفسات الرغائب. سرّني به واهبه لي على حين حاجتي، فشد به أزري، وحلّني من شكره فيه ما قد أدني بثقل حمل النعم السالفة إليّ به، المقرونة سراؤها في العجب بقدر ما يدركني به من رقة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووجلاً من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذي امتن علينا بحسن صنعه في الأرحام، وتأديته بالزكاء، وحرسه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حمّلنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته والمدة في عمره موصولاً بالزيادة، معروفاً بالعافية، محوطاً من المكروه، فإنه المنان بالمواهب والواهب بالمنى، لا شريك له. حمّلني على الكتاب إليك لعلم ما سرّرت به علمي بحالك فيه وشركك إياي في كل نعمة أسداها إليّ ولي النعم. وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جل ذكره. والسلام عليك.

تهنئة بنقلة إلى دار جديدة

تناهى إليّ نقلتك إلى الدار التي أرجو أن يجعلها الله نقلة المكروه عنك، ونقلة السرور إليك، ودوام نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة، ووصل نعمه فينا عندك ونعمه عندنا فيك.

تهنئة لمحمد بن مكرم إلى نصراني أسلم

أنا أقول الحمد لله الذي وفّقك لشكره، وعرفّك هدايته، فطهر من الارتياح قلبك، ومن الاقتراء عليه لسانك. وما زالت مخيلتك ممثلة لنا جميل ما وهب الله لك، حتى كأنك لم تزل بالإسلام موسومًا، وإن كنت على غيره مقيمًا، وكنا مؤملين لما صرت إليه، مشفقين لك مما كنت عليه، وإذ كاد إشفاقنا يستعلي رجاءنا، أتت السعادة بما لم تزل الأنفس تعد منك. فأسأل الله الذي نورّ لك في رأيك وأضاء لك سبيل رشدك، أن يوفّقك لصالح العمل، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار.

هوامش

- (١) نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور.
- (٢) الجديلة: الناصية والحالة والطريقة.
- (٣) بياض في الأصل، ولعله: أن أقنع نفسي بفضل أتخذه بمثل ما أقنع رجلاً إلخ.
- (٤) على أذلالها: على وجوها وطرقها.
- (٥) بياض في الأصل، ولعل الكلمة المتروكة «بحاجتي». والظاهر أن كلمة «محدد» محرفة عن كلمة «مجد».
- (٦) كذا بالأصل.
- (٧) في الأصل «حظة» والسياق يقتضي ما أثبتناه.
- (٨) بياض في الأصل، ولعل الكلمة المتروكة «وأتى».
- (٩) بياض في الأصل. وما وضعناه يناسب المقام.
- (١٠) بياض في الأصل. وما وضعناه يناسب المقام.

- (١١) السياق يقتضي وضع هذه الكلمة، وهي متروكة في الأصل.
- (١٢) في الأصل: «... وسراه ما قبله...».
- (١٣) في الأصل: «عليها...» وهو لا يؤدي الغرض المراد.
- (١٤) في الأصل: «وأجزلنا...».
- (١٥) في الأصل: «ما قبلك».
- (١٦) في الأصل: «وأملكها...».
- (١٧) في الأصل: «مخافة السلامة من الناس...».
- (١٨) في الأصل: بياض.
- (١٩) في الأصل: «فالاستراحة...».
- (٢٠) في الأصل: «ولا مكدر عليها صفوها...».
- (٢١) هكذا وردت في الأصل.
- (٢٢) الفلج: الغلب والظفر، يقال فلج فلان على خصمه؛ أي غلب وظفر.
- (٢٣) في الأصل: بياض. وفي العبارة اضطراب ظاهر.
- (٢٤) الاستشلاء: الإنقاذ.
- (٢٥) بياض في الأصل. وما أثبتناه يناسب المقام.
- (٢٦) هكذا وردت في الأصل، ولم نوفق إلى تحقيقها.
- (٢٧) كذا في الأصل، ولعلها بالعتين.
- (٢٨) كذا في الأصل، ولعلها وليشجب.
- (٢٩) أبأخ النار: أطفأها.
- (٣٠) الصيال مصدر صال على قرنه: سطا عليه.
- (٣١) في الأصل: «بخبرهم».
- (٣٢) في الأصل: «برأس عدو الله».
- (٣٣) بياض في الأصل والسياق يقتضي ما أثبتناه.
- (٣٤) الوقم: القهر والذلة.
- (٣٥) سقطت في الأصل كلمات فأثبتنا ما يقوم مقامها.
- (٣٦) سقطت في الأصل كلمات فأثبتنا ما يقوم مقامها.
- (٣٧) في الأصل المنازل، وما أثبتناه صحيح.
- (٣٨) انتياشك أهلها: استنقاذهم.

باب المنظوم

(١) أبو نواس

كان أبو نواس^(١) ينادم ولد المهدي ويلازمهم، فلم يُلَفَّ مع أحد من الناس غيرهم، ثم نادى القاسم بن الرشيد ولقي منه أشياء كرهها وكُرِهت له، ففارقه. ثم جلس أبو نواس إلى الناشئ الراوية فقراً عليه شعر ذي الرمة، فأقبل الناشئ على أبيه هانئ وقال له: إن عاش ابنك هذا وقال الشعر ليقولنَّه بلسانٍ شتوم.

ثم اتصل بوالبة بن الحباب الأسدي، لقيه بدار النجاشي الأسدي والي الأهواز للمنصور، فقال له والبة: إني أرى فيك مخايل فلاح، وأرى أنك لا تضيعها، وستقول الشعر وتعلو فيه، فاصحبني حتى أخرجك؛ فقال: ومن أنت؟ قال: أبو أسامة. قال: والبة؟ قال: نعم. قال: أنا والله — جعلت فداك — في طلبك، وقد أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك! قال: ولماذا؟ قال: شهوة للقائك ولأبيات سمعتها لك. قال: وما هي؟ فأنشده:

ولها	ولا	ذنبٌ	لها	حبٌّ	كأطرافِ الرِّماحِ
جرحتُ	فؤادي	بألهوى	فالقلبُ	مجروحِ	النواحي
سلَّ	الخليفةُ	صارماً	هو	للفسادِ	وللصلاحِ
أجداه	كفُّ	أبي	الولي-	يداً	مُبَارِيَةِ
ألقى	بجانبِ	خَصْرِهِ	أَمْضَى	من	الأجلِ
وكانما	ذَرَّ	الهباءَ	عليه	أنفاسُ	الرياحِ

فمضى معه، ثم سألَه أن يخرج إلى البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنة؛ ثم قدم ففارق والبة ورجع إلى بغداد.

وكان أبو نواس متكلمًا جدلاً راوية فحلاً، رقيق الطبع ثابت الفهم في الكلام اللطيف. ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره، منها قوله:

وذا ت	خد	مورّد	قوهيّة	المتجرّد
تأمل	العين	منها	محاسناً	ليس تنفد
فبعضه	قد	تناهى	وبعضه	يتولد
والحسن	في كل شيء	منها	معاد	مردد

ومنها قوله

يا عاقد القلب عني	هلا	تذكرت	حلا
تركت غي	قليلا	من	القليل
يكاد لا	يتجزى	أقل	في اللفظ من لا

ومنها قوله في امرأة اسمها حسن:

إن اسم حسن لوجهها صفة	ولا أرى ذا في غيرها جعاً
فهي إذا سُميت فقد وُصفت	فيجمعُ الاسم معينُ معاً

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة:

قل لزهر إذا حداً رشداً	أقل أو أكثر فأنت مهذار
سَخُنْتَ من شدة البرودة حتى	صرتَ عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي	كذلك الثلج بارد حار

هذا شيء أخذه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فإنهم يقولون: إن الشيء إذا أفرط في البرودة انقلب حاراً، وقالوا: إن الصندل يحك منه اليسير فيبرد، فإذا أكثر منه سخن.

قالوا: كان أبو نواس دعيًّا يخلط في دعوته. فمن ذلك قوله يهجو عرب البصرة:

ألا كل بصريّ يرى أنها العلا	مُكَمَّهَةٌ سُحْقٌ لَهْنٌ جَرِينٌ ^(٢)
فإن تغرسوا نخلاً فإن غراسنا	ضرابٌ وطعنٌ في النحور سَخِينٌ
فإن أكُ بصريًّا فإن مهاجري	دَمَشَقٌ وَلَكِنَّ الْحَدِيثَ فَنُونٌ
مجاور قوم ليس بيني وبينهم	أَوَاصِرٌ إِلَّا دَعْوَةٌ وَظَنُونٌ
إذا مادعا باسمي العريف أجبته	إلى دعوة مما عليّ تَهُونٌ

ثم هجا اليمـن في هذه القصيدة بقوله:

لأزد عُـمَّانَ بالمهـلَبِ نَزْوَةً	إذا افتخر الأقوام ثمّ تـلـين
وبكر ترى أن النبوة أنزلت	على مِسْمَعٍ في الرَّحْمِ وهو جـنـين
وقالت تميم لا نرى أن واحداً	كأحنفنا حتّى الممات يكون
فما لمت قيساً بعدها في قُتيبة	وفخر به إن الفخار فنون

وإنما نشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قبل ولا بعد.

ومما هجا به اليمـن أيضاً قوله لهاشم بن حُديج:

وردنا على هاشم مصره فبارت تجارتنا عنده

يقول فيها:

رأيتك عند حضور الخوا	ن شديداً على العبد والعبد
وتحتد حتى يخاف الجلب	س شذاك عليه من الحد

بكنْدَة فاسلُح على كنده
ولكنَّها زمنَ الرَّدَّة
سوى قتلِكُم صهره بعده
كعدَّ الأهلَّة معتدَّة
بحمل لظهر ولا رشده
ح لما محشت نارُكم جلده^(٣)

وتختم ذاك بفخر عليه
فإن حُدِيًّا له هجرة
وما كان إيمانكم بالرسول
تُعدُّونها في مساعيكم
وما كان قاتله في الرجال
فلو شهدته قريشُ البطا

وقوله أيضًا:

ولا نواطقُ من طير ولا خُرس
مثل القَلَمَس لم يعلَق بك الدَّنَس
ومن قُضاة أسرى عنده حُبس
فلم ينل مثلها من مثلهم أنس
هيهات منك حوى حين يلتَمَس
في جَحْفَل لَجِب الأصوات يرْتَجِس
إذ قيل أشرف ترالأوداج تنبجس
وكيف بُعدل غير السوءة الغرس

ما منك سلمى ولا أطلالها الدُّرس
يا هاشمُ بن حديج لو عددت أبا
إذ أصبح الملك النعمانُ وافده
فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا
أو رحت مثل حوى في مكارمه
أو كالسَّموئل إذ طاف الهمامُ به
فاختار ثكلًا ولم يغدر بدمته
ما زاد ذاك على تيه خُصِصت به

وقوله:

بقتل صهر رسول الله بالسَّدَد
فبَس ما قَدَمْتُ أيديكم لغد
حُجْرًا بدارة مَلُحوب بنو أسد
طرد النعام إذا ما تاه في البلد

يا هاشمُ بن حديج ليس فخرُكم
أدرجتُم في إهاب العير جثته
إن تقتلوا ابن أبي بكر فقد قتلت
وطردوكم إلى الأجبال من أجأ

وقد أصاب شرًا حيلًا أبو حشش
ويوم قلتم لزيد وهو يقتلكم
وكل كندية قالت لجارتها
ألهى امرأ القيس تشبيب بغانية
يوم الكلاب فما دافعتُم بيد
قتل الكلاب لقد أبرحت من ولد
والدمع ينهل من مشى ومنفرد
عن ثاره وصفات النوء والوتد

وقد رثى أبو نواس خلفًا الأحمر بعد موته بقصائد من شعره، منها قصيدته التي أولها قوله:

لو كان حيًّا وائلا^(٤) من التلّف
أم فريخ أحرزته في لجف^(٥)
كأنه مستقعد من الخرف
تروغ في الطباق^(٦) والنزع الألف
من لا يعد العلم إلا ما عرف
كنا متى نشاء منه نعرف
لوألت شغواء في أعلى شعف
مزعج الأغاد لم يأكل بكف
هاتيك أو عصماء في أعلى شرف
أودى جماع العلم مذ أودى خلف
قليدم^(٧) من العياليم الخسف
رواية لا تجتنى من الصحف

ومنها قوله يرثيه:

لا تئل العضم في الهضاب ولا
يكنها الجو في النهار ويؤ
تحنو بجوشوشها^(٨) على ضرم
ولا شبوب^(٩) باتت تورقه الد
دان على الأرض والوصيد وفي
ديدنه ذاك طول ليلته
غدا كوقف الهلوك ينهفت الـ
شغواء تغذو فرخين في لجف
ويها سواد الدجى إلى شرف
كقعدة المنحني من الخرف
شرة منها بوابل قصف
بهو أمين الإياد ذي هدف^(١٠)
حتى إذا انجاب حاجب السدف
قطقط^(١١) من منبته والكيف

كأن شَذْرًا وهَتْ معاقده
 وأخدرِي صُلْبَ النَّوَاهِقِ صَدُ
 منفرد في الفَلَاة تُوسعه
 ما ترك الموت من أولى شَبَحًا
 لما رأيتُ المنونَ آخذةً
 بتُّ أعزِّي الفؤَادَ عن خَلْفٍ
 أنسى الرِّزَايا مَيِّتَ فُجِعْتُ به
 كان يُسَنِّي^(١٢) برفقه غُلُقًا
 محبوبُ عنك التي غَشِيَتْ بها
 لا يبهِم الحاءَ في القراءة بالخا
 ولا يُعَمِّي معنى الكلام ولا
 وكان ممن مضى لنا خَلْفًا

بين صَلاَه فملعب الشَّنَفِ
 صال أمين الفُصُوصِ والوُظْفِ
 رِيًّا وما يَخْتَلِيه من عَلَفِ
 بادَتْ بتلك القلال والشَّعَفِ
 كلَّ شديدٍ وكلَّ ذي ضَعَفِ
 وبات دمعي إلا يَفُضَّ يَكِفِ
 أمسى رهينَ التُّرابِ في جَدَفِ
 في غير عِيٍّ منه ولا عُنْفِ
 من قبل حتى يَشْفِيكَ في لَطَفِ
 ء ولا لامها مع الألف
 يكون إنشأه عن الصُّحُفِ
 فليس منه إذ بان من خَلْفِ

واختلف أبو نواس إلى أبي زيد فكتب الغريب من الألفاظ، ثم نظر
 في نحو سيبويه، ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى
 القطان وأزهر السمان وغيرهم، فلم يتخلف عن أحد منهم، وأدرك الناس
 فعلم، ثم قدم بغداد بعد ذلك.

وكان أيضًا ينتزر ويُدعى للفرزدق. ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر
 المازني، فهجاه الحكم وذكر بَرِيَه العود وبغى عليه ونكبه. ولما قال أبو نواس
 قصيدته التي يهجو بها خندف، وهي:

أَلَمْ تَرْبَعْ عَلَى الطَّلَلِ الطَّمَّاسِ
 عَفَاهُ كُلُّ أَسْحَمِ ذِي ارْتِجَاسِ^(١٣)
 وذاري التُّرْبِ مُرْتِكِمٌ حَصَاهُ
 نَسِجَ المِثْ مِعْنَقَةِ الدَّهَّاسِ^(١٤)

سوى سُفَعِ أعارتها الليالي
وأورق حالف المَثَواةَ هاب
منازلُ من عُفَيْرَةٍ أو سُليَمَى
كَأَنَّ معاقِدَ الأوضح منها
وتَبَسُّمٍ عن أغرَّ كأنَّ فيه
فَمَنْ ذا مبلغُ عمرًا رسولاً
فلم أَهْجُرْكَ هجرِ قَلَى ولكن
نوائِبُ تعجزُ الأدباءُ عنها
وقد نافحتُ عن أحسابِ قوم
فإن تَكُ أوقدتُ للحربِ ناراً
سأبلي خيرَ ما أبلى مُحامٍ
وسَمْتُ الوائلينَ بفاقراتٍ
وقالت كاهلٌ وبنو قَعِينٍ
فما بالُ النَّعاجِ ثَغَتْ بِشَتْمِي
وما حامتُ عن الأحسابِ إلا

سوادَ الليل من بعد اغساس^(١٥)
كضاويِّ الفِراخِ من الهُلاسِ^(١٦)
أو الدهماءِ أختِ بني الحِماسِ
بجيدٍ أغنَّ نَوْمٌ في الكِناسِ
مُجَاجَ سُلَافَةٍ من بيتِ راسِ^(١٧)
فقد ذَكَرْتُ وَدَّكَ غيرَ ناسِ
نوائِبُ لا نزالُ لها نُقاسي
ويَعِيَا دونها اللقنُ النُّطاسي
هُمُ وَرَثُوا مكارمَ ذي نُواسِ
فما غَطِيَتْ خوفَ الحربِ راسي
إذا ما النَّبَلُ أَلْجَمَ بالقياسِ^(١٨)
بهنَّ وَسَمْتُ رَهْطُ أَبِي فِرَاسِ
حَنانَكَ إِننا لسنا بناسِ
وفي زَمَعَاتهن دُمُ الفِراسِ
لترفعَ ذَكرَها بأبي نواسِ

عارضه الحكم وهجاه، فانقلب على النزارية وادعى أنه من حاء وحكم؛ فزجره يزيد بن منصور الحميري خال المهدي وقال له: أنت خوزي، فمالك ولحاء وحكم! فقال له: أنا مولى لهم. فتركوه، وقال بعضهم لبعض: إنه لطريف اللسان غزير العلوم فدعوه، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكايد عنا ويهجو النزارية. فكان كما قالوا وكما ظنوا، فانقلب إلى اليمن وعدل عن كنيته بأبي فراس واكتنى بأبي نواس، تشبهاً بكنية ذي نواس كما كانت اليمن

تكتني، وندم على هجاء اليمن، ووجدتهم له أنصر ولدعوته أقبل، فاعتذر إلى هاشم بن حديج الكندي من هجائه، ومدح اليمن فقال:

أهاشمُ خذْ مِنِّي رضاكَ وإنْ أتَى	رضاكَ على نفسي فغيرُ ملوم
فأقسُ ما جاوزتُ بالشتمِ والدي	وعرضي وما مزقتُ غيرَ أديمي
فعدتُ بحقوقي هاشم فأعاذني	كريمُ أراه فوقَ كلِّ كريم
وإنْ امرأً أغضَى على مثل زلّتي	وإنْ جَرَحَتْ فيه لجدُّ حلِيم
تطاول فوقَ الناسِ حتّى كأنّها	يرون به نجماً أمامَ نجوم
إذا امتازتِ الأحسابُ يوماً بأهلها	أنّاخَ إلى عادِيّةٍ وصَمِيم
إلى كلِّ معصوبٍ به التّاجُ مَقولٌ	إليه أيادي عامرٍ وتميم

وكان قبل أن ينتمي لليمن ويدعى لنزار يتعاجم في شعره، فمن ذلك قوله:

فاسقنيها وغنّ صو	تّا، لك الخير، أعجما
ليس في نعتِ دِمْنَةٍ لا	ولا زَجَرِ أشأما

وكان الجاحظ يقول: ما أعرف لأبي نواس شعراً يفضل هذه القصيدة، وهي:

ودار ندامى عطّلوها وأدجّوا	بها أثّر منهم جديدٌ ودارسُ
مَساحِبُ من جرّ الزّقاق على الثّرى	وأضغاتُ ريحانٍ جنّيّ ويابسُ
حبستُ بها صَحبي فجددتُ عهدهم	وإنّي على أمثالٍ تلك لحابسُ
ولم أدر منهم غيرَ ما شهدتُ به	بشرقيّ سابطِ الدِّيارِ البسابسُ
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً	ويوماً له يومُ التّرحُّلِ خامسُ
تدار علينا الراحُ في عَسجدِيّة	حبّتها بأنواعِ التّصاوِيرِ فارسُ

قرارثها كسرى وفي جنابتها مَهَّا تدرىها بالقسي الفوارسُ
فللخمر^(١٩) ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس
وقوله يصف كَرَمَةً وعبر عنها بالهجمة وهو يريد الدنان:

لنا هَجْمَةٌ لا يُدرِك الذئبُ سَخْلَهَا ولا راعها نَزْوُ الفحالة والخطر
إذا امْتَحنت ألوانها مال صفوها إلى الكَمْتِ إلا أن أوبارها خَضِرُ
وإن قام فيها الحالبون اتَّقَتْهُمْ بنجلاء ثقب الجوف درَّتْها الخمرُ
مَسارحها الغربيُّ من نهر صرصر فُقْطِرُبُلٌ فالصالحية فالعَقْرُ
تُراثُ أبي ساسان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر
قَصْرَتْ بها ليلي وليل ابن حُرَّة له حسبٌ زاكٌ وليس له وَفْرُ

وفي تعاجُم أبي نواس في شعره يقول الرقاشي يهجوهُ:

نَبْطِي فإذا قيل له أنت مولى حَكَمَ قال أجل
هو مولى الله إذ كان به لاحقاً فالله أعلى وأجل
واضعاً نسبته حيثُ انتهى فإذا ما رابه ريبٌ رَحَل

فقال أبو نواس يهجوهُ:

هَجَوْتُ الفضلَ دهري وهو عندي رَقَاشِي كما زعم المسولُ
فلما سُؤِلْتُ عنه رَقَاشٌ لنعلم ما تقول وما يقول
ولما أن نَصَّصناه إليها لتعلم ما يُقال وما نقول
وجدنا الفضلَ أبعدَ من رقاش من الأتْنِ ادَّعت فيها الفُيُولُ
وجدنا الفضلَ أكرمَ من رقاش لأنَّ الفضلَ مولاه الرسولُ

يريد بذلك قوله ﷺ: «أنا مولى من لا مولى له».

وقال أيضا يهجو:

قل للرقاشي إذا جئته
لأنني أكرم عرضي ولا
إن تهجني تهج فتى ماجدا
دونك عرضي فاهجه راشدا
والله لو كنت جريرا لما

وقال أيضا يهجو:

يا عربيا من صنعة السوق
ما رأيكم يا نزار في رجل
ويحمل الوطب والعلاب ولا
لقد ضربنا بالطبل أنك في الـ
قد أخذ الله من رقاش على
فالناس يسعون للعلا قداما
هذا كذاكم وفي الهياج إذا

وقال أيضا يهجو:

أصبح الفضل ظاهر التيه
لله شعري، أي مفواهة
كم بين فضل منذ هاجيته
فالحمد لله وإن كنت لم
رضيت أن يشتمني ساقط
وذاك مذ صرت أهاجيه
لكل من دوني قوافيه
وبينه قبل أهاجيه
أحفل بقوم نصحوا فيه
شعبي خير من مواليه

وكان أبو نواس في دعاويه يتماجن ويعبث ويخفي نسبه واسم أمه لئلا يُهجى، وذلك مشهور عنه. ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يحتشم. والمذكور من أمره أنه كان مولى الحكميين، يفتخر باليمن ويمدحهم لذلك، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم، فلذلك قال في العجم ما قال.

قال أبو الفرج الأصفهاني: كان أبو عبيدة يقول: ذهب اليمن بجذ الشعر وهزله: امرؤ القيس بجده، وأبو نواس بهزله. وكان يقول: ذهب اليمن بجيد الشعر في قديمه وحديثه: امرؤ القيس في الأوائل، وأبو نواس في المحدثين. وكان يقول: شعراء اليمن ثلاثة: امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس. وقال أيضاً: أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه. وكان يقول: يعجبني من شعر أبي نواس قوله:

بَنَيْنَا عَلَى كَسْرَى سَمَاءً مُدَامَةً مَكَلَّلَةً حَافَتُهَا بَنَجُومٌ
فَلَوْ رُدَّ فِي كَسْرَى بَن سَاسَانَ رَوْحُهُ إِذْنُ لَاصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: إذا أردت من الجاهليين فلا امرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق، ومن المحدثين فلا أبي نواس فحسب. وقيل للعتبي: من أشعر الناس؟ قال: عند الناس أم عندي؟ قيل: عند الناس؟ قال: امرؤ القيس. قيل: فعندك؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم يرو شعر أبي نواس فليس بتام الأدب. وسئل: من أشعر المحدثين؟ فقال: الذي يقول:

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَهُ مِنْ أَرْزَارِهِ قَمَرًا
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسَنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا
بَعِينَ خَالِطَ التَّفْتِيهِ رُ مِنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا
وَوَجْهَهُ سَابِرِيٍّ لَوْ تَصَوَّبَ مَاؤُهُ قَطْرًا
وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ لَهُ مِنْ عَنِيرِ طُرَرَا

وقال إبراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سفلتُ عن طبقة من تقدمني من الشعراء، وعلوت عن طبقة من معي ومن يجيء بعدي، فأنا نسيج وحدي. وحدث جماعة من الرواة ممن شاهدوا نواس قالوا: كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر، وكان فحلاً راوية عالماً.

وقال أبو عبيدة: بلغني أن أبا نواس يتعاطى قرض الشعر فتلقاني وهو سكران ما طرَّ شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيل الظل، جامد النسيم. فقلت: زد. فقال: مظلم الهواء؛ منتن الفناء. فقلت: زد. فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل. قلت: زد؛ فقال: وخم الطلعة؛ عسر القلعة؛ قلت: زد. قال: ناتئ الجنبات، بارد الحركات. قال: فخففت عنه. فقال: زدني سؤالاً أزدك جواباً. فقلت: «كفى من القلادة ما أحاط بالعنق».

وقال سليمان بن أبي سهل لأبي نواس: ما الذي استُجيد من أجناس شعرك؟ فقال: أشعاري في الخمر لم يُقَلْ مثلها، وأشعاري في الغزل فوق أشعار الناس، وهما أجود شعري إن لم يزاحم غزلي ما قلته في الطرد.

وكان يقول: ما قلت الشعر حتى رويتُ لستين امرأة من العرب منهن الحنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟ وإني لأروي سبعمئة أرجوزة ما تُعرف.

وكان قد استأذن خلفاً في نظم الشعر، فقال: لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة؛ فغاب عنه مدة وحضر إليه فقال له: قد حفظتها. فقال: أنشدها. فأنشده أكثرها في عدة أيام، ثم سأله أن يأذن له في نظم الشعر؛ فقال له: لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها. فقال له: هذا أمر يصعب عليّ فإني قد أتقنت حفظها، فقال له: لا آذن لك إلا أن تنساها، فذهب إلى بعض الديرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها، ثم حضر فقال: قد نسيته حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط. فقال له: الآن فانظم الشعر.

وكان أبو نواس يقول: لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة، وأكون في بستان مونتق، وعلى حال أرتضيها من صلة أوصل بها أو وعد بصلة، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها. وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً، ثم يعرضها على نفسه فيسقط كثيراً منها ويترك صافيتها، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره. وكان يهيم الشعر في الخمر فلا يعملها إلا في وقت نشاطه. ولم يكن في الشعر بالبطيء ولا بالسريع بل كان في منزلة وسطى.

وكان الأصمعي يقول: يعجبني من شعر الشاعر بيت واحد قد أجاد قائله وهو:

ضعيفة كَرَّ الطَّرْفُ تحسب أنها قريبة عهد بالإنفاقة من سُقْم
وإني لآتي الأمر من حيث يُتَقَى ويعلم سَهْمِي حين أنزع من أَرْمِي

قال العنابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس: والله لو أدرك الخبيث الجاهلية ما فضل عليه أحد.

وقال أبو عمرو الشيباني: أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة: الأعشى والأخطل وأبو نواس.

قال محمد بن عمر: لم يكن شاعر في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده ليل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته، وبُعد صيته وظرف لسانه. وقال أبو حاتم: سئل أبو نواس عن شعره فقال: إذا أردت أن أجِدَّ، قلت مثل قصيدي: «أيها المتتاب عن عفره»، وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدي: «طاب الهوى لعميده»، فأما الذي أنا فيه وحدي وكله جيد فإذا وصفت الخمر.

وقال أبو ذكوان: كنا عند التوزي فذكرت عنده أبا نواس، فوضع منه بعض الحاضرين؛ فقال له التوزي: أتقول هذا لرجل يقول:

يخافُ الناسُ ويرجونهُ كأنه الجنة والنارُ

ويقول:

فما جازه جودٌ ولا حلٌّ دونه ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

ويقول:

فتمشَّت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

قال ابن الأعرابي يوماً لجلسائه: ما أشعر ما قال أبو نواس في الخمر؟ فقال بعضهم:

إذا عبَّ فيها شاربُ القومِ خلته يُقبَّل في داجٍ من الليل كوكبًا

وقال آخر:

كان كُبرى وصُغرى من فقاقتها حصباءُ درٍّ على أرضٍ من الذهبِ

وقال آخر:

تَرَى حَيْثُ مَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَغْرِبًا

وقال آخر:

فكَأَنَّ الْكُؤُوسَ فِينَا نَجُومٌ دَائِرَاتٌ بَرُوجُهَا أَيْدِينَا

وقال آخر:

صَفَرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَتْهُ سَرَاءُ

فقال ابن الأعرابي: إن هذا كله لشاعر انفرد بالإحسان فيه، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله:

لَا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ فَدَهْرٌ شَرَّابُهَا نَهَارٌ

قال مسلم بن بهرام: لقيت أبا العتاهية فقلت له: من أشعر الناس؟ قال: تريد جاهليها أو إسلاميها أو مولدها؟ قال: كلاً أريد. قال: الذي يقول في المديح:

إِذَا نَحْنُ أَثْنِينَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا تُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي تُثْنِي

وَإِنْ جَرَّتِ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمَدْحَةٍ لَغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي

والذي يقول في الزهد:

أَلَا رَبَّ وَجْهِ فِي التُّرَابِ عَتِيقٍ وَيَارَبَّ حُسْنٍ فِي التُّرَابِ رَقِيقٍ

وَيَارَبَّ حَرَمٍ فِي التُّرَابِ وَنَجْدَةٍ وَيَارَبَّ رَأْيٍ فِي التُّرَابِ وَثِيقٍ

فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ رَاحِلٌ إِلَى مَنْزِلِ نَائِي الْمَحَلِّ سَاحِقٍ

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقٍ

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكْشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ

وكان يقول: سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقته إليها
بكل ما قلته؛ فإنه أشعر الناس فيها، منها قوله:
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
وقوله:

مَنْ لم يكن لله متَّهما لم يُمس محتاجًا إلى أحد
وقوله:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديق
ثم قال: قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها
بهذه الأبيات.

وقال الجاحظ: سمعت النِّظام يقول، وقد أنشد شعرًا لأبي نواس: كأن
هذا الفتى جُمع له الكلام فاختر أحسنه. وقال بعضهم: كأن المعاني حُبست
عليه، فأخذ حاجته وفرق الباقي على الناس. وقال أبو حاتم: كانت المعاني
مدفونة حتى أثارها أبو نواس.

حدَّث الحسين بن الخصيب الكاتب، قال: قال أحمد بن يوسف الكاتب:
كنت أنا وعبد الله بن طاهر عند المأمون، وهو مستلقٍ على قفاه، فقال لعبد
الله بن طاهر: يا أبا العباس، من أشعر من قال الشعر في خلافة بني هاشم؟
فقال: أمير المؤمنين أعرف بهذا وأعلى عينًا. فقال له المأمون: على ذلك قُل.
تكلم أنت يا أحمد بن يوسف. فقال عبد الله بن طاهر: أشعرهم الذي يقول:
ويا قبرٍ معنٍ كنت أولَ حُفرةٍ من الأرض خُطت للسَّاحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب: فقلت: بل أشعرهم الذي يقول:

أشبهت أعدائي فصرتُ أَحِبُّهُمْ إذ كان حَظِّي منك حَظِّي مِنْهُمْ

فقال المأمون: يا أحمد أبيتَ إلا غزلاً! أين أنتم عن الذي يقول:

يا شقيقَ النَّفسِ من حَكَمٍ نِمْتَ عن لَيْلي ولم أَنَمِ

فقلنا: صدقت يا أمير المؤمنين.

وكان المأمون يقول: لو سئلت الدنيا عن نفسها فنطقت، لما وصفت

نفسها كما وصفها أبو نواس في قوله:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكَشَّفَتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديق

ورد على العتابي بحلب عدةً من الكبار من أهل قنسرين، فدخلوا

وسلموا؛ وكان في يده رقعة ينظر إليها، فقال لهم: لقد سلك صاحب هذه

الرقعة وادياً ما سلكه أحد قبله! فنظروا فإذا هو شعر أبي نواس في جنان

جارية آل عبد الوهاب الثقفي، وهو قوله:

رَبْعُ الكَرَى بين الجفونِ مُحِيلُ عَفَى عليه بُكِّي عليك طویلُ

يا ناظرًا ما أقلعتُ لحظَّاته حتى تشحَّطَ بينهن قَتیلُ

أحللتُ قلبي من هواكِ مَحَلَّةً ما حلَّها المشروبُ والمأكولُ

بكمالِ صورتك التي من دونها يتخَيَّرُ التشبيهُ والتمثيلُ

فوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقَها دون السَّمينِ ودونها المهزولُ

ومما أنشده العتابي لأبي نواس فقال أحسن وأجاد:

مَتَّايَهُ بِجَمالِهِ صَلِفٌ لا يَسْتَطاعُ كَلامُهُ تِيهاً

للحسن في وجناته بدعُ ما إن يَمَلُّ الدرسَ قاريها
لو كانت الأشياءُ تعقله أَجْلَلَنه إِجْلالَ باريها
لو تستطيع الأرضُ لانتقبضت حتى يصير جميعه فيها
وقوله:

إن السحابَ لتستحي إذا نظرتُ إلى نداك فقاسته بما فيها
حتى تَهَمَّ بإقلاع فيمنعُها خوفٌ من الشُّخْط من إِجْلال منشيها
قال محمد بن صالح بن بيهس الكلابي: لما دخلت العراق صرت إلى
مدينة السلام فسألت عمن بها من الشعراء المحسنين، وذلك في أيام خلافة
الأمين أو عند موته قبل دخول المأمون بيسير، فقل لي: قد غلب عليهم
فتى من أهل البصرة يقال له الحسن بن هانئ ويعرف بأبي نواس. وقد كنتُ
سمعت شيئاً من شعره، فأتاني فتى كان من أهل الأدب، فقلت له: هل
تروي لأبي نواسكم هذا شيئاً؟ قال: أروي له أبياتاً في الزهد وليس هو من
طريقته. فقلت: أنشدنيها. فأنشدني:

أخي ما بال قلبك ليس يَنْقَى كأنك لا تُظنّ الموتَ حقاً
ألا يا بنَ الذين فَنُوا وبادوا أما والله ما ذهبوا لتَبْقَى
وما للنفس عندك من مُقام إذا ما استكملتُ أَجْلاً ورزقاً
وما أحدٌ بزادك منك أَحْظَى ولا أحدٌ بذنبك منك أَشَقَى
ولا لك غيرَ تقوى الله زاد إذا جعلتُ إلى اللّهوات تَرْقَى

فقلت له: أحسن والله! قال: أفلا أنشدك أحسن من هذا؟ قلت بلى.
فأنشدني في رثاء محمد الأمين:

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوي المنية ناشر
فلا وصل إلا عبرة تستديمها أحاديث نفس ما لها الدهر ذاك
لئن عمرت دور بمن لا أوده لقد عمرت ممن أحب المقابر
وكنْتُ عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

فقال: بحق ما غلب هذا على أهل الأدب وقدموه على غيره.
قال محمد بن جعفر الأصم: كنا عند أبي نعيم، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين — رضي الله عنها — حين ذكرت شعر لبيد يرثي أخاه أربد:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتاً، قلنا: أنشدناها. فقال:

ذهب الناس فاستقلوا وصرنا خلفاً في أراذل النّسّان
في أناس نعدّهم من عديد فإذا فُتّشوا فليسوا بناس
كلما جئتُ أبتغي الفضل منهم بدروني قبل السؤال بياس
وبكوا لي حتى تمنيتُ أني مُفلتٌ عند ذاك رأساً براس

ثم قال: أتدرون لمن الشعر؟ قلنا: لا. قال: للحسن بن هانئ.
قال أبو عبد الرحمن الضرير: رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها، فسألني عن خلفت من الشعراء؛ فقلت له: أما من الكوفيين فأبو نواس، وهو مقدم عندهم. فقال: ويحك! كيف يتقدم وهو يقول: رويدك يا إنسان لا أنت تقفز؟ رأييت قوله: «تقفز» خرجت من بين فكي شاعر قط؟! ثم قال: ويلك! وكيف يكون كذلك وهو يحيل ويتخطى من صفة المخلوق إلى صفة الخالق؟ فقلت: مثل ماذا من قوله؟ قال: أمّا فيما أحال فكقوله:

وَأَخَفَتَ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ التُّطْفُ الثِّي لَمْ تُخْلَقِ

وهذا من الإغراق المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم؛
وأما في تخطيه بصفة المخلوق إلى صفة الخالق فكقوله:

يَجَلُّ أَنْ تَلْحَقَ الصِّفَاتُ بِهِ فَكُلَّ خُلُقٍ خُلِقَ مِنْهُ مِثْلُ
وكقوله:

بريء من الأشباه ليس له مثل

ومما قيل عن أبي نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا
يحسنهما، وأجود شعره في الخمر والطرْد، وأحسن ما فيها مأخوذ ليس له
وإنما سرقه، وحسبك من رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يحسن أن يبيّن عليه
حتى يجيء به قبيحًا، مثل قوله: «وداوني بالتي كانت هي الداء» أخذه من
قول الأعشى: «وأخرى تداويت منها بها» والذي أخذه منه أحسن. ومنها
أيضًا قوله: «إن الشباب مطية الجهل» أخذه من قول النابغة الجعدي: «فإن
مطية الجهل الشباب». وقوله: «كطلعة الأشمط من إهابه» أخذه من قول
أبي النجم: «كطلعة الأشمط من كسائه». ولكن رُزق أبو نواس في شعره
أن سار وحمله الناس وقدمه أهل عصره، وإن له على ذلك لأشياء حسنا لا
يدفعها ولا يطرحها إلا جاهل بالكلام أو حاسد.

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل
بن الربيع، وهي:

وبلدة فيها زور صغراء تحظى في صعر
مرت^(٢١) إذا الذئب اقتفر بها من القوم الأثر

كان له من الجزر
 ولا تعلاه شعر
 عسفتها^(٢٣) على خطر
 ببازل حين فطر
 لا متشك من سدر^(٢٤)
 كأنه بعد الضمر
 وانمح في فحسر:
 يحدو بحقب كالأكر
 منهن توشيم الجدر
 شهري ربيع وصفر
 وأشبه السفى الإبر
 قلن له: ما تأتمر؟
 غير عواص ما أمر
 ركب يشيمون مطر
 يممّن من جنبى هجر
 وبين أحقاف القتر
 ولا تلاوات السور
 زمت بمشزور المرر
 حتى إذا اضطف السطر
 دهياء يحدوها القدر
 شهباً إذا الال ظهر
 كل جنين ما اشتكر^(٢٢)
 ميت السحاحي الثغر
 وغرر من الغرر
 يهزه جن الأشر
 ولا قريب من خور
 وبعد ما جال الضفر^(٢٥)
 جاب^(٢٦) رباع المثغر
 ترى بأثجاج القصر^(٢٧)
 رعين أكار الخضر
 حتى إذا الفحل جفر^(٢٨)
 ونش أذخار النقر^(٢٩)
 وهن إذ قلن: أشر
 كأنها لمن نظر
 حتى إذا الظل قصر
 أخضر طمام العكر
 سار وليس للسمر
 يمسح مرناً يسر^(٣٠)
 لأم كحلقوم الثغر^(٣١)
 أهدى لها لو لم تجر
 فتلك عنس لم تدر
 إليك كلفنا السفر

خُوصًا يُجَاذِبْنَ النَّظْرَ قَدْ انطوت منها السَّرُّ
طَيِّ الْقَرَارِيِّ^(٣٢) الْحَبْرَ لَمْ تَتَقَعْدَهَا الطَّيْرُ
وَلَا السَّنِيحُ الْمَزْدَجَرُ يَا فَضْلُ لِلْقَوْمِ الْبَطْرُ
إِذْ لَيْسَ فِي النَّاسِ عَصْرُ وَلَا مِنْ الْخَوْفِ وَزَرُ
وَنَزَلْتُ إِحْدَى الْكُبَرِ وَقِيلَ صَمَاءُ الْغَيْرُ
فَالنَّاسُ أَبْنَاءُ الْحَذَرِ: فَرَجَّتْ هَاتِيكَ الْغَمَرُ
عَنَّا «وَقَدْ صَابَتْ بِقَرٍ»^(٣٣) كَالشَّمْسِ فِي شَخْصٍ بَشَرُ
أَعْيَا مُجَارِيكَ الْخَطَرُ أَبُوكَ جَلِيٌّ عَنْ مُضَرُ
يَوْمِ الرَّوَّاقِ الْمُحْتَضَرِ وَالْخَوْفُ يَفْرِي وَيَذَرُ
لَمَّا رَأَى الْأَمَرَ اقْمَطَرٍ^(٣٤) قَامَ كَرِيمًا فَانْتَصَرَ
كَهَزَّةَ الْعَضْبِ الذَّكْرِ مَا مَسَّ مِنْ شَيْءٍ هَبْرٍ^(٣٥)
وَأَنْتَ تَقْتَاغُ الْأَثَرِ مِنْ ذِي حُجُولٍ وَغُرَرُ
مَعِيدٍ وَرَدٍ وَصَدَرِ وَإِنْ عَلَا الْأَمَرَ اقْتَدِرْ
فَأَيْنَ أَصْحَابُ الْغَمَرِ إِذْ شَرَبُوا كَأْسَ الْمَقَرِ^(٣٦)
وَقُصُرُوا فِيمَنْ قُصِرَ هِيَهَاتَ لَا يَخْفَى الْقَمَرُ
أَصْحَرَتْ^(٣٧) إِذْ دَبَّوا الْخَمَرَ شُكْرًا، وَحَرٌّ مَنْ شَكَرَ
فَاللَّهُ يُعْطِيكَ الشَّرَّ^(٣٨) وَفِي أَعَادِيكَ الظَّفَرُ
وَاللَّهُ مَنْ شَاءَ نَصَرَ وَأَنْتَ إِنْ خَفْنَا الْحَصَرَ^(٣٩)
وَهَرَّ دَهْرٌ وَكَثُرَ عَنْ نَاجِذِيهِ وَبَسَرٍ^(٤٠)
أَغْنَيْتَ مَا أَغْنَى الْمَطَرُ وَفِيكَ أَخْلَاقُ الْيَسَرِ
فَإِنْ أَبَوْا إِلَّا الْعَسَرَ أَمَرْتُ^(٤١) حَبَلًا فَاسْتَمَرَّ

حتى ترى تلك الزمر تهوي لأذقان الثغر^(٤٢)
 من جذب ألقى^(٤٣) لونتر إليه طوداً لاناظر^(٤٤)
 صعب إذا لاقى أبر وإن هفا القوم وقر
 أو رهبوا الأمر جسر ثم تسامى ففغر
 عن شفشق ثم هذر ثم تناجى فخطر
 بذي سيب^(٤٥) وعذر يوضع أطراف الوبر
 هل لك وأهل^(٤٦) خير فيمن إذا غبت حضر
 أو نالك القوم ثار وإن رأى خيراً شكر
 أو كان تقصير عذر

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أولها: «ومستعبد إخوانه بثرائه» بلغت
 الأمين، فبعث إليه، وعنده سليمان بن جعفر، فلما دخل عليه قال له: يا
 عاض بظر أمه العاهرة، ويا مدعي ولاء حاء وحكم! أتدري يا بن اللخناء
 من توليت وإلى من ادعيت؟ إلى الأم قبيلتين في اليمن، علوج باغين. أنت
 تكتسب بشعرك أوساخ أيدي الناس اللئام، وتقول: «ولا صاحب التاج
 المحجّب في القصر»! أما والله ما نلت مني شيئاً بعد ذلك أبداً!

فقال له سليمان بن أبي جعفر: إي والله! نعم هو مع هذا من كبار
 الشنوية^(٤٧) (وكان يرمي بذلك). فقال له محمد الأمين: وهل يشهد عليه
 شاهد بشيء من ذلك؟ فأتاه سليمان بعدة نفر، فشهدوا عليه أنه شرب في
 يوم مطير فوضع قدحه تحت السماء في المطر فوقع فيه المطر؛ فقالوا له: ما
 تصنع بذلك ويحك؟ قال: أنتم تزعمون أنه ينزل مع كل قطرة ملك، فكم

تراني أشرب من الملائكة؟! ثم شرب ما في القدح؛ فغضب محمد، وأمر به إلى السجن. فذلك قول أبي نواس:

يا ربَّ إن القومَ قد ظلموني	وبلا اقترافٍ معطلٍ حبسوني
وإلى الجحود بما عرفت خلافة	ربيَّ إليك بكذبهم نسبوني
ما كان إلَّا الجريُّ في ميدانهم	في كلِّ خزيٍّ والمجانة ديني
لا العذر يُقبل لي ويفرق شاهدي	منهم، ولا يرضون حلفَ يميني
ما كان — لو يدرون — أولَ مخبأ	في دار منقصة ومنزل هون
أما الأمينُ فلسْتُ أرجو دفعه	عني، فمن لي اليوم بالمؤمن

فبلغت أبياته المؤمن، فقال: والله لئن لحقته لأغنيه غنى لا يؤمله. فمات قبل دخول المؤمن بغداد.

لما وصلت الخلافة إلى محمد الأمين وولى الفضل بن الربيع الوزارة، تفرغ محمد للهو والصيد والنزهة، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لنزهة. فخرج ذات يوم وقد أمر الجند والقواد فركبوا، ولبس ثيابه وتقلد سيفه، وأعدت الحراقات^(٤٨) والزلاجات في دجلة؛ فقال له إسماعيل بن صبيح — وكان كاتب سره: يا أمير المؤمنين، إن قوادك وجندك وعامة رعيتك قد خبثت نفوسهم، وساءت ظنونهم، وكبر عندهم ما يرون من احتجاجك عنهم، فلو جلست لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك! فإن في ذلك تسكيناً لهم ومراجعة لآمالهم! فجلس في مجلسه وأذن للناس عامة فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم، وقام الخطباء فخطبوا، والشعراء فأنشدوا، فلم يكن أحد منهم يتعدى إلى الإطناب والتطويل، إلا أمر بالسكوت ومنع من القول.

وقام فيمن قام أبو نواس، فقال: يا أمير المؤمنين! هؤلاء الشعراء أهل حجر ومدر، وإبل ووصفٍ للبقر وبيوت الشعر، قد جفت ألفاظهم، وغلظت معانيهم، ليس لهم بصر بمدح الخلفاء ونشر مكارمهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده فليفعَل. فأذن له فأنشده:

أيا دارها بالماء حتى تُلينها	فلن تكرم الصَّهْبَاءَ حتى تُهينها
أغالي بها حتى إذا ما ملكتها	أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونها
وصفراء قبل المزج بيضاء بعده	كأنَّ شعاع الشمس يلقاك دونها
تري العين تستعفيك من لمعانها	وتحسُر حتى ما تُقلّ جفونها
نَزُوعٌ بنفس المرء عما يسوءه	ويُجذِّله ألا يزال قرينها
كأنَّ يواقيتاً رواكدُ حولها	وزُرُق سَنَانير تدير عُيونها
وشمطاء حل الدهر منها بنجوة	دلفتُ إليها فاستللت جبينها
كأنا حُلُولٌ بين أكناف روضةٍ	إذا ما سلَبناها مع الليل طينها

إلى أن أكمل القصيدة. فقال له محمد: ألم أنك عن شرب الخمر! قال: بلى يا أمير المؤمنين، والله ما شربتها منذ نهيتني عنها ومنعتني من شربها، وأنا الذي أقول:

أيها الرائحان باللوم لوما	لا أذوق المدام إلا شَمِيا
نالني بالملام فيها إمام	لا أرى لي خِلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواي فإني	لستُ إلا على الحديث نديما
كبر حظي منها إذا هي دارت	أن أراها وأن أشم النسيما
فكأنِّي وما أزيّن منها	قَعْدِي يُحَسِّن التحكيما ^(٤٩)
كل عن حملة السلاح إلى الحر	ب فأوصي المطيق ألا يقيما

فتبسم محمد، وقال له: أحسنت! وقام بعض الشعراء فأنشد:

ترقى في فضائله الأمين وزايله المُشاكلُ والقَرينُ
وأورق زهرة التقوى وعزّت خلافته وصدّقت الظنونُ
تمكّس منابر الخلفاء منه يدٌ بخلاف طاعتها المنونُ
يخاف الخوفُ صولته ويرجو نداه الجودُ فهو له خدين

فقال عدةٌ ممن حضر: قد أوجز وأجاد، أكرم الله أمير المؤمنين! فقال أبو نواس: أشعر منه يا أمير المؤمنين الذي يقول:

ألا يا خيرَ من رأتِ العيونُ نظيرُك لا يُحس ولا يُكونُ
وفضلك لا يُحد ولا يُجاري ولا تحوي حيازته الظنونُ
فأنت نسيجٌ وحدك لا شبيهُ نحاشيه عليك ولا خدينُ
خُلقت بلا مشاكلة لشيء فأنت فوقُ والثقلان دُونُ
كأن الملك لم يك قبلُ شيئاً إلى أن قام بالملك الأمينُ

قال: ففضله محمد وأحسن جائزته. ويقال: إنه قالها بديهاً.

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحرّاقة إلى الشماسية، واصطفت له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحملت معه المطابيح والخزائن. وكان ركوبه حرّاقة^(٥٠) على مثال الأسد. فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر والمسير. وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه، فقال:

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب^(٥١)
فإذا ما ركابه سرن بحرًا سار في الماء راكبًا ليث غاب

أَسَدًا بِاسْطًا ذِرَاعِيهِ يَعْدُو أَهْرَتَ الشَّدَقِ^(٥٢) كَالْحِ الْأَنْيَابِ
لَا يَعَانِيهِ بِاللِّجَامِ وَلَا السَّو طِ وَلَا غَمَزِ رَجْلِهِ فِي الرِّكَابِ
عَجِبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَو رة لَيْثٍ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ
سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَتَ عَلَيْهِ كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتَ زَوْرٍ وَمِنْسَرٍ وَجَنَاحِيهِ مَن تَشُقُّ الْعُبَابَ بَعْدَ الْعُبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اس تَعَجَّلُوهَا بِجَيْئَةٍ وَذَهَابِ
بَارَكَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا ه وَأَبْقَى لَهُ رِذَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ هَاشِمِيٌّ مَوْفَقٌ لِلصَّوَابِ

ويقال: إن هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد، وقد ركب حرّاقته الدلفين؛ فقال له شيخ إلى جانبه: اتق الله يا هذا! فقال له أبو نواس: يا شيخ، إن الله لم يسخر لصاحب المحراب الدلفين، وقد سخر له ما هو خير من الدلفين، فأى شيء تنكر من هذا؟

قال ابن حبيب: كنت مع مؤنس بن عمران، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد، فقال مؤنس: لو دخلنا على أبي نواس في السجن فسلمنا عليه! ففعلنا؛ فقال أبو نواس لمؤنس: أين تريد؟ فقال: أريد أبا العباس الفضل بن الربيع. قال: فبلغه رقعة أعطيكها. قال: نعم. فأعطاه رقعة فيها:

مَا مِنْ يَدٍ فِي النَّاسِ وَاجِدَةٍ كَيْدِ أَبُو الْعَبَّاسِ مَوْلَاهَا
نَامَ الْبُعَاةُ عَلَى مَضَاجِعِهِمْ وَسَرَى إِلَى نَفْسِي فَأَحْيَاهَا
قَدْ كُنْتُ خَفْتُكَ ثُمَّ أَمَّنِي مَن أَنْ أَخَافُكَ خَوْفَكَ اللَّهُ
فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوَ مُقْتَدِرٍ وَجَبَتْ لَهُ نِقَمٌ فَأَلْغَاهَا

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن.

انصرف أبو نواس من بعض المواخير سكران، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة، فدخل فقام في الصف الأول؛ فقرأ الإمام: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ فقال أبو نواس من خلفه: لبيك! فلما قضيت الصلاة لبَّوه^(٥٣) وقالوا له: يا كافر، نشهد عليك بالكفر! ودفعوه. فبلغ خبره الرشيد، فدعا له حمدويه صاحب الزندقة، وأحضر أبا نواس فقال له حمدويه: يا أمير المؤمنين، إن هذا ماجن، وليس هو بحيث يُظن. فقال له الرشيد: ويحك! إنه وقع في نفسي منه شيء، فامتحنه. قال: فخط له صورة ماني^(٥٤) وقال له: ابصق عليها. فأهوى أبو نواس بفيه ليقىء عليها؛ فقال له حمدويه: قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن. قال: ودعا برجل من الزنادقة مشهور، وقال له: ابصق عليها. فقال: وما معنى البصاق! إنه من أخلاق الشرك ولا أفعله، وأبى أن يفعل. فقال الرشيد لبعض خدم القصر: امض بهذا (يعني أبا نواس) إلى السندي، فقل له: أدِّبه وأطلقه، وبهذا (يعني الزنديق) فقل له: احبسه قبلك إلى أن تستتيبه، فإن تاب وإلا قتلناه. قال: فمضى بهما الخادم، فلما صار في آخر الصحن، قال أبو نواس للخادم: إلى أين تذهب بنا؟ قال: إلى السندي. قال: فما تقول له؟ قال: أقول له يجبسك قبله حتى تُستتاب أو تُقتل، ويؤدب هذا ويطلقه. قال: فرفع أبو نواس يده ولطمه، وقال له: يا بن الزانية، من الساعة نسيت! وبصر بهم الرشيد، فقال: ردوهم. فقال لأبي نواس: ما هذا الذي رأيت منك؟ قال: أراد والله أن يهلكني ويطر حني بحيث أنسى أبداً أو أبقى مخلداً، سله يا أمير المؤمنين عن الرسالة، فإذا هو قد غيَّرها. فضحك من أبي نواس وأطلقه.

قال رُزَين الكاتب: اجتمعنا يوماً أنا وأبو نواس وعلي بن الخليل في سوق

الكرخ، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار وتحدث بها؛ فقال أبو نواس: أدبر من كان في نفسي وكان أسرع الخلق في طاعتي، فما أدري ما أحتال له! فقال علي بن الخليل يمازحه: يا أبا علي، سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك؛ فقال له أبو نواس: من تعني؟ قال: من أنت في طاعته ليلك ونهارك (يعني إبليس)، فإن لم يقض لك هذه الحاجة، فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ولا أن تقر عينه بمعصية. فقال: هو أسدُّ لرأيه من أن يُحَلَّ بي أو يخذلني. وانقضى مجلسنا ذلك. فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع، وأخذنا في أحاديثنا، فضحك أبو نواس؛ فقلنا له: ما أضحكك؟ فقال: ذكرتُ قول علي بن الخليل يومئذ: سل شيخك يعطفه عليك. حينئذ قد سأله يا أبا الحسن فقضى الحاجة، وما مضت والله ثالثة حتى أتاني من غير أن أبعث إليه ومن غير أن أستزيره، فعاتبني واسترضاني، وكان الغضب منه والتجني، وأحسب الشيخ (يعني إبليس) كان يتسمع علينا في وقت كلامنا؛ وقد قلت أبياتا في ذلك. فقلنا: هاتها. فأنشد:

لما جفاني الحبيب وامتنعتُ	عني الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدَّ شوقي فكاد يقتلني	ذكرُ حبيبي والهَمُّ والفِكرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له	في خَلوةِ والدموع تنحدر:
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد	أقرح جَفني البكاء والسهرُ؟
إن أنت لم تُلق لي المودةَ في	صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قلتُ شعراً ولا سمعتُ غناً	ولا جرى في مفاصلي السَّكرُ
ولا أزال القرآنَ أدْرُسُه	أروح في درسه وأبتكرُ
وألزم الصومَ والصلاةَ ولا	أزال دهري بالخير آتمرُ

فما مضت بعد ذاك الثالثة حتى أتاني الحبيب يعتذر
ويطلب الودَّ والوصالَ على أفضل ما كان قبلَ يهتجرُ
فيا لها مِنَّةً لقد عَظُمَتْ عندي لإبليس ما لها خَطَرُ

لما قدم أبو نواس على الخصب^(٥٥) بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشده، فقال له: هنا جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسن، فأذن لهم في الإنشاد، فإن كان شعري نظير أشعارهم أنشدت وإلا أمسكت؛ فاستنشدهم الخصب، فأنشدوا مديحاً في الخصب، فلم تكن أشعارهم مقاربة لشعر أبي نواس؛ فتبسم أبو نواس ثم قال: أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى لتلقف ما يافكون؟ قال هات. فأنشده قصيدته التي أولها:

أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورُ وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ

حتى أتى على آخرها، فانفضَّ الشعراء من حوله. ويقال: إن أبا نواس كان خرج إلى مصر في زي الشطَّار^(٥٦) وتقطيعهم بطرة قد صنفها وكُمَّين واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق، وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل؛ فلما دخل على الخصب بهذه الصورة ازدراه واستخف به، وكان تُورد عليه كتب الجلَّة ممن بباب السلطان، ووردت كتب أبي نواس فيها فقرأها ولم يستنشده، فانصرف مهموماً. وجاءه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصب؛ فاستحضره فأنشده:

أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورُ وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ
فَإِنْ كُنْتَ لَا خِلْمًا^(٥٧) وَلَا أَنْتِ زَوْجَةٌ فَلَا بَرَحَتْ دُونِي عَلَيْكِ سُتُورُ

ولا وصل إلا أن يكون نُشورٌ
ولا كل سلطان عليّ قديرٌ
فقد كدت لا يخفى عليّ ضميرٌ
عُقَابٌ بأرساخ اليدين ندورٌ^(٥٨)
أزِغِبَ لم ينبُت عليه شكيرٌ^(٥٩)
من الشمس قرْنٌ والضربُ يمورٌ^(٦٠)
من الرأس لم يدخل عليه ذُرورٌ^(٦١)

وجاورت قوما لا تراورَ بينهم
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب
وإني لطرف العين بالعين زاجرٌ
كما نظرت والريخ ساكنة لها
طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورة
فأوفت على علياء حين بدا لها
تقلّب طرفاً في حجاجي مغارة

ولما قال أبو نواس:

عزيزٌ علينا أن نراك تسيرٌ
بلى إن أسباب الغنى لكثيرٌ
جرت فجرى في جزيهن عبيرٌ
إلى بلد فيه الخصب أميرٌ

تقول التي من بيتها خفّ مركبي:
أما دون مصر للغنى متطلب؟
فقلت لها واستعجلتها بوادٍ
ذريني أكثر حاسديك برحلة

قال له الخصب: إذا يكثر حسادها وتبلغ أملها. وأمر له بألف دينار.

وتماهما:

فأي فتى بعد الخصب تزور!
ولكن يصير الجود حيث يصير
ويعلم أن الدائرات تدور
يحل أبو نصر به ويسير
خَصِيَّةَ التصميم حين تسورٌ^(٦٢)
فأضحوا وكل في الوثاق أسير

إذا لم تزُرْ أرض الخصب ركابنا
فما جازه جودٌ ولا حلّ دونه
فتى يشتري حسن الثناء بهاله
ولم تر عيني سُودداً مثل سُوددٍ
وأطرق حَيَّات البلاد لحية
سموت لأهل الجور في حال أمنهم

إِذَا قَامَ غَتَّتَهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ
 فَمَنْ يَكُ أَمْسَى جَاهِلًا بِمَقَالَتِي
 فَمَا زِلْتَ تُؤَلِّيه النَّصِيحَةَ يَافِعًا
 إِذَا غَالَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ
 إِلَيْكَ رَمْتَ بِالْقَوْمِ هُوجٌ كَأَنَّمَا
 رَحَلْنَا بِنَا مِنْ عَقْرِ قُوفٍ ^(٦٤) وَقَدْ بَدَا
 فَمَا نَجَدْتُ ^(٦٥) بِالْمَاءِ حَتَّى رَأَيْتُهَا
 وَغَمَّرْنَا مِنْ مَاءِ النَّقِيبِ بِشْرَبَةٍ
 وَوَأَفَيْنَ إِشْرَاقًا كَنَائِسَ تَدْمُرُ
 يَوْمَئِذٍ أَهْلَ الْغَوَاطِينِ كَأَنَّمَا
 وَأَصْبَحْنَا بِالْجَوْلَانِ يَرْضُخُنَ ^(٦٧) صَخْرَهَا
 وَقَاسَيْنَ لَيْلًا دُونَ بَيْسَانَ لَمْ يَكْدُ
 وَأَصْبَحْنَا قَدْ فَوَّزْنَا مِنْ نَهْرِ فَطْرَسٍ
 طَوَالِبَ بِالرُّكْبَانِ غَرَّةَ هَاشِمٍ
 وَلَمَّا أَتَيْتَ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا
 مِنَ الْقَوْمِ بَسَامٌ كَأَن جَبِينَهُ
 زَهَا بِالْخَصِيبِ السِّيفُ وَالرَّمْحُ فِي الْوَعَى
 جَوَادٌ إِذَا الْأَيْدِي كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى
 لَهُ سَلَفٌ فِي الْأَعْجَمِينَ كَأَنَّهُمْ
 وَإِنِّي جَدِيرٌ إِذْ بَلَغْتُكَ بِالْمَنَى
 فَإِنْ تُؤَلِّينِي مِنْكَ الْجَمِيلَ فَأَهْلُهُ

لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرٌ
 فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَبِيرٌ
 إِلَى أَنْ بَدَا فِي الْعَارِضِينَ قَتِيرٌ ^(٦٣)
 وَإِمَّا عَلَيْهِ بِالْكَفَاءِ تُشِيرُ
 جَمَاهِمَا تَحْتَ الرَّحَالِ قُبُورُ
 مِنَ الصَّبْحِ مَفْتُوقُ الْأَدِيمِ شَهِيرُ
 مَعَ الشَّمْسِ فِي عَيْنِي أَبَاغَ تَغُورُ
 وَقَدْ حَانَ مِنْ دِيكَ الصَّبَاحُ زَمِيرُ
 وَهَنَّ إِلَى رُغْنِ الْمَدَخْنِ صُورُ ^(٦٦)
 لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الْغَوَاطِينِ ثُورُ
 وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْرَاحِنَ شُطُورُ
 سَنَّا صَبَحِهِ لِلنَّازِلِينَ يُنِيرُ
 وَهَنَّ عَنِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ زُورُ ^(٦٨)
 وَفِي الْفَرَمَا مِنْ حَاجِهِنَّ شُقُورُ ^(٦٩)
 عَلَى رَكْبِهَا أَنْ لَا تَزَالَ مَجِيرُ
 سَنَّا الْفَجْرَ يَسْرِي ضَوْؤُهُ وَنِيرُ
 وَفِي السَّلَامِ يَزْهُو مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ
 وَمِنْ دُونَ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ غُيُورُ
 إِذَا اسْتَوْذَنْتُمْ يَوْمَ السَّلَامِ بَدُورُ
 وَأَنْتَ بِمَا أَمَلْتُ مِنْكَ جَدِيرُ
 وَإِلَّا فَإِنِّي عَاذَرٌ وَشَكُورُ

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاده:

ساد الملوك ثلاثة ما منهم
ساد الربيع وساد فضل بعده
عباس عباس إذا احتدم الوغى
والفضل فضل والربيع ربيع

وقال يعاتب عمر الوراق:

يا من جفاني وملا
ومات مرحب لما
إني أظنك تحكي
تلقاه في الشر ينأى
نسيت أهلاً وسهلاً
رأيت مالي قلاً
فيما فعلت القرى^(٧٠)
وفي الرخا يتدلى

وله في عزة النفس:

ومستعبد إخوانه بثرائه
إذا ضمّني يوماً وإياه محفل
أخالفه في شكله وأجره
وقد زادني تيهاً على الناس أني
فوالله لا يُبدي لساني لجاجة
فلا يطمعن في ذاك مني طامع
فلو لم أرت فخر الكانت صيانتني
لبست له كبراً أبر على الكبر
يرى جانبي وعراً يزيد على الوعر
على المنطق المبرور والنظر الشرر
أراني أغناهم وإن كنت ذا فقر
إلى أحد حتى أغيب في قبري
ولا صاحب التاج المحجّب في القصر
عن الناس حسبي من سؤالي من الفخر

دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عندهم شراب ومغن،
فعرضوا عليه الجلوس فأبى، وأخذ الدواة والقرطاس وكتب:

إذا لم تَنْهَ نَفْسَكَ عَنْ هَوَاهَا
فإني قد شَبَعْتُ مِنَ الْمَعَاصِي
وَمِنْ أَسْوَأِ وَأَقْبَحِ مِنْ لَبِيبٍ
وَمِنْ شَعْرِ أَبِي نَوَاسٍ:

وَتُحَسِّنُ صَوْنَهَا فَإِلَيْكَ عَنِّي
وَمِنْ إِدْمَانِهَا وَشَبَعْنِ مَنِّي
يَرَى مُتَطَرِّبًا فِي مِثْلِ سَنِّي

عَفَى الْمَصْلَى وَأَقْوَتَ الْكُثْبُ
مَنَازِلٌ قَدْ عَمَرْتُهَا يَفْعًا
فِي فِتْيَةٍ كَالسِّيَوفِ هَزَّهْمُ
ثُمَّ أَرَابَ الزَّمَانُ فَانْقَسَمُوا
لَنْ يُخْلِفَ الدَّهْرُ مِثْلَهُمْ أَبَدًا
لَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنَّ رَوْحَهُمْ
أَبْلَيْتُ صَبْرًا لَمْ يُبْلِهِ أَحَدٌ
لِذَاكَ أَنِّي إِذَا رُزْتُ أَخَا
قُطْرَبْلٍ مَرْبَعِي وَلِي بُقْرَى الْـ
تُرْضِعُنِي دَرَّهَا وَتُلْحِفُنِي
إِذَا ثَنَّتْهُ الْغُصُونُ جَلَلَنِي
تَبَيْتُ فِي مَاتَمِ حَمَائِمِهِ
يَهِّبُ شَوْقِي وَشَوْقُهُنَّ مَعًا
فَقَمْتُ أَحْبُو إِلَى الرَّضَاعِ كَمَا
حَتَّى تَخِيرْتُ بِنْتَ دَسْكَرَةٍ
هَتَكْتُ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ
مِنْ نَسْجِ خَرْقَاءٍ لَا تُشَدُّ لَهَا

مَنِّي فَالْمَرْبِدَانِ فَالْلَهَبُ
حَتَّى بَدَأَ فِي عُذَارِي الشُّهُبُ
شَرَّخُ شَبَابٍ وَزَانِهِمْ أَدَبُ
أَيْدِي سَبَا فِي الْبِلَادِ فَانْشَعَبُوا
عَلَى هِيَهَاتَ شَأْنِهِمْ عَجَبُ
لَيْسَ لَهَا مَا حَيْثُ مُنْقَلَبُ
وَاقْتَسَمْتَنِي مَارَبُ شُعْبُ
فَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَسَبُ
كَرَّخَ مَصِيفٍ وَأَمِّي الْعَنْبُ
بَطْلَهَا وَالْهَجِيرُ يَلْتَهَبُ
فَيْنَانُ^(٧١) مَا فِي أَدِيمِهِ جَرَبُ
كَأَنَّ تَرَاءَى الْفَوَاقِدُ السُّلْبُ
كَأَنَّهَا يَسْتَخْفِنَا الطَّرَبُ
تَحَامَلُ الطِّفْلُ مَسَّهُ السَّغَبُ
قَدْ عَجَمْتُهَا السَّنُونُ وَالْحَقَبُ
مَهْلَهُلُ النَّسْجِ مَا لَهُ هُدْبُ
أَخِيَّةٌ فِي الثَّرَى وَلَا طَنْبُ

ثم توجَّأتْ خَصْرَهَا بِشَبَا الدِّ
فَاسْتَوْسَقَ الشَّرْبُ لِلنَّدَامِ وَأَجَدَ
أَقُولُ لِمَا تَحَاكِيَا شَبَهَا
هُمَا سَوَاءٌ وَفَرَقُ بَيْنَهُمَا
مُلْسٌ وَأَمْثَالُهَا مُحْفَرَةٌ
يَتَلُونُ إِنْجِيلَهُمْ وَفَوْقَهُمْ
كَأَنَّهُا لَوْلُو تَبَدُّدُهُ
إِشْفَى فِجَاءَتْ كَأَنَّهَا لَهْبُ
رَاهَا عَلَيْنَا اللَّجِينُ وَالْغَرْبُ^(٧٢)
أَيُّهَا لِلتَّشَابُهِ الذَّهَبُ
أَنَّهُمَا جَامِدٌ وَمَنْسَكِبُ
صُورٌ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّلْبُ
سَمَاءٌ خَمِرٌ نَجْوُمُهَا حَبَبُ
أَيْدِي عَذَارَى أَفْضَى بِهَا اللَّعْبُ

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأمين من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباء بخراسان أن يعيبوا الأمين بشعر أبي نواس ويقولوا هو جليسه ونديمه وينشدوا على المنابر شعره، فمنعه الأمين فقال:

غَنَّا بِالطَّلُولِ كَيْفَ بَلَيْنَا
مَنْ سُلَافٍ كَأَنَّهُ كُلُّ طَيْبٍ
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا
ثُمَّ شَجَّتْ فَاسْتَضَحَكَتْ عَنْ لَالٍ
وَإِذَا مَا لَمَسَتْهَا فَهَبَاءٌ
فِي كُتُوسٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ
طَالَعَاتٌ مِّنَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا
لَوْ تَرَى الشَّرْبَ حَوْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ
وَعِزَالٍ يُدِيرُهَا بَبْنَانٍ
ذَاكَ عَيْشٌ لَوْ دَامَ لِي غَيْرَ أَنِي
أَدِرِ الْكَاسَ حَانَ أَنْ تَسْقِينَا
وَاسْقِنَا نَعْطُكَ الثَّنَاءَ الثَّمِينَا
يَتَمَنَّى مَحْبَرٌ أَنْ يَكُونَ
وَتَبَقَّى لُبَابُهَا الْمَكُونَا
لَوْ تَجَمَّعْنَ فِي يَدٍ لَأَقْتُنِينَا
تَمْنَعُ الْكَفِّ مَا تُبِيحُ الْعُيُونَا
جَارِيَاتٌ بُرُوجُهَا أَيْدِينَا
فَإِذَا مَا غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَا
قَلَّتْ قَوْمٌ مِنْ قِرَّةٍ يَصْطَلُونَا
نَاعِمَاتٌ يَزِيدُهَا الْعُسْرُ لِينَا
عَفْثُهُ مَكْرَهَا وَخِفْتُ الْأَمِينَا
وَأَنْقُرِ الْعُودَ إِنَّهُ يُلْهِينَا

وَدَعَ الذِّكْرَ لِلطُّلُولِ إِذَا مَا دَارَتِ الْكَأْسُ يَسْرَةً وَيَمِينًا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر:

غَرَّدَ الدِّيكُ الصَّدُوحَ	فَاسْقِنِي طَابَ الصَّبُوحُ
اسْقِنِي حَتَّى تَرَاني	حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيحُ
قَهْوَةً تَذْكُرْ نُوحًا	حِينَ شَادَ الْفَلَكَ نُوحُ
نَحْنُ نُخْفِيهَا وَيَأْبَى	طَيْبُ عَرْفٍ فَيَفُوحُ
فَكَأَنَّ الْقَوْمَ نُهْبَى	بَيْنَهُمْ مَسْكٌ ذَبِيحُ
أَنَا فِي دُنْيَا مِنَ الْعَبْدِ	بِاسٍ أَغْدُو وَأَرْوَحُ
هَاشِمِيٌّ عُبْدِي	عِنْدَهُ يَغْلُو الْمَدِيحُ
عَلَّمَ الْجُودَ كِتَابُ	بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَلُوحُ
كُلَّ جَوِيَا أُمِيرِي	مَا خَلَا جُودَكَ رِيحُ
إِنَّمَا أَنْتَ عَطَايَا	أَبَدًا مَا تَسْتَرِيحُ
بَحَّ صَوْتُ الْمَالِ مَّا	مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ
مَا هَذَا أَحَدٌ فَوَّ	قَ يَدِيهِ أَوْ نَصِيحُ
جُذْتُ بِالْأَمْوَالِ حَتَّى	قِيلَ مَا هَذَا صَحِيحُ
فَهُوَ بِالْمَالِ جَوَادٌ	وَهُوَ بِالْعِرْضِ شَحِيحُ
صُورَ الْجُودُ مَثَالًا	وَلَهُ الْعِبَاسُ رُوحُ

قال محمد بن عيينة: لقيت أبا نواس بعسكر مكرم فقلت له: أحب أن

تشدني من شعرك شيئًا تضمن به على غيري، فأنشدني:

يَكْفِي الْكَرِيمَ مِنَ الْكَلَامِ مَنْ لَمْ يَحَادِثْهُ أَقْلُهُ

بأدقّه يَأْتِي أَجَلُهُ
مِ الْحُرِّ وَابْلُهُ فَطَلُّهُ
يُبْدِي فِرْنَدَ السِّيفِ سَلُّهُ
مَتَعَمِّدًا فَيَا يُذِلُّهُ
بِالْصَّفْحِ عَمَّنْ لَا يُجِلُّهُ

فَكُلُّ النَّاسِ حَسَنٌ وَاسْتِجَادًا
وَلَا أُعْطِنِي الْفِطْنُ الْقِيَادَا
وَجَدْتُ الْقَوْلَ يُمْكِنُنِي فَجَادَا

وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحُ صِيَا حَا
غَرْدًا يَصْفُقُ بِالْجَنَاحِ جَنَا حَا
كَمْ سَوِّفِينَ غَدَوَا عَلَيْكَ شَحَا حَا
بَدَرْتُ يَدَاهُ بِكَأْسِهِ الْإِصْبَا حَا
تَقْتَاتُ مِنْهُ فَكَاهَةٌ وَمَزَا حَا
وَأَزَحْتُ عَنْهُ نُعَاسَهُ فَاَنْزَا حَا
حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْءُهَا مِصْبَا حَا
كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَا حَا
عُطْلًا فَالْبَسَهَا الْمَزَاجَ وَشَا حَا
أَهْدْتُ إِلَيْكَ بِرِيحِهَا تَفَا حَا

وَالشَّيْءُ شَيْءٌ لَمْ يَزَلْ
إِنْ لَمْ يُصِيبْكَ مِنَ الْكَرِيهِ
يُبْدِي مَكَارِمَهُ كَمَا
وَالنَّذْلُ يُوقِعُ نَفْسَهُ
وَالْحُرُّ يَكْرِمُ نَفْسَهُ
وَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ يَمْدَحُ الْأَمِينَ:

صَبِيتُ عَلَى الْأَمِينِ ثِيَابَ مَدْحِي
وَلَوْلَا فَضْلُهُ مَا جَادَ شِعْرِي
وَقَالُوا قَدْ أَجَدْتَ فَقُلْتُ إِنِّي

وَمِنْ خَمْرِيَاتِهِ:

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحْرَةٍ فَارْتَا حَا
أَوْفَى عَلَى شَرَفِ الْجِدَارِ بِسُدْفَةٍ
فَأَدْرُ صَبَاحَكَ بِالصَّبُوحِ وَلَا تَكُنْ
إِنَّ الصَّبُوحَ جِلَاءَ كُلِّ مَخْمَرٍ
وَحَدِيدِ لَذَاتِ مَعَلِّ صَاحِبِ
نَبْهَتِهِ وَاللَّيْلُ مَلْتَبَسٌ بِهِ
قَالَ ابْنُ غَنِي الْمَصْبَاحِ، قُلْتُ لَهُ أَتَتَدُّ
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرْبَةً
مِنْ قَهْوَةٍ جَاءَتْكَ قَبْلَ مِزَاجِهَا
شَكَّ الْبِرَّالُ فَوَادَهَا فَكَأَنَّهَا

منها بهنّ سوى السُّبَاتِ جَرَّاحًا

صفراء تفترسُ النفوسَ فلا ترى

ومنها:

واشربُ على الورد من حمراء كالورد
أجدته حمرتها في العين والخذ
من كف لؤلؤة ممشوقة القد
خمرًا فما لك من سكرين من بُد
شيء خُصِصْتُ به من دونهم وخدي

لا تبك لئلي ولا تطربُ إلى هند
كأسًا إذا انحدرتُ في حلق شاربها
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة
تسقيك من طرفها خمرًا ومن يدها
لي نشوتان وللتدمان واحدة

كان الأصمعي يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة:

وطاب وقت الزمان واعتدلا
واستوفت الخمر حوّلها كَمَلَا
وَشَيَّ ثياب تخالُه حُلَا
أصبح وجهُ الزمان مقبلا
أزهبَ فيها الملام والعذلا
ش قصيرا وتبسُّط الأُملا
قوم إذا ما حبَّابها اتصلا
من لم يكن للكثير محتملا
واحمل على ذا بقدر ما احتملا
حسن وطيب ترى به المثلا

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلا
وغنَّت الطيرُ بعد عجمَتِها
واكتست الأرضُ من زخارفها
فاشربُ على جِدة الزمان فقد
من قهوة تُذهِبُ الهمومَ فلا
كرخية تترك الطويلَ من العي
تَلَمَعُ لمع السراب في قدح ال
يقول صرَّف إذا مزجت له
فسقَّ هذا بقدر طاقته
عُجْنَا بشيئين من طبائعها

كان أبو نواس لا يستنشد شيئا من شعره إلا أنشد هذه القصيدة:

وخيمة ناطور^(٧٣) برأس مُنيفةٍ تهم يدا من رامها بزليل^(٧٤)

إذا عارضتها الشمسُ فاءَ ظلالها
حَطَطْنَا بها الأثقالَ فلَّ^(٧٥) هَجِيرَةٌ
تَأْتَتْ^(٧٦) قَلِيلًا ثم فاءَتْ بِمَذَقَةٍ
كَأَنَّا لَدَيْهَا بَيْنَ عَظْفِي نَعَامَةٍ
حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دَرَّةَ الصَّبَا
إِذَا مَا أَتَتْ دُونَ اللِّهَاءِ مِنَ الْفَتَى
فَلَمَّا تَوَفَّى الشَّمْسَ جَنَحَ مِنَ الدُّجَى
وَعَاطَيْتُ مِنْ أَهْوَى الْحَدِيثِ كَمَا بَدَا
فَغَنَى وَقَدْ وَسَدْتُ يُسْرَايَ خَدَّهُ
وَأَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِحَقْوِي مُسَاعِدَ
وَأَصْبَحْتُ أَلْحَى السَّكْرِ وَالسُّكْرِ مُحَسِّنُ
كَفَى حَزْنًا أَنْ الْجَوَادَ مَقْتَرُ
سَأْبَغِي الْغَنَى إِمَّا جَلِيسَ خَلِيفَةٍ
بِكُلِّ فَتَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَانُهُ
لِنُخْمَسَ مَالِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى النَّدَى

وإن واجهتها آذنتُ بدُخُولِ
عُبُورِيَّةٍ تُذَكِّي بِغَيْرِ فَتِيلِ
مِنَ الظِّلِّ فِي رَثِّ الْأَبَاءِ ضَيْلِ
جَفَا زورُهَا عَنْ مَبْرَكٍ وَمَقِيلِ
بَصْهَبَاءَ مِنْ مَاءِ الْكُرومِ شُمُولِ
دَعَا هُمٍّ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ
تَصَابِيْتُ وَاسْتَجَمَلْتُ غَيْرَ جَمِيلِ
وَذَلَلْتُ صَعْبًا كَانَ غَيْرَ ذَلِيلِ
أَلَا رَبِّهَا طَالِبْتُ غَيْرَ مُنِيلِ
وإن كَانَ أَدْنَى صَاحِبٍ وَخَلِيلِ
أَلَا رَبِّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ ثَقِيلِ
عَلَيْهِ وَلَا مَعْرُوفَ عِنْدَ بَخِيلِ
يَقُومُ سَوَاءً أَوْ مَخِيفَ سَبِيلِ
إِذَا نَوَّهَ الزَّحْفَانِ بِاسْمِ قَتِيلِ
أَخِي بَطْنَةَ لِلطَّيِّبَاتِ أَكُولِ
وَلَيْسَ جَوَادٌ مَقْتَرٌ كَبَخِيلِ

فإن استزيد أنشد هذه القصيدة الأخرى:

كَانَ الشَّبَابُ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ
كَانَ الْجَمَالُ إِذَا ارْتَدَيْتُ بِهِ
كَانَ الْبَلِيغُ إِذَا نَطَقْتُ بِهِ
كَانَ الْمَشْفَعُ فِي مَآرِبِهِ

وَمَحْسَنُ الضَّحَكَاتِ وَالْمَهْزَلِ
وَمَشَيْتُ أَخْطَرَ صَيِّتِ النُّعْلِ
وَأَصَاخَتِ الْأَذَانُ لِلْمُمْلِيِّ
عِنْدَ الْفَتَاةِ وَمَدْرِكِ التَّبَلِ

والآمري حتى إذا عزمت
فالآن صرْتُ إلى مقاربة
والراح أهواها وإن رزأت
صفراء مجدها مرازبها
ذخرت لآدم قبل خلقته
فأتاك شيء لا تلامسه
فترود منها العين في بشر
فإذا علاها الماء ألبسها
حتى إذا سكنت جوامحها
خطّين من شتى ومجتمع
فاعذر أخاك فإنه رجل

نَفْسِي أَعَانَ يَدَيَّ بِالْفِعْلِ
وَحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ الصَّبَارِ خَلِي
بُلُغَ الْمَعَاشِ وَقَلَّلْتُ فَضْلِي
جَلَّتْ عَنِ النَّظَرَاءِ وَالْمَثَلِ
فَتَقَدَّمْتُهُ بِحُظْوَةِ الْقَبْلِ
إِلَّا بِحَسَنِ غَرِيزَةِ الْعَقْلِ
حُرَّ الصَّفِيحَةِ نَاصِعَ سَهْلٍ
حَبِيبًا شَبِيهَ جَلَا جَلِّ الْحَجَلِ
خَطَّتْ بِمِثْلِ أَكَارِعِ النَّمْلِ
غُفِّلَ مِنَ الْإِعْجَامِ وَالشَّكْلِ
مَرَنْتُ مَسَامِعُهُ عَلَى الْعَذْلِ

ومن طيب شعره، والشرط الأول من القصيدة لفظ ابن الدمينية:

أَعَاذَلْ مَا عَلَى وَجْهِي قُتُومُ
يَفْضُلْنِي عَلَى الْفَتَيَانِ أَنِي
أَعَاذَلْ إِنْ يَكُنْ بُرْدَايَ رَثَا
شُقِقْتُ مِنَ الصَّبَا وَاشْتَقَّ مِنِّي
فَلَسْتُ أَسُومُ لِلذَّاتِ نَفْسِي
وَمَتَّصِلٌ بِأَسْبَابِ الْمَعَالِي
رَفَعْتُ لَهُ النِّدَاءَ بِقُمْ فَخُذْهَا
بِتَفْدِيَةٍ تَزَالُ النَّفْسُ فِيهَا
فَقَامَ وَقَمْتُ مِنْ أَخَوَيْنِ هَاجَا

وَلَا عَرَضِي لِأَوَّلِ مَنْ يَسُومُ
أَبَيْتُ فَلَا أَلَامَ وَلَا أَلُومَ
فَلَا يَعْدَمُكَ بَيْنَهُمَا كَرِيمُ
كَمَا اشْتَقَّتْ مِنَ الْكَرَمِ الْكُرُومُ
مِثْلُ مِثْلِهِ كَمَا دَفَعَ الْغَرِيمُ
لَهُ فِي كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَدِيمُ
وَقَدْ أَخَذْتُ مَطَالَعَهَا النُّجُومُ
وَتَمَتَّهْنَ الْخُتُولَةُ وَالْعُمُومُ
عَلَى طَرَبٍ وَلَيْلُهُمَا بَهِيمُ

أَجَرَ الزُّقَّ وَهُوَ يَجِرُّ رَجُلًا
سَلَّ النَّذَمَانِ مَا أَوْلَتْهُ مِنْهَا
كَلاَّ الشَّخْصَيْنِ مُتَصِفٌ وَلَكِنْ
يَجُورُ بِهِ النَّعَاسُ وَيَسْتَقِيمُ
وَسَلَّهَا مَا اِحْتَوَى مِنْهَا الْكَرِيمُ
قَضَتْ وَطَرًا وَذَا مِنْهَا سَقِيمُ

وقال:

إِنِّي صَرَفْتُ الْهَوَى إِلَى قَمَرٍ
إِذَا تَأَمَّلْتَهُ تَعَاظَمَكَ الْـ
لَمْ تَبْتَذِلْهُ الْعَيُونُ بِالنَّظَرِ
إِقْرَأْ أَنَّهُ مِنَ الْبَشَرِ

ومن قوله:

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ
فَاسْقِنِي الْبَكَرَ الَّتِي اخْتَمَرَتْ
ثُمَّتْ أَنْصَاتِ الشَّبَابُ لَهَا
فَهِيَ لِلْيَوْمِ الَّتِي بُزِلَتْ
عَتَّقْتُ حَتَّى لَوْ اتَّصَلْتُ
لَا حُبَّتْ فِي الْقَوْمِ مَائِلَةٌ
فَرَعْتُهَا بِالْمَزَاجِ يَدٌ
فِي نَدَامَى سَادَةِ زُهْرٍ
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ
فَعَلْتُ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِجْتُ
فَاهْتَدَى سَارِي الظَّلَامِ بِهَا
نَمَتَ عَنْ لَيْلٍ وَلَمْ أَنْمِ
بِخِمَارِ الشَّيْبِ فِي الرَّحِمِ
بَعْدَ مَا جَازَتْ مَدَى الْهَرَمِ
وَهِيَ تَرْبُ الدَّهْرِ فِي الْقَدَمِ
بِلِسَانٍ نَاطِقٍ وَفَمٍ
ثُمَّ قَصَّتْ قِصَّةَ الْأُمَمِ
خُلِقْتُ لِلسِّيفِ وَالْقَلَمِ
أَخَذُوا اللَّذَاتِ مِنْ أُمَمٍ
كَتَمَشِّي الْبُرْءِ فِي السَّقَمِ
مِثْلَ فَعْلِ الصَّبْحِ فِي الظُّلَمِ
كَاهْتِدَاءِ السَّفَرِ بِالْعَلَمِ

ومن طرديات أبي نواس في صفة الكلب:

أَنْعْتُ كَلْبًا أَهْلُهُ مِنْ كَدِّهِ
قَدْ سَعِدْتُ جُدُودَهُمْ بِجَدِّهِ

فكلّ خير عندهم من عنده وكل رفد نالهم من رفده
يظلّ مولاه له كعبده يبيت أدنى صاحب من مهده
وإن عرى جلّله ببردّه ذا غرّة محجّلاً بزنده
تلذّ منه العين حسن قدّه يا حُسن شدّقيه وطول قدّه
تلقيّ الطباء عتّا من طردّه يشرب كأساً شدها من شده
يا لك من كلب نسيج وحده

أبو نواس وجنان

قال أبو الفرج: كانت جنان هذه جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، وكانت حلوة جميلة المنظر أدبية، ويقال: إن أبا نواس لم يصدّق في حب امرأة غيرها، وقيل له يوماً إن جنان قد عزمت على الحج، فكان هذا سبب حجه وقال: أما والله لا يفوتني المسير معها والحج عامي هذا إن أقامت على عزيمتها! وقال وقد حج وعاد:

ألم تر أنني أفنيت عمري بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجِد سبباً إليها يقربني وأعيّني الأمور
حججتُ وقلتُ قد حجّت جنانُ فيجمعني وإياها المسير

قال من شاهده حين حج مع جنان وقد أحرم: لما جتّه الليل جعل يلبي بشعر ويحدو به ويطرب، فغنى به كل من سمعه وهو قوله:

إلهنا ما أعدلك ملك كل من ملك
ليّك قد ليّيتُ لك ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك والليل لما أن حلك

والسباحات في الفلك على مجاري المنسلك
ما خاب عبد أملك أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك كل نبي وملك
وكل من أهل لك سبح أو لبى فلك
يا مخطئا ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك لبيك إن الملك لك
والحمد والنعمة لك والعز لا شريك لك

وفيهما يقول:

جفن عيني قد كان يسقط من طول ما اختلج
وفؤادي من حر حبك والهجر قد نضج
خبريني فديك نفسي وأهلي متى الفرج
كان ميعادنا خرو ج زياد فقد خرج
أنت من قتل عائذ بك في أضيقي الحرج

قال الأصفهاني: قال محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي: دخلنا على أبي نواس نعوده في علته التي مات فيها، فقال له علي بن صالح الهاشمي: يا أبا علي، أنت في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا، وبينك وبين الله عز وجل هنأت، فتب إلى الله عز وجل. فبكى ساعة ثم قال: ساندوني ساندوني! ثم قال: أأخوف بالله عز وجل وقد حدثني حماد بن مسلم عن زيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي شفاعة، وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة». أفتراني لا أكون منهم؟

ومن قوله في مرض موته:

دَبَّ فِي السَّقَامُ عَلَّوًا وَسُفْلًا وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعُضْوًا
لَيْسَ تَمُضِي مِنْ لَحْظَةٍ بِي إِلَّا نَقَصْتَنِي بِمَرِّهَا فِي جُزْوًا
ذَهَبْتُ جِدَّتِي بِحَاجَةٍ نَفْسِي وَتَطَلَبْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نَضْوًا
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيْلٍ وَأَيَّا مَ تَجَاوَزْتُهُنَّ لَعْبًا وَلَهْوًا
قَدْ أَسَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ فَالِلْ هَمِّ صَفْحًا عَنَا وَغَفْرًا وَعَفْوًا

ثم قال:

شِعْرٌ حَيٍّ أَتَاكَ مِنْ لَفْظِ مَيِّتٍ صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقَفَا
قَدْ بَرَتْ جِسْمَهُ الْحَوَادِثُ حَتَّى كَادَ عَنْ عَيْنِ الْخَلَائِقِ يَخْفَى
لَوْ تَأَمَّلْتَنِي لَتُبْصَرَ وَجْهِي لَمْ تَبْنِ مِنْ كِتَابِ وَجْهِي خَرْفَا
وَلَكَّرَزْتَ طَرْفَ عَيْنِكَ فِيمَنْ قَدْ بَرَاهِ السَّقَامِ حَتَّى تَعْفَى

وكان عمر أبي نواس تسعاً وخمسين سنة، وكانت وفاته قبل دخول
المأمون مدينة السلام بست سنين (سنة ١٩٨).

(٢) العتابي^(٧٧)

قال أحمد بن سهل: تذاكرنا شعر العتابي فقال بعضنا: فيه تكلف، ونصره
بعضنا، فقال: شيخ حاضر: ويحكم! أيقال إن في شعره تكلفاً وهو القائل:

رُسُلُ الضَّمِيرِ إِلَيْكَ تَتَرَى بِالشُّوقِ ظَالِعَةً وَحَسَرَى
مَتَزَجِّياتُ^(٧٨) مَا يَنْبِ
مَا جَفَّ لِلْعَيْنَيْنِ بَعْدَ سَدِّكَ يَا قَرِيرَ الْعَيْنِ مَجْرَى
فَاسْلَمْ سَلِمَتْ مُبَرَّأً مِنْ صَبُوتِي أَبَدًا مُعَرَّى

إِن الصبابةَ لم تَدَعْ مِنِّي سوى عَظْمٍ مُبَرَّى
ومدامع عَبْرَى على كَبِدٍ عليك الدهرُ حَرَّى
أُويقال إنه متكلف وهو الذي يقول:

فلو كان للشكر شخصٌ يبين إذا ما تأمله الناظرُ
لمثَّله لك حتى تراه لتعلم أني امرؤ شاكر

وَجَدَ الرشيدُ على العتابي فدخل سرًّا مع المتظلمين بغير إذن، فمثل بين
ييدي الرشيد وقال له: يا أمير المؤمنين، قد آذنتي الناس لك ولنفسي فيك،
وردَّني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع تذكرك قناعة بغيرك، ولنعم الصائن
لنفسي كنت لو أعانني عليك الصبر، وفي ذلك أقول:

أَخِضُّنِي المقامَ الغمرَ إن كان غَرَّنِي سَنَا خُلِبَ أو زَلَّتِ القَدَمَانِ
أَتَرَكنِي جَذَبَ المعيشةَ مُقْتَرًا وكَفَّاكَ مِن ماء الندى تَكْفَانِ
وتجعلني سهم المطامع بعد ما بَلَّلْتَ يميني بالندى ولساني

فأعجب الرشيد قوله، وخرج وعليه الخلع، وقد أمر له بجائزة.
كَلَّمَ العتابي يحيى بن خالد في حاجة بكلمات قليلة، فقال له يحيى: لقد نزر
كلامك اليوم وقل. فقال له: وكيف لا يقل وقد تكنفني ذل المسألة وحيرة الطلب
وخوف الرد؟ فقال: والله لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده، وقضى حاجته.
قال يحيى بن خالد البرمكي لولده: إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن
عمر و العتابي فضلًا عن رسائله وشعره، فلن تروا أبدًا مثله.

وقف العتابي بباب المأمون يلتمس الوصول إليه، فصادف يحيى بن أكثم
جالسًا ينتظر الإذن، فقال له: إن رأيت — أعزك الله — أن تذكر أمري

لأمير المؤمنين إذا دخلت فافعل. قال له: لست — أعزك الله — بحاجة. قال: فإن لم تكن حاجبًا فقد يفعل مثلك ما سألت، واعلم أن الله عز وجل جعل في كل شيء زكاة، وجعل زكاة المال رفق المستعين، وزكاة الجاه إغاثة المهلول؛ واعلم أن الله عز وجل مقبل عليك بالزيادة إن شكرت، أو التغير إن كفرت. وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك، لأنني أدعوك إلى ازدياد نعمتك وأنت تأبى. فقال له يحيى: أفعل وكرامة. وخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن استأذن المأمون للعتابي، فأذن له. وقيل له: لو تزوجت! فقال: إني وجدت مكابدة العفة أيسر علي من الاحتيال لمصلحة العيال.

قال دعل: ما حسدتُ أحدًا قط على شعر كما حسدت العتابي على قوله:

هَيْبَةُ الْإِخْوَانِ قَاطِعَةٌ لِأَخِي الْحَاجَاتِ عَنْ طَلْبِهِ
فَإِذَا مَا هَبَتْ ذَا أَمَلٍ مَاتَ مَا أَمَلَتْ مِنْ سَبِيهِ

كان العتابي جالسًا ذات يوم ينظر في كتاب، فمر به بعض جيرانه، فقال: أيش ينفع العلم والأدب من لا مال له؟ فأنشد العتابي قوله:

يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا ثَقُفُوا ذَا اللَّبِّ يَنْظُرُ فِي الْأَدَابِ وَالْحَكَمِ
قَالُوا: وَلَيْسَ بِهِمْ إِلَّا نَفَاسَتُهُ ^(٧٩) أَنْفَعُ ذَا مِنَ الْإِقْتَارِ وَالْعُدْمِ
وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَا الْحِظُّ الَّذِي حُرِّمُوا — لِحَاهِمِ اللَّهِ — مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ فَهْمٍ

ومن قوله أيضًا:

لئن كانت الدنيا أنالئك ثروة فأصبحت ذايسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الإثراء منك مخازيًا من اللؤم كانت تحت ستر من الفقر

وقال أيضاً:

رَحَلَ الرَّجَاءُ إِلَيْكَ مَغْتَرِبًا حُشِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ
رَدَّتْ إِلَيْكَ نَدَامَتِي أَمَلِي وَثْنَا إِلَيْكَ عِنَانَهُ شَكْرِي
وَجَعَلْتُ عَتَبَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ وَرَجَاءَ عَفْوِكَ مَتْنَهِيَ أَمَلِي

لما سعى منصور النمرى بالعتابي إلى الرشيد اغتاض عليه فطلبه، فستره جعفر بن يحيى عنه مدة وجعل يستعطفه عليه حتى استل ما في نفسه وأمنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى:

مَازَلْتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَرِّحًا قَدْ ضَاقَ عَنِي فَسِيحُ الْأَرْضِ مِنْ حِيلِي
وَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي حَتَّى اخْتَلَسَتْ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي

عاد عبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب كلثوم بن عمرو العتابي في علة اعتلها، فقال الناس: هذه خطرة خطرت. فبلغ ذلك العتابي، فكتب إلى عبد الله بن طاهر:

قَالُوا الزِّيَارَةُ خَطَرَةٌ خَطَرْتُ وَبِحَارٍ بَرَكَ لَيْسَ بِالْخَطَرِ
أَبْطَلُ مَقَالَتَهُمْ بَثَانِيَةً تَسْتَنْفِدُ الْمَعْرُوفَ مِنْ شَكْرِي

فلما بلغت أبياته عبد الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق فعاداه مرة ثانية.

كانت له امرأة من باهلة، فلما مضى إلى رأس عين قالت له: هذا منصور النمرى، قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعاً وأنت ههنا كما ترى! فأنشأ يقول:

تلوم على تَرَك الغنى باهليَّة	ذوى الفقر عنها كلَّ طَرَف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرى	مقلَّدة أعناقُها بالقلائد
أَسْرَكَ أني نلت ما نال جعفر	من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصني	مغصهما بالمرهفات البوارد
رأيت رفيفات الأمور مشوبة	بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تجنني ميتتي مطمئنة	ولم أتجشم هول تلك الموارد

لما قدم العتابي مدينة السلام على المأمون أذن له، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وكان العتابي شيخاً جليلاً نبيلًا، فسلم فرد عليه وأدناه وقربه حتى قرب منه، فقبل يده، ثم أمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه يسأله عن حاله وهو يحبه بلسان ذلق طلق، فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح، فظن الشيخ أنه استخف به، فقال: يا أمير المؤمنين، الإيناس قبل الإيساس.^(٨٠) فاشتبه على المأمون قوله، فنظر إلى إسحاق مستفهمًا، فأوماً إليه وغمزه على معناه حتى فهم، فقال: يا غلام، ألف دينار! فأتى بذلك، فوضع بين يدي العتابي وأخذوا في الحديث، وغمز المأمون إسحاق بن إبراهيم عليه، فجعل العتابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه إسحاق، فبقى العتابي متعجبًا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سل. فقال لإسحاق: يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس واسمي كلُّ بصل. فتبسم العتابي وقال: أما أنت فمعروف وأما الاسم فمنكر. فقال إسحاق: ما أقل إنصافك! أتنكر أن يكون اسمي كلُّ بصل، واسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتابي: لله درك! فما أحجك، أتأذن لي

يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلتني به؟ فقال المأمون: بل ذلك موَفَّر عليك ونأمر له بمثله. فقال له إسحاق: أما إذ أقررت بهذه فتوهمني تجدني. فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلي الذي يتناهى إلينا خبره. قال: أنا حيث ظننت. وأقبل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما: أما إذ قد انفقتما على المودة فانصرفا متنادمَيْن. فانصرف العتابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الوراق: رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحك! أما تستحي؟ فقال لي: رأيت لو كنا في دار بها بقر كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا! قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر! فقام فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبه أنفه لم يدخل النار! فما بقي أحد إلا أخرج لسانه يومئ به نحو أرنبه أنفه ويقدره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرقوا قال لي العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟

قال الفضل: رأيت العتابي بين يدي المأمون وقد أسَنَّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فما زال المأمون ينهضه رويداً رويداً حتى أقله فنهض.

وكتب كلثوم بن عمرو العتابي إلى صديق له يستجديه:

أما بعد — أ طال الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة — فإنك كنتَ عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها؛ وكنا نعفيها من النُّجعة^(٨١) استئماً لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف اشتد

علينا كَلْبُها،^(٨٢) وغابت قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك. وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد،^(٨٣) وأنتك تغطي عين الحاسد. والله يعلم أني ما أعدك إلا في حومة^(٨٤) الأهل. واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده ولم تظهر همته. وأنا أقول في ذلك:

إذا تكرمت عن بذل القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سدّ فقراً فهو محمود

قيل فشاطره جميع ماله.

(٣) دِعبِل^(٨٥)

شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير.

وكان دعبِل من الشيعة المشهورين بالميل إلى عليّ صلوات الله عليه. وقصيدته: «مدارس آيات خلت من تلاوة» من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا علي بن موسى الرضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه، وخلع عليه خلعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قُم ثلاثين ألف درهم، فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها؛ فقال لهم: إنها إنما تُراد لله عز وجل وهي محرّمة عليكم. فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفته، فأعطوه فردّ كمّ، فكان من أكفانه.

قال إبراهيم بن المهدي للمأمون قولاً في دعبل يخرضه عليه؛ فضحك المأمون وقال: إنما تحرصني عليه لقوله فيك:

يا معشر الأجناد لا تَقْنَطُوا	وارضوا بما كان ولا تَسْخَطُوا
فسوف تُعْطُونَ حُنَيْنِيَّةً ^(٨٦)	يَلْتَذُّهَا الْأَمْرُدُ وَالْأَشْمَطُ
وَالْمُعْبِدِيَّاتِ ^(٨٧) لقوادكم	لا تدخل الكيس ولا تُرْبَطْ
وهكذا يرزق قوَّاده	خليفةً مُصْحَفُهُ الْبَرْبَطُ
قد ختم الصَّكَّ بأرزاقكم	وصحَّح العزم فلا تسخَطُوا
بَيْعَةً إبراهيم مشئومةً	يُقْتَلُ فِيهَا الْخَلْقُ أَوْ يَقْحَطُوا

فقال له إبراهيم: فقد والله هجأك أنت يا أمير المؤمنين. فقال: دُع هذا عنك، فقد عفوت عنه في هجائه إياي لقوله هذا! وضحك. ثم دخل أبو عباد، فلما رآه المأمون من بعد قال لإبراهيم: دعبل يجسر على أبي عباد في الهجاء ويحجم عن أحد! فقال له: وكأن أبا عباد أبسط يداً منك يا أمير المؤمنين! قال: لا! ولكنه حديد جاهل لا يؤمن، وأنا أحلم وأصفح، والله ما رأيت أبا عباد مقبلاً إلا أضحكني قول دعبل فيه:

أولى الأمور بضيعة وفساد	أمرٌ يدبِّره أبو عباد
حرقٌ على جلسائه فكأنهم	حَضَرُوا الْمَلْحَمَةَ وَيَوْمَ جَلَادِ
يَسْطُو عَلَى كِتَابِهِ بِدَوَاتِهِ	فَمُضْمَخٌ بِدَمٍ وَنَضَحَ مِدَادِ
وكانه من دَيْرِ هَرْقَلٍ مُفْلِتٌ	حَرْدٌ يَجْرُ سِلَاسِلُ الْأَقْيَادِ
فأشدُّ أمير المؤمنين وثاقه	فأصحُّ منه بقيّة الحَدَادِ

وكان «بقيّة» هذا مجنوناً في البيمارستان.

قال أبو خالد الخزاعي لدعبل: ويحك! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف، فلو كففت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك! فقال: ويحك! إني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة، ولا يبالي الشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يُخَفَّ شره، ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك في تشريفه، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم، وليس كل من شَرَّفته شَرُف، ولا كل من وصفته بالجلود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك، فإذا رآك أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أبا خالد! إن الهجاء المقذع آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع! فضحك أبو خالد وقال: هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه.

كان سبب خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر ويصحب الشطار، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه إلى منزله، فلما طلع مقبلاً إليهما وثبا إليه فجرحاه وأخذ ما في كمه، فإذا هي ثلاث رمانات في خرقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه، ومات الرجل مكانه، واستتر دعبل وصاحبه، وجَدَّ أولياء الرجل في طلبهما وجَدَّ السلطان في ذلك، فطال على دعبل الاستتار فاضطر إلى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبقَ من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد: كنا يوماً بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبل، فلما رأيناه قلنا: هذا صيدنا، فأخذناه، فقال صالح: ما نصنع به؟

قلنا: نذبحه. فذبحناه وشويناه، وخرج دعبل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح، فطلبه منا فوجدناه وشربنا يومنا، فلما كان من الغد خرج دعبل فصلى الغداة ثم جلس على باب المسجد — وكان ذلك المسجد مجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويتتابهون الناس — فجلس دعبل على باب المسجد وقال:

أَسْرَ الْمُؤَذِّنَ صَالِحَ وَضِيؤُهُ	أَسْرَ الْكَمِّي هَفَا خِلَالِ الْمَاقِطِ
بَعَثُوا عَلَيْهِ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ	مَنْ بَيْنَ نَاتِفَةٍ وَآخِرِ سَامِطِ
يَتَنَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْثَقُوا	خَاقَانَ أَوْ هَزَمُوا قِبَائِلَ نَاعِطِ ^(٨٨)
نَهَشُوهُ فَانْتَزَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ	وَتَهَشَّمَتْ أَقْفَاؤُهُمْ بِالْحَائِطِ

فكتبها الناس عنه ومضوا؛ فقال لي أبي، وقد رجع إلى البيت: ويحكم! ضاقت عليكم المأكول فلم تجدوا شيئاً تأكلونه سوى ديك دعبل! ثم أنشدنا الشعر، وقال: لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا اشتريته وبعثت به إلى دعبل وإلا وقعنا في لسانه! ففعلت ذلك.

قال أحمد بن أبي كامل: كان دعبل ينشدني كثيراً هجاءً له، فأقول له: فيمن هذا؟ فيقول: ما استحقه أحد بعينه بعد، وليس له صاحب، فإذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر.

كان دعبل يختلف إلى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرّجه وفهّمه وأدّبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوّه:

يَا بُؤْسَ لِلْفَضْلِ لَوْلَمْ يَأْتِ مَا عَابَهُ	يَسْتَفْرِغُ السَّمَّ مِنْ صَمَاءِ قِرْضَابِهِ
مَا إِنْ يَزَالُ فِيهِ الْعَيْبُ يَجْمَعُهُ	جَهْلًا لِأَعْرَاضِ أَهْلِ الْمَجْدِ عِيَابِهِ

إن عابني لم يَعِبْ إلا مؤدِّبه ونفسه عاب لما عاب أدَّابه
فكان كالكلب ضَرَّاه مكلِّبه لغيره فعدا فاصطاد كلابه
كان دعبل يقول: ما كانت لأحد قط عندي منَّة إلا تمنيتُ موته.
كتب دعبل إلى أبي نهشل بن حميد الطوسي قوله:

إنما العيشُ في مُنادمة الإخِوا ن لا في الجلوس عند الكعاب
وبصرف كأنها ألسُن البر ق إذا استعرضت رقيق السحاب
إن تكونوا تركتُم لذة العي ش حذار العقاب يوم العقاب
فدعوني وما ألد وأهوى وادفعوا بي في صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغاني: سمعت دعبلاً يقول في كلام جرى
«لَيْسَكَ» فأنكرته عليه؛ فقال: دخل زيد الخيل على النبي ﷺ فقال له: «يا
زيد ما وصف لي رجل إلا رأيته دون وصفه لَيْسَكَ». يريد غيرك.
قال عمرو بن مسعدة: حضرت أبا دلف عند المأمون وقد قال له المأمون:
أي شيء تروي لأخي خزاعة يا قاسم؟ فقال: وأي أخي خزاعة يا أمير
المؤمنين؟ قال: ومن تعرف فيهم شاعراً؟ فقال: أما من أنفسهم فأبو الشيص
ودعبل وابن أبي الشيص وداود بن أبي رزين، وأما من مواليتهم فطاهر وابنه
عبد الله. فقال: ومن عسى من هؤلاء أن يسأل عن شعره سوى دعبل! هات
أي شيء عندك فيه؟ فقال: وأي شيء أقول في رجل لم يسلم عليه أهل بيته
حتى هجأهم، فقرن إحسانهم بالإساءة وبذلهم بالمنع وجودهم بالبخل،
حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه! قال: حين يقول ماذا؟ قال: حين
يقول في المطلب بن عبد الله بن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه،
وقد وفد إليه إلى مصر فأعطاه الجزيل وولاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه:

اضربْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلَحَاتِ مَتْنَدًا بلُؤْمٍ مَطْلَبَ فِينَا وَكُنْ حَكَمًا
تُخْرِجُ خُرَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ فَلَا تَحْسَ لَهَا لُؤْمًا وَلَا كَرَمًا

فقال المأمون: قاتله الله! ما أغوصه وأطفه وأدهاه! وجعل يضحك.
ثم دخل عبد الله بن طاهر فقال: أي شيء تحفظ يا عبد الله لدعلج؟ فقال:
أحفظ أبياتاً له في أهل بيت أمير المؤمنين. قال: هاتها ويحك! فأنشده:

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لَأَيَّامِ الصَّبَابَاتِ أَيَّامِ أَرْفُلٍ فِي أَثْوَابِ لَذَاتِي
أَيَّامِ غَصْنِي رَطِيبٍ مِنْ لَيَّانَتِهِ أَصْبُو إِلَى غَيْرِ جَارَاتٍ وَكُنَّاتٍ
دُعْ عَنْكَ ذِكْرَ زَمَانٍ فَاتٍ مَطْلُبُهُ وَاقْذِفْ بِرَحْلِكَ عَنْ مَتْنِ الْجَهَّالَاتِ
وَاقْصِدْ بِكُلِّ مَدِيحٍ أَنْتَ قَائِلُهُ نَحْوَ الْهَدَاةِ بَنِي بَيْتِ الْكَرَامَاتِ

فقال المأمون: إنه قد وجد والله مقالاً فقال، ونال ببعيد ذكرهم ما لا
يناله في وصف غيرهم.

ومن قول دعلج وفيه غناء:

أَيَّنَ الشَّبَابَ وَأَيَّةً سَلَكَ لَا أَيْنَ يُطْلَبُ ضَلٌّ مِنْ هَلْكََا
لَا تَعْجِبِي يَا سَلَمٌ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
يَا لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ يَوْمُكُمْ يَا صَاحِبِي إِذَا دَمِي سَفِكََا
لَا تَأْخُذُوا بِظِلَامَتِي أَحَدًا قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دَمِي اشْتَرَا

قال إبراهيم بن المدبر: لقيت دعلج بن علي فقلت له: أنت أجسر الناس
عندي وأقدمهم حيث تقول:

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَّفْتُكَ بِمَقْعَدٍ
رَفَعُوا مَحْلَكَ بَعْدَ طَوْلِ خَمُولِهِ وَاسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الْحُضِيِّضِ الْأَوْهَدِ

وأولها:

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيْدِ والنائباتُ من الأنام بمَرْصِدِ

فقال: يا أبا اسحاق، أنا أحمل خشبتي منذ أربعين سنة، فلا أجد من يصلبني عليها.

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى، وكانت الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرون به، وكان إذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم إليه ودعا بغلاميه: نفنف وشعف، وكانا مغنيين، فأقعهما يغنيان وسقاهاهم وشرب معهم وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يواصلونه ويصلونه. وأنشد دعبل لنفسه في بعد أسفاره:

حلَّلتُ محلاً يقصرُ البرقُ دونه ويعجز عنه الطيفُ أن يتجشَّما

قال البحري: دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد؛ لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذاهبهم؛ وكان يتعصب له.

كان المعتصم ييغض دعبلاً لطول لسانه. وبلغ دعبلاً أنه يريد اغتياله وقتله، فهرب إلى الجبل؛ وقال يهجو:

بكى لشتات الدين مكتئبٌ صبُّ	وفاض بفرط الدمع من عينه غرْبُ
وقام إمام لم يكن ذا هداية	فليس له دين وليس له لب
وما كانت الأنباء تأتي بمثله	يملك يوماً أو تدين له العُرب
ولكن كما قال الذين تتابعوا	من السلف الماضين إذ عظم الخطب

ملوك بني العباس في الكُتُب سبعة
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة
وإني لأعليّ كلبهم عنك رفعة
لقد ضاع مُلك الناس إذ ساس مُلكهم
وفُضِّل بن مروان يُتَلَم ثلثة
ولم تأتينا عن ثامن لهم كُتُب
خيارٌ إذا عُدّوا وثامنهم كُلب
لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
وصيفٌ وأشناس وقد عظم الكرب
يظل لها الإسلام ليس له شُعب

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه:

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وانصرفوا
لن يجبر الله أمةً فقدتُ
فقال دعبل يعارضه:
في شرّ قبر لشر مدفون
خَلَقَك إلا من الشياطين
أضرّ بالمسلمين والدين
الحمد لله لا صبر ولا جلد
خليفة مات لم يحزن له أحد
في خير قبر لخير مدفون
مثلك إلا بمثل هارون
قد قلتُ إذ غَيَّبوه وانصرفوا
أذهب إلى النار والعذاب فما
ما زلت حتى عقدت بيعة من
وقال في ذلك وفي قيام الواثق:
ولا عزاء إذا أهل البلاء رقدوا
وآخر قام لم يفرح به أحد

ولقد أحسن في وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه:

ألم يَأْن للسفر الذين تحمّلوا
فقلت ولم أملك سوابق عبّرة
تبين فكم دار تفرّق شملها
كذاك الليالي صرْفهن كما ترى
إلى وطن قبل الممات رجوع
نطقن بما ضمت عليه ضلوع
وشمل شتيت عاد وهو جميع
لكل أناس جذبة وربيع

ثم قال: ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري
وهجيراى ومسلتي حتى أعود.

ومن قول دعبل وفيه غناء:

سَرَى طَيْفٌ لَيْلٍ حِينَ آنَ هُبُوبُ وَقَضَّيْتُ شَوْقًا حِينَ كَادَ يَذُوبُ
فَلَمْ أَرَ مَطْرُوقًا يَحِلُّ بِرَحْلَةٍ وَلَا طَارِقًا يَقْرِى الْمُنَى وَيُثِيبُ

ومن قوله:

لَقَدْ عَجَبْتُ سَلْمَى وَذَاكَ عَجِيبُ رَأَتْ بِي شَيْبًا عَجَّلَتْهُ خُطُوبُ
وَمَا شَيَّبَتْنِي كِبَرَةٌ غَيْرَ أَنَّنِي بَدَّهَرَ بِهِ رَأْسُ الْفَطِيمِ يَشِيبُ
وَقَالَ فِي صَالِحِ بْنِ عَطِيَّةِ الْأَضْجَمِ، وَكَانَ مِنْ أَقْبَحِ النَّاسِ وَجْهًا،
وَخَاطَبَ فِيهَا الْمَعْتَصِمَ:

قُلْ لِلْإِمَامِ إِمَامٌ آلُ مُحَمَّدٍ قَوْلُ امْرِئٍ حَدَّبَ عَلَيْكَ مُحَامٍ
أَنْكَرْتُ أَنْ تَفْتَرَّ عَنْكَ صَنِيعَةٌ فِي صَالِحِ بْنِ عَطِيَّةِ الْحَجَّامِ
لَيْسَ الصَّنَائِعُ عِنْدَهُ بِصَنَائِعٍ لَكُنْهِنَّ طَوَائِلُ الْإِسْلَامِ
إِضْرَبْ بِهِ جَيْشَ الْعَدُوِّ فَإِنَّهُ جَيْشٌ مِنَ الطَّاعُونَ وَالْبُرْسَامِ

قال أبو تمام: ما زال دعبل ماثلاً إلى مسلم بن الوليد مقرراً بأستاذيته، حتى ورد عليه بجر جان فجفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب إليه:

أَبَا مُحَمَّدٍ كُنَّا عَقِيدِي مُودَّةً هَوَانَا وَقَلْبَانَا جَمِيعًا مَعًا مَعَا
أَحْوَطُكَ بِالْغَيْبِ الَّذِي أَنْتَ حَائِطِي وَأَجْزَعُ إِشْفَاقًا مِنْ أَنْ تَتَوَجَّعَا
فَصَيَّرْتَنِي بَعْدَ انْتِكَاثِكَ مُتَّهِمًا لِنَفْسِي عَلَيْهَا أَرْهَبُ الْخَلْقِ أَجْمَعَا
غَشَشْتَ الْهَوَى حَتَّى تَدَاعَتْ أَصُولُهُ بَنَاوَابَتْذَلَتِ الْوَصْلَ حَتَّى تَقْطَعَا
وَأَنْزَلْتَ مِنْ بَيْنِ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَى ذَخِيرَةً وَدُّ طَالَمَا قَدْ تَمْنَعَا
فَلَا تَلْحَيِّنِي لَيْسَ لِي فِيكَ مَطْمَعٌ تَخَرَّقَتْ حَتَّى لَمْ أَجِدْ لَكَ مَرْقَعَا

فَهَبْكَ يَمِينِي اسْتَأْكَلْتُ فَقَطَعْتُهَا وَجَشَمْتُ قَلْبِي صَبْرَهُ فَتَشَجَّعَا

ثم تهاجرا فما التقيا بعد ذلك.

أجرى الرشيد على دعبل رزقاً سنياً، فكان أول من حرصه على قول الشعر. فوالله ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السني والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول بأقبح مكافأة، وقال فيه يهجوه من قصيدة مَدَحَ بها أهل البيت عليهم السلام:

وليس حيٍّ من الأحياء نعلمه	من ذي يمان ومن بكر ومن مُضَر
إلا وهم شركاء في دمائهم	كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسرٌ وتحريقٌ ومنهبةٌ	فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أميةً معذورين إن قتلوا	ولا أرى لبني العباس من عُذر
أربع بطوس على القبر الزكي إذا	ما كنت ترزع من دين على وطر
قبران في طوس خير الناس كلهم	وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرّجس من قرب الزكي ولا	على الزكي بقرب الرّجس من ضرر
هيهات، كل امرئ رهن بما كسبت	له يدهاء فخذ ما شئت أو فذر

استدعى بعض بني هاشم دعبلاً وهو يتولى للمعتصم ناحية من نواحي الشام، فقصده إليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب إليه دعبل:

دليتني بغرور وعدك في	مُتلاطم من حومة الغرق
حتى إذا شمت العدو وقد	شهر انتفاصك شهرة البلق
أنشأت تحلف أن ودك لي	صاف وحبك غير منحذق
وحسبني فقعا بقرقرة	فوطئتني وطأ على حنق

ونصبتني علماً على غرض
وظننت أرض الله ضيقة
من غير ما جرم سوى ثقة
ومودة تحنو عليك بها
فمتى سألتك حاجة أبدا
وقف الإخاء على شفا جُرف
وأعد لي قفلاً وجامعة
أعفيك مما لا تحب بها
ما أطول الدنيا وأعرضها
ترمينني الأعداء بالحدق
عني وأرض الله لم تضق
مني بوعدك حين قلت ثق
نفسى بلا من ولا ملق
فاشدد بها قفلاً على غلق
هار فيعه بيعة الخلق
فاشدد يدي بها إلى عنقي
واسدّد على مذاهب الأفق
وأدلّني بمسالك الطُرق

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد:

جئت بلا حرمة ولا سبب
فاقض ذمامي فإنني رجل
إليك إلا بحرمة الأدب
غير مُلحّ عليك في الطلب

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووجه إليه بصرّة فيها ألف درهم، وكتب إليه:
أعجلتنا فأناك عاجل برّنا
فخذ القليل وكن كأنك لم تقل
ولو انتظرت كثيره لم يقلل
ونكون نحن كأننا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قرى السوس، بعث إليه مالك بن طوق من ضرب
ظهره بعكاز لها زُجج مسموم فمات من غد.

(٤) (الحسين بن الضحاك) (٨٩)

شاعر^(٩٠) ظريف شديد الظرف، ربما انقطع نظيره في شعراء العصر
العباسي كله، وهو مع ظرفه وإسرافه في المجون، قليل الفحش في اللفظ.

غير متهالك على القول الآثم والألفاظ المنكرة، لا يتخيرها ولا يقصد إليها، وإنما يعرض لها إذا اضطر إليها اضطراراً، وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، مجود إذا فكر، مظفر إذا بحث، موفق إلى اللفظ المتين، والأسلوب الرصين في غير جفوة ولا غلظة، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته، وسجيته سهلة مرسلة غنية غزيرة المادة، لا تكاد تنضب، ولا ينالها إعياء أو كلال، وحياته كلها عبر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتي تردك وتنفرك، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سبيلاً، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلاً مثله، تقرأ أخباره فتظل مبتسماً منذ بتدئ إلى أن تنتهي دون أن تعبس أو تقطب. وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين، ولكنك لن تترك الابتسام إلى الحزن الشديد. وربما اعترضتك في طريقك سحابة مخزنة، ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك. وكان هذا الشاعر من المعمرين، بلغ المائة أو كاد، وعاصر طبقات من الشعراء، وألواناً من حاشية الخلفاء، ولكنه ظل محتفظاً بشخصيته الوداعة المبتسمة، تغير الناس واختلفت الظروف، وظل هو واحداً لم يتغير. كان خليعاً، بل كان يُعرف بالخليع، وكان كثير المجون مسرفاً فيه، وما أحسب أن أبا نواس سبقه إلى لذة أو برز عليه في مأثم، ولكنه على خلاعته وإسرافه في المجون وتهالكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الأصل، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزل على نفسه وأخلاقه انزلاقاً دون أن تترك

فيها أثرًا باقياً، وإنما كانت الآثار التي تركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعبث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التي سأظهرك على طرف منها.

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكد، وبعد التلطف وحسن الحيلة؛ وإنما كان متصلاً بالخلفاء اتصالاً شديداً، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخّل إلى أكثر مما ينبغي. وكان الخلفاء يبحثون عنه، ويحرصون على عشرته، ويبدلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء.

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر، حلو المذهب، لشعره قبول ورونق صافٍ، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبته الناس إلى أبي نواس، وله معانٍ في صفتها أبدع فيها، وهاجى مسلم بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين الذين تحلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلف.

قال: أنشدت أبا نواس قصيدتي التي قلتها في الخمر وهي:

بُدِّلَتْ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْأَءِ^(٩١) وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ

فلما انتهيت منها إلى قولي:

حَتَّى إِذَا أَسْنَدْتَ فِي الْبَيْتِ وَاحْتَضَرْتَ عِنْدَ الصَّبُوحِ بَسَّامِينَ أَكْفَاءَ
فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي نَعْتٍ وَاصْفَهَا عَنْ مِثْلِ رَقْرَاقَةٍ فِي جَفْنِ مَرْهَاءِ^(٩٢)

فصُعبُ صَعْقَةٍ أَفْرَعْتَنِي وَقَالَ: أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَشْقَرُ! فَقُلْتُ: وَيْلَكَ يَا حَسَنَ، إِنَّكَ أَفْرَعْتَنِي وَاللَّهِ! فَقَالَ: بَلَى وَاللَّهِ أَنْتَ أَفْرَعْتَنِي وَرَعْتَنِي، هَذَا مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي كَانَ

فكري لا بد أن ينتهي إليها أو أغوص عليها وأقولها، فسبقتني إليه واختلسته مني، وستعلم لمن يروى؛ ألي أم لك! فكان والله كما قال، سمعت من لا يعلم يرويها له. لما قدم المأمون من خراسان أمر بأن يسمّى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه، فذكر له جماعة فيهم الحسين بن الضحاك، وكان من جلساء محمد المخلوع، فلما رأى اسمه قال: أليس هو الذي يقول في محمد:

هَلَا بَقِيَتْ لَسَدٌ فَاقْتَنَا أَبَدًا وَكَانَ لَغِيرِكَ التَّلَفُ
فَلَقَدْ خَلَفْتَ خَلَاتِفًا سَلَفُوا وَلَسَوْفَ يُعْوزُ بَعْدَكَ الْخَلَفُ

لا حاجة لي فيه، والله ولا يراني أبدًا إلا في الطريق. ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به، وانحدر الحسين إلى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون.

قال أبو صالح بن الرشيد: دخلت يومًا على المأمون ومعني بيتان للحسين بن الضحاك، فقلت: يا أمير المؤمنين، أحب أن تسمع مني بيتين. فقال: أنشدتهما. فأنشدتهما:

حَمَدْنَا اللَّهَ شُكْرًا إِذْ حَبَانَا بِنَصْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
فَأَنْتَ خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ حَقًّا جَمَعْتَ سَمَاحَةً وَجَمَعْتَ دِينَا

فقال: لمن هذان البيتان؟ فقلت: لعبدك يا أمير المؤمنين الحسين بن الضحاك. قال: قد أحسن. فقلت: وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا. فقال: وما هو؟ فأنشدته قوله:

أَجْرُنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمِئْتُ إِلَى الْوَعْدِ مَتَى تُنْجِزَ الْوَعْدَ الْمَوْكِدَ بِالْعَهْدِ
أَعِيزُكَ مِنْ خُلَفِ الْمُلُوكِ وَقَدْ بَدَأَ تَقَطَّعَ أَنْفَاسٌ عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْدِ

أَيَخْلُفَرْدُ الْحَسَنَ عَنِّي بَنَائِلَ قَلِيلَ وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهَوَى فَرْدَ
رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ فَمَلَّكَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عَصْمَةٌ مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّشْدِ

فَاطَرَقَ سَاعَةٌ ثُمَّ قَالَ: مَا تَطْيِبُ نَفْسِي لَهُ بِخَيْرٍ بَعْدَ مَا قَالَ فِي أَخِي مُحَمَّدٍ مَا قَالَ.
وَمِنْ قَوْلِهِ يَرِثُنِي مُحَمَّدًا الْأَمِينُ:

أَطْلُ حَزَنًا وَابِكِ الْإِمَامَ مُحَمَّدًا بِحُزْنٍ وَإِنْ خِفَتِ الْحَسَامُ الْمَهْنَدَا
فَلَا تَمِتِ الْأَشْيَاءَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَلَا زَالَ شَمْلُ الْمَلِكِ مِنْهَا مُبَدَّدَا
وَلَا فَرِحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا طَرِيدًا مُشَرَّدَا

وَلِلْحُسَيْنِ فِي مُحَمَّدِ الْأَمِينِ مَرَاثٍ كَثِيرَةٌ جَيَادٌ، وَكَانَ كَثِيرَ التَّحَقُّقِ بِهِ وَالْمُوَالَاةِ
لَهُ لِكثَرَةِ إِفْضَالِهِ عَلَيْهِ، وَمِيلِهِ إِلَيْهِ، وَتَقْدِيمِهِ إِيَّاهُ، وَبَلَغَ مِنْ جُزْأِهِ عَلَيْهِ أَنَّهُ
خَوَّلَطَ فَكَانَ يَنْكَرُ قَتْلَهُ لَمَّا بَلَغَهُ وَيُدْفَعُهُ وَيَقُولُ: إِنَّهُ مُسْتَرٌّ وَأَنَّهُ قَدْ وَقَفَ عَلَى
دَعَايِهِ فِي الْأَمْصَارِ يَدْعُونَ إِلَى مَرَاجَعَةِ أَمْرِهِ وَالْوَفَاءِ بِبَيْعَتِهِ ضَمًّا بِهِ وَشَفَقَةً عَلَيْهِ.

وَمِنْ جَيِّدِ مَرَاثِيهِ إِيَّاهُ قَوْلُهُ:

سَأَلُونَا أَنْ كَيْفَ نَحْنُ؟ فَقُلْنَا مِنْ هَوَى نَجْمُهُ فَكَيْفَ يَكُونُ؟
نَحْنُ قَوْمٌ أَصَابَنَا حَدُُّ الدَّهْرِ رَ فُظَلْنَا لِرَيْبِهِ نَسْتَكِينُ
نَتَمَنَّى مِنَ الْأَمِينِ إِيَابَا هُفُفَ نَفْسِي وَأَيْنَ مَنِّي الْأَمِينُ

وَمِنْ جَيِّدِ قَوْلِهِ فِي مَرَاثِيهِ إِيَّاهُ:

أَعَزِّي يَا مُحَمَّدُ عَنْكَ نَفْسِي مَعَاذَ اللَّهِ وَالْأَيْدِي الْجَسَامِ
فَهَلَّا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا وَدُوفِعَ عَنْكَ لِي يَوْمَ الْحَمَامِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ صَادَفَ مِنْكَ غُنْمًا أَوْ اسْتَشْفَى بِقُرْبِكَ مِنْ سَقَامِ

وقال أيضاً يرثيه:

يا خير أسرته وإن زعموا
 الله يعلم أن لي كبداً
 ولئن شجيت بما رزئت به
 هلاً بقيت لسد فافتنا
 فلقد خلفت خلائفاً سلفوا
 لا بات رهطك بعد هفوتهم
 هتكوا بحرمتك التي هتكت
 وثبت أقاربك التي خذلت
 لم يفعلوا بالشط إذ حضروا
 تركوا حريم أبيهم نفلاً
 أبدت مخلصها على دهش
 سلبت معاجرهن^(٩٤) واجتليت
 فكأنهن خلال منتهب
 ملك تخون ملكه قدر
 هيهات بعدك أن يدوم لنا
 لا هيئوا صُحفاً مشرفة
 أقبعد عهد الله تقتله
 فستعرفون غداً بعاقبة
 يا من يخون نومَه أرق
 قد كنت لي أملاً غيبت به

إني عليك لمُثِّبَتُ أَسْفُ
 حَرِّي عليك ومقلة تكف
 إني لأضمر فوق ما أصف
 أبداً وكان لغيرك التلّف
 ولسوف يُعوز بعدك الخلف
 إني لرهطك بعدها شنف^(٩٣)
 حُرِّمَ الرسول ودونها السُجف
 وجميعها بالذل معترف
 ما تفعل الغيرانة الأنف
 والمُحصنات صوارخ هُتف
 أبكارهن ورنت النصف
 ذات النقاب ونوزع الشنف
 دُرُّ تكشف دونه الصدف
 فوهى وصرف الدهر مختلف
 عزّ وأن يبقى لنا شرف
 للغادرين تحتها الجدف
 والقتل بعد أمانة سرف
 عزّ الإله فأوردوا وقفوا
 هدّت الشجون وقلبه لُف
 فمضى وحل محله الأسف

عُرِفَا وَأُنْكَرَ بَعْدَكَ الْعُرْفُ
لُدُنْيَا سُدَى وَالبال منكسف

مَرَجَ النَّظَامَ وَعَادَ مُنْكَرُنَا
فَالشَّمْلُ مَنَشَرٌ لِفَقْدِكَ وَالـ

وَقَالَ أَيْضًا يَرِثِيهِ:

وإن رَقَدَ الْخَلِيَّ حَمَى الْجُفُونَا
وَكَلَّوَادَى تُهَيِّجُ لِي شَجُونَا
بِهَا الْأَرْوَاحُ تَنْسُجُهَا فَنُونَا
تَلْعَبُ بِالْقُرُونِ الْأَوَّلِينَا
وَكُنْتُ بِحَسَنِ الْفَتَاهِمِ ضُنِينَا
وَلَمْ تَرَهُمْ عَيُونُ النَّاضِرِينَا
وَأَهْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَا
وَرُقِّهِ عَنْ مَطَايَا الرَّاغِبِينَا
يَرْحُنَ عَلَى السَّعُودِ وَيَغْتَدِينَا
لَهْدَتِهِ وَرِيعُ الصَّالِحُونَا
وَتَنْدُبُ بَعْدَكَ الدِّينَ الْمُصُونَا
وَعَادَ الدِّينَ مَطْرُوحًا مَهِينَا
وَمِلَّتِهِ وَذَلَّ الْمُسْلِمُونَا

إِذَا ذُكِرَ الْأَمِينُ نَعَى الْأَمِينَا
وَمَا بَرَحَتْ مَنَازِلُ بَيْنَ بُصْرَى
عَرَاصُ الْمَلِكِ خَاوِيَةٌ تَهَادَى
تَخَوَّنَ عَزَّ سَاكِنُهَا زَمَانُ
فَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ بَعْدَ اجْتِمَاعِ
فَلَمْ أَرْ بَعْدَهُمْ حُسْنًا سِوَاهُمْ
فَوَا أَسْفَا وَإِنْ شَمَتِ الْأَعَادِي
أَضَلَّ الْعُرْفَ بَعْدَكَ مُتَّبِعُوهُ
وَكَنَّ إِلَى جَنَابِكَ كُلَّ يَوْمِ
هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هَوَتْ الْمَعَالِي
سَتَنْدُبُ بَعْدَكَ الدُّنْيَا جَوَارًا
فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَةً كُلُّ شَيْءٍ
تَعَقَّدُ^(٩٥) عَزُّ مُتَّصِلٍ بِكَسْرَى

وَقَالَ أَيْضًا يَرِثِيهِ:

مَنِّي وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

أَسْفَا عَلَيْكَ سَلَكَ أَقْرَبُ قُرْبَةٍ

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي: الحسين بن الضحاك أشعر

المحدثين حيث يقول:

أَيُّ دِيبَاجَةٍ حُسْنٍ هَيَّجَتْ لَوْعَةً حَزَنِي
 إِذْ رَمَانِي الْقَمَرُ الزَّا هَرَّ عَنْ فَتْرَةِ جَفَنِي
 بِأَبِي شَمْسٍ نَهَارَ بَرَزْتُ فِي يَوْمِ دَجَنِي
 قَرَّبْتَنِي بِالْمَنَى حَتَّى إِذَا مَا أَخْلَفْتَنِي
 تَرَكْتَنِي بَيْنَ مِيعَا دَ وَخُلْفٍ وَتَجَنُّ
 مَا أَرَى فِيَّ مِنَ الصَّبِّ هَوَ إِلَّا حَسَنَ ظَنِي
 إِنَّمَا دَامَتْ عَلَى الْغَدِ رَ لَمَّا تَعَرَفَ مَنِّي
 أَسْتَعِيدُ اللَّهَ مِنْ إِعْرَا ضَ مِنْ أَعْرَضَ عَنِّي

لما ولي المعتصم أمر بمكاتبته بالقدوم عليه، فلما دخل وسلم استأذنه في الإنشاد، فأذن له، فأنشده قوله:

هَلَّا سَأَلْتَ تِلْذَذَ الْمَشْتَاقِ وَمَنْنْتَ قَبْلَ فِرَاقِهِ بَتَّلَاقِ
 إِنْ الرَّقِيبَ لَيْسْتَ رِيبَ تَنْفُسًا صُعْدًا إِلَيْكَ وَظَاهِرَ الْإِقْلَاقِ
 وَلَئِنْ أَرَبْتُ لَقَدْ نَظَرْتُ بِمَقْلَةٍ عَبْرَى عَلَيْكَ سَخِينَةَ الْآمَاقِ
 نَفْسِي الْفِدَاءُ لَخَائِفٍ مَتَرَقِّبٍ جَعَلَ الْوَدَاعَ إِشَارَةً بِعِنَاقِ
 إِذْ لَا جَوَابَ لِمُفَحِّمٍ مَتَحِيرٍ إِلَّا الدَّمُوعُ تُصَانُ بِالْإِطْرَاقِ
 حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ:

خَيْرُ الْوَفُودِ مَبَشِّرٌ بِخِلَافَةٍ خَصَّتْ بِبِهْجَتِهَا أَبَا إِسْحَاقِ
 وَافَتْهُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ سَلِيمَةً مِنْ كُلِّ مَشْكَلَةٍ وَكُلِّ شِقَاقِ
 أَعْطَتْهُ صَفْقَتَهَا الضَّمَائِرُ طَاعَةً قَبْلَ الْأَكْفِ بِأَوْكَدِ الْمِشَاقِ
 سَكَنَ الْأَنَامُ إِلَى إِمَامٍ سَلَامَةٍ عَفَّ الضَّمِيرَ مَهْذَبَ الْأَخْلَاقِ

فحمى رعيته ودافع دونها وأجار مُملقها من الإملاق

حتى أتمها، فقال له المعتصم: ادنُ مني. فدنا منه، فملاً فمه جوهراً من جواهر كان بين يديه، ثم أمره بأن يخرج من فمه، فأخرجه وأمر بأن ينظم ويدفع إليه ويخرج إلى الناس وهو في يده، ليعلموا موقعه من رأيه، ويعرفوا فضله، فكان أحسن ما مُدح به يومئذ.

ومن شعره قوله:

أَمِينَ	اللَّهُ	ثَقِيَ	بِاللَّهِ	تُعْطَى	الصَّبْرَ	وَالنُّصْرَةَ
كُلَ	الْأَمْرِ	إِلَى	اللَّهِ	كَلَاكَ	اللَّهُ	ذُو الْقُدْرَةِ
لَنَا	النَّصْرَ	بِعَوْنِ	اللَّهِ	وَالْكِرَّةَ	لَا	الْفَرَّهَ
وَلِلْمُرَّاقِ	أَعْدَا	تُكْ	يَوْمُ السُّوءِ	وَالدَّبْرَةَ		
وَكَأْسِ	تَلْفِظَ	المَوْتِ	كَرِيهِ	طَعْمُهَا	مُرَّهَ	
سَقَوْنَا	وَسَقَيْنَاهُمْ	وَلَكِنْ	بِهِمْ	الْحِرَّهَ		
كَذَاكَ	الْحَرْبِ	أَحْيَانًا	عَلَيْنَا	وَلَنَا	مَرَّهَ	

ومن قوله في غضب حظية للوائق من زيارته أخرى في نوبتها:

غَضِبْتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى خَلْسَةً فَلَهَا الْعُتْبَى لَدَيْنَا وَالرِّضَا
يَا فَدْتُكَ النَّفْسَ كَانَتْ هَفْوَةً فَاغْفِرْهَا وَاصْفَحْ عَمَّا مَضَى
وَاتْرَكِي الْعَدْلَ عَلَى مَنْ قَالَهُ وَانْسُبِي جَوْرِي إِلَى حَكْمِ الْقَضَا
فَلَقَدْ نَبَهْتَنِي مِنْ رَفْدِي وَعَلَى قَلْبِي كِنِيرَانَ الْغَضَا
كان الواثق يتحظى جارية له فماتت، فجزع عليها وترك الشراب أياماً، ثم سلاها وعاد إلى حاله، فدعا الحسين ليلة وقال له: رأيت فلانة في النوم فليت نومي كان طال قليلاً لأتمتع بلقائها، فقل في هذا شيئاً. فقال:

ليت عين الدهر عنا غفلت وريقب الليل عنا رَقدا
وأقام النوم في مدته كالذي كان وكنا أبدا
بأبي زورٌ تلفت له فتنفستُ إليه الصُعدا
بينما أضحك مسرورا به إذ تقطعتُ عليه كِبا

لما أعيته الحيلة في رضا المأمون عنه رمى بأمره إلى عمرو بن مسعدة
وكتب إليه:

أنت طودي من بين هذي الهضاب وشهابي من دون كل شهاب
أنت يا عمرو قوتي وحياتي ولساني وأنت ظفري ونابي
أتراني أنسى أياديك اليد ض إذا اسودَّ نائل الأصحاب
أين أخلاقك الرضيّة حالت في أم أين رقة الكتاب؟
أنا في ذمة السحاب وأظما؟ إن هذا لوصمة في السحاب
قم إلى سيد البرية عني قومة تستجر حُسن الخطاب
فلعل الإله يُطفئ عني بك نارا علي ذات التهاب

فلم يزل عمرو يلطف للمأمون حتى أوصله إليه وأدر أرزاقه.
ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلم، فرد عليه السلام ردّا
جافيا، ثم أقبل عليه فقال: أخبرني عنك، هل عرفت يوم قتل أخي محمد
هاشمية قتلت أو هتكت؟ قال: لا. قال: فما معنى قولك:

وسرّب ظباء من ذؤابة هاشم هتفن بدعوى خير حي وميت
أردّ يدا مني إذا ما ذكرته على كبد حري وقلب مُفتت
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ولا بلغت آماهم ما تمت

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني، وسيد فقدته فأقلقني، فإن عاقبت فبحقك، وإن عطفت فبفضلك. فدمعت عينا المأمون وقال: قد عفوت عنك، وأمرت بإدراار رزقك، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك امتناعي من استخدامك.

ومن قوله:

وكالوردة الحمراء حيا بأحمر	من الورد يمشي في قرط كالورد
له عبثات عند كل تحية	بعينه تستدعي الحليم إلى الوجد
تمنيت أن أسقى بكفيه شربة	تذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله دهرًا لم أبت فيه ليلة	خليًا ولكن من حبيب على وعد

ومن قوله:

وا بآي مُفحَم لعزته	قلت له إذ خلوت مكثما
تَحَبَّ بالله من يَخْصُك بالـ	ود فما قال لا ولا نَعما
ثم تولى بِمُقَلَّتِي خجل	أراد رَجْع الجواب فاحتشما
فكنت كالمبتغي بحيلته	برءًا من السُّقْم فابتدا سَقما

وقال في هوى له:

عالم بحببيه	مطرق من التَّيه
يوسفُ الجمال وفر	عون في تَعَدَّيه
لا وحق ما أنا فيه	ه من عطف أرجيه
ما الحياة نافعة	لي على تَأْبَّيه

النعيم يَشْغُلُهُ
فهو غيرُ مكثَر
تَأْيِئُهُ تُزَهِّدُهُ
ومن قوله في هوى له:

والجمال يُطْغِيهِ
للذي الأَقْيِية
في رغبتي فيه

إن من لا أرى وليس يراني
بأبي مَنْ ضميره وضميري
نحن شخصان إن نظرت ورو
فإذا ما هممتُ بالأمر أو همَّ
كان وفقًا ما كان منه ومنِّي
خَطَرَاتُ الجفون منّا سواءٌ
ومن قوله:

نُضِبَ عيني مُثَلِّ بالأماني
أبدًا بالمَغِيبِ ينتجيان
حان إذا ما اخترتِ يمتزجان
بشيء بدأته وبداني
فكأنِّي حَكَيْتُهُ وَحَكَاني
وسواء تحرك الأبدان

فَدَيْتُ من قال لي على خَفَرِهِ
سَمِعَ بأشعارك المليح فما
حسبك بعضُ الذي أذعت ولا
وقلتُ يا مستعير سالفه الـ
لا تنكرنَّ الحبيب من طَرَب
ومن قوله:

وَعَضَّ من جفنه على حَوَرِهِ
يَنْفَكُ شَاد بها على وَتَرِهِ
حَسْبُ لَصَبٍّ لم يَقْضِ من وَطَرِهِ
خَشَفَ وَحُسْنُ الْفُتُورِ من نَظَرِهِ
عَاوَدَ فيكَ الصَّبَا على كِبَرِهِ

سائل بطيفك عن لَيْلي وعن سهري
لم يَخُلْ قلبي من ذكراك إذ نظرت
سَقِيًا ليوم سروري إذ تَنَازَعَنِي
وعن تنابع أنفاسي وعن فِكْري
عيني إليك على صَحْوي ولا سكري
صفو المدامة بين الأنس والخفر

وَفَضْلُ كَأْسِكَ يَأْتِينِي فَأَشْرِبُهُ
وَكَيْفَ أَشْمِلُهُ لثَمِي وَأَلْزِمُهُ
فَلَيْتَ مُدَّةَ يَوْمِي إِذْ مَضَى سَلَفًا
حَتَّى إِذَا مَا انْطَوَتْ عَنَّا بِشَاشَتُهُ
وَمَنْ قَوْلُهُ لَهْوَى كَانَ لَهُ:

تَعَزَّ بِيَأْسٍ عَنْ هَوَايَ فَإِنِّي
إِذَا خُتِمَ بِالْغَيْبِ وَدِّيَ فَمَا لَكُمْ
وَلِي مِنْكَ بَدَ فَاجْتَنِبْنِي مَذَمًّا
لَمَّا وَلِيَ الْوَأَثِقُ الْخِلَافَةَ أَنْشَدَهُ حُسَيْنٌ:

أَكَلْتُمْ وَجَدِي فَمَا يَنْكُتُمْ
وَإِنِّي عَلَى حَسَنِ ظَنِّي بِهِ
وَلِي عِنْدَ لِحْظَتِهِ رَوْعَةٌ
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّي لَهُ
وَإِنِّي لَمُغْضٍ عَلَى لَوْعَةٍ
عَشِيَّةٍ وَدَّعْتُ عَنْ مَقْلَةٍ
فَمَا كَانَ عِنْدَ النَّوَى مُسْعِدٌ
سِيذَكَرُ مِنْ بَانَ أَوْطَانَهُ
بِمَنْ لَوْ شَكُوتُ إِلَيْهِ رَحِمٌ
لَأَحْذَرَ إِنْ بُحْتُ أَنْ يَحْتَشِمَ
تَحَقَّقْ مَا ظَنَّهُ الْمَتَّهِمُ
مَحَبٍّ وَأَحْسِبُهُ قَدْ عَلِمَ
مِنْ الشُّوقِ فِي كَبْدِي تَضَطَّرَمَ
سَفُوحَ وَزْفَرَةِ قَلْبٍ سَدِمَ
سَوَى الْعَيْنِ تَمْزِجُ دُمْعًا بَدَمَ
وَيَبْكِي الْمُقِيمِينَ مِنْ لَمْ يُقِمَ

كتب إلى الحسن بن رجاء في يوم شك، وقد أمر الواثق بالإفطار، فقال:

هَزَزْتُكَ لِلصَّبُوحِ وَقَدْ نَهَانِي
وَعِنْدِي مِنْ قِيَانِ الْمَصْرِ عَشْرُ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصَّيَامِ
تَطِيبُ بَهْنٍ عَاتِقَةَ الْمَدَامِ

ومن أمثالهن إذا انتشينا ترانا نجتني ثمر الغرام
فكن أنت الجواب فليس شيء أحب إلي من حذف الكلام
فوردت رقعته، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بسخر ووجه إليه
بغلام نظيف الوجه ومعه ثلاثة غلمة أقران حسان الوجه، ومعهم رقعة
كتبها كما تكتب المناشير، وختمها في أسفلها وكتب فيها يقول:

سر على اسم الله يا أشد كل من غصن لجين
في ثلاث من بني الرو م إلى دار حسين
أشخص الكهل إلى مو لأك يا قرة عيني
أره العنف إذا استع صى وطالبه بدئين
ودع اللفظ وخاطب هه بغمز الحاجبين
واحذر الرجعة من وج ههك في خفي حنين
فمضى معهم.

ومن قوله لمن أعرض عنه:

تتيه علينا أن رزقت ملاحه فمهلاً علينا بعض تيهك يا بدر
لقد طال ما كنا ملاحاً وربما صدنا وتمنا ثم غيرنا الدهر
وله في هوى حجب عنه:

ظن من لا كان ظن أبحببي فحمه
أرصد الباب رقيب من له فاكتنفاه
فإذا ما اشتاق قربي ولقائي منعاه
جعل الله رقيب هه من السوء فدهاه

والذي أقرح في الشا دن قلبي ولوَاه
كل مشتاق إليه فمن السُّوء فداه
سيّما من حالت الأح — راس من دون مُناه

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه، فلم يطق ذلك لكبر سنه، فقال للمتوكل بعض من حضر عنده: هو يطيق الذهاب إلى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك! فبلغه ذلك، فدفع إلى أحمد بن حمدون أبياتاً قالها وسأله إيصالها، فأوصلها إلى المتوكل، وهي:

أما في ثمانين وُفِّتَها عذيرٌ وإن أنا لم أَعْتَذِرْ
فكيف وقد جزئها صاعداً مع الصاعدين بِتسع أحرُ
وقد رفع الله أقلامه عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أَصِرَّ على فتنة وألحد في دينه أو كفر
وإني لمن أسراء الإلـه في الأرض نَصَبَ صُروف القَدَرِ
فإن يَقْض لي عملاً صالحاً أثاب وإن يقض شراً غفر
فلا تَلَح في كبر هَدَنِي فلا ذنب لي أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب فمن ذا يلوم إذا ما عذر
وإني لفي كَنَفٍ مُغْدِقٍ وعز بنصر أبي المُتَصِرِ
يُباري الرياح بفضل السما ح حتى تَبَلَّد أو تَنَحَّسِرِ
له أكّد الوحي ميراثه ومن ذا يخالف وحي السُّورِ
وما للحسود وأشباهه ومن كذب الحق إلا الحجر

فلما أوصلها شيعها بكلام يعذره وقال: لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها! فقال المتوكل: صدقت. وأمر له بعشرين ألف درهم.

(٥) محمد بن عبد الملك الزيات^(٩٦)

كان محمد شاعراً مجيداً لا يقاس به أحد من الكتّاب، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك، فإن إبراهيم مقل وصاحب قصار ومقطعات. وكان محمد شاعراً يطيل فيجيد، ويأتي بالقصار فيجيد؛ وكان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب. ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القباء، وأن يلبس الدراعة ويتقلد عليها سيفاً بحمائل، فأجيب إلى ذلك.

وكان يقول: الرحمة خور في الطبيعة، وضعف في المنة، ما رحمت شيئاً قط؛ فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول، فلما وضع في الثقل والحديد قال: ارحموني! فقالوا له: وهل رحمت شيئاً قط فترحم؟ هذه شهادتك على نفسك وحكمك عليها.

لما مات أم ابنه عمرو رثاها بقصيدة منها:

يقول لي الخللان لو زُرْتَ قبرَها فقلتُ وهل غير الفؤاد لها قبرُ
على حين لم أجدْ فأجهل قبرَها ولم أبلغ السنَّ التي معها الصبر

ومن شعره قوله:

ما أعجب الشيءَ ترجوه فتُحرِّمَه قد كنتُ أحسبُ أني قد ملأتُ يدي
ما لي إذا غبتُ لم أذكرُ بصالحة وإن مرَّضتُ فطال السَّقمُ لم أعد

ومن شعره قوله:

ألم تعجب لمكتئب حزينٍ خدين صبايةٍ وحليف صبرٍ
يقول إذا سألت به بخيرٍ وكيف يكون مهجورٌ بخيرٍ
وكان لمحمد برزون أشهب لم يُرْ مثله فراهة وحسنًا، فسعى به محمد بن

خالد إلى المعتصم ووصف له فراشته، فبعث إليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه:

كيف العزاء وقد مضى لسبيله	عنا فودّعنا الأحّمّ الأشهب
دَبَّ الوُشاةُ فأبعدوك وربما	بَعْدَ الفتى وهو الأحبّ الأقرب
لله يومَ نأيت عني ظاعناً	وسُلبتُ قربك أيّ علقٍ أسلب
نفسٌ مفرّقةٌ أقام فريقها	ومضى لطيته فريقٌ يُجَنَّب
فالآن إذ كُملت أداتك كلّها	ودعا العيونُ إليك لونٌ مُعجَب
واختير من سرّ الحدائد خيرها	لك خالصاً ومن الحليّ الأغرب
وغدوت طَنان اللجام كأنها	في كل عُضو منك صَنج يضرب
وكان سرّجك إذ علاك غمامةٌ	وكانما تحت الغمامة كوكب
ورأى عليّ بك الصديقُ جلاله	وغدا العدوّ وصدْرُه يتلهّب
أنساك لا زالت إذا منيته	نفسي ولا زالت يميني تنكب
أضمرتُ منك اليأس حين رأيته	وقوى حبالي من قواك تُقَضَّب
ورجعتُ حين رجعت منك بحسرة	لله ما فعل الأحّمّ الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة اقترض من مياسير التجار مالاً، فأخذ من عبد الملك أبي محمد عشرة آلاف درهم وقال له: أنا أردّها إذا جاءني مال. ولم يتم أمره، فاستخفى ثم ظهر ورضي عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال: إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فيئهم، والأمر الآن إلى غيري. فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة خاطب فيها المأمون ومضى إلى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إيّاها وقال: والله لئن لم تعطني المال الذي اقترضته من أبي لأوصلن هذه القصيدة إلى المأمون! فخاف أن

يقرأها المأمون فيتدبر ما قاله، فيوقع به، فقال له: خذ مني بعض المال ونجم على بعضه. ففعل؛ والقصيدة قوله:

ألم تر أن الشيءَ للشيءِ علّةٌ
كذلك جرّبت الأمور وإنما
وظّني بإبراهيم أن مكانه
رأيت حسينا حين صار محمداً
فلو كان أمضى السيف فيه بضربة
إذا لم تكن للجند فيه بقيّةٌ
هم قتلوه بعد أن قتلوا له
وما نصرّوه عن يد سلفت له
ولكنّه الغدر الصّراح وخفة الـ
فذلك يوم كان للناس عبرةٌ
وما يوم إبراهيم إن طال عمره
تذكر أمير المؤمنين مقامه
أما والذي أمست عبداً خليفةً
إذا هزّ أعواد المنابر بأسته
فوالله ما من توبة نزعَتْ به
ولكن إخلاص الضمير مقرّب
أتاك بها كرها إليك بأنفه
فلا تتركْ للناس موضع شبهة
فقد غلطوا للناس في نصب مثله

تكون له كالنار تُقدح بالزّند
يدلّك ما قد كان قبل على البعد
سيبعت يوماً مثل أيامه النكد
بغير أمان في يديه ولا عقد
فصيره بالقاع مُنْعَفَر الخد
فقد كان ما بُلغْتُ من خبر الجند
ثلاثين ألفاً من كهول ومن مُرد
ولا قتلوه يوم ذلك عن حقد
حلوم وبُعد الرأي عن سُنن القصد
سبقى بقاء الوحي في الحجر الصلّد
بأبعد في المكروه من يومه عندي
وأيمانه في الهزل منه وفي الجد
له شر إيمان الخليفة والعبد
تغنّى بليلى أو بميّة أو هند
إليك ولا ميل إليك ولا ود
إلى الله زُلْفى لا تبيد ولا تُكدي
على رَغمه واستأثر الله بالحمد
فإنك مجزي بحسب الذي تُسدي
ومن ليس للمنصور بابن ولا المهدي

فكيف بمن قد بايع الناس والتقت
ومن سكّ تسليم الخلافة سمعه
وأَيّ امرئ سمى بها قط نفسه
وتزعم هذي النابتية أنه
يقولون سُنيّ وأَيّة سُنة
وقد جعلوا رُخص الطعام بعهده
إذا ما رأوا يوماً غلاءً رأيتهم
وإقباله في العيد يُوجف حوله
ورجاله يمشون بالبيض قبله
فإن قلت قد رام الخلافة قبله
فلم أجزه إذ خيب الله سعيه
ولم أرض بعد العفو حتى رفعته
فليس سواءً خارجيٍّ رمى به
تَعَادَتْ له من كل أوب عصابة
ومن هو في بيت الخلافة تَلْتَقِي
فمولاك مولاهُ وجُنْدك جُنْدُه
وقد رابني من أهل بيتك أني
يقولون لا تَبْعِد من ابن مُلْمة
فدانا وهانت نفسه دون مُلْكنا
على حين أعطى الناس صَفَق أكفهم
فما كان فينا من أبى الضيم غيرُه

بيعته الرُكبان غوراً إلى نجدٍ
يُنَادِي به بين السّماطين من بُعْدٍ
ففارقها حتى يُغَيِّب في اللحدِ
إمام لها فيما تُسرّ وما تُبدي
نَمُّ بَصْعَلِ الرأسِ جَوْنِ القفا جَعْدٍ
زعيماً له باليمن والكوكب السَّعدِ
يَحْنُونُ تَحْنَاناً إلى ذلك العهدِ
وجيف الجياد واصطكاك القنا الجردِ
وقد تبعوه بالقضيب وبالبرْدِ
فلم يُؤْتَ فيما كان حاول من جدٍّ
على خطأ إذ كان منه على عَمْدٍ
وللعمّ أولى بالتعمّد والرّفْدِ
إليك سَفَاهُ الراي والرأي قد يُرْدِي
متى يُوردوا لا يُصدروه عن الورْدِ
به وبك الآباء في ذروة المجدِ
وهل يَجْمَع القَيْنُ الحسامين في غَمْدٍ
رأيتُ لهم وجداً به أيّما وجدٍ
صبور على اللاّواء ذي مرّة جلدٍ
عليه لدى الحال التي قل مَنْ يَفْدي
عليّ بن موسى بالولاية والعهدِ
كريمٌ كَفَى ما في القبول وفي الرَّدِّ

وَجَرَدَ إِبْرَاهِيمَ لِمَوْتِ نَفْسِهِ وَأَبْدَى سِلَاحًا فَوْقَ ذِي مَيْعَةٍ نَهْدٍ
وَأَبْلَى وَمَنْ يَبْلُغُ مِنَ الْأَمْرِ جَهْدَهُ فَلَيْسَ بِمَذْمُومٍ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُجِدْ
فَهَذَا أُمُورٌ قَدْ يَخَافُ ذُوو النُّهْيِ مَغَبَّتْهَا وَاللَّهُ يَهْدِيكَ لِلرَّشَدِ

وكانت الخلافة في أيام الواثق تدور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب، وعلى أشناس وكاتبه أحمد بن الخصيب، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها إلى الواثق على أنها لبعض أهل العسكر، وهي:

يَا بَنَ الْخُلَائِفِ وَالْأَمْلَاقِ إِنْ نُسِبُوا حُزْتُ الْخِلَافَةَ عَنْ آبَائِكَ الْأَوَّلِ
أَجُرْتُ أَمْ رَقَدْتُ عَيْنَاكَ عَنْ عَجَبٍ فِيهِ الْبَرِيَّةُ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ وَهَلٍ
وَلَيْتَ أَرْبَعَةً أَمَرَ الْعِبَادَ مَعًا وَكُلُّهُمْ حَاطِبٌ فِي حَبْلٍ مُحْتَبِلٍ
هَذَا سُلَيْمَانٌ قَدْ مَلَكَتْ رَاحَتَهُ مَشَارِقُ الْأَرْضِ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ
مَلَكَتَهُ السُّنْدُ فَالشُّخْرَيْنِ مِنْ عَدَنٍ إِلَى الْجَزِيرَةِ فَالْأَطْرَافِ مِنْ مَكَلٍ
خِلَافَةً قَدْ حَوَاهَا وَحْدَهُ فَمَضَتْ أَحْكَامُهُ فِي دِمَاءِ الْقَوْمِ وَالتُّفَلِ
وَابْنُ الْخَصِيبِ الَّذِي مَلَكَتْ رَاحَتَهُ خِلَافَةُ الشَّأْمِ وَالْغَازِينَ وَالْقِفْلِ
فَنِيْلُ مِصْرَ فَبَحْرُ الشَّأْمِ قَدْ جَرَيَا بِمَا أَرَادَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْحُلَلِ
كَأَنَّهُمْ فِي الَّذِي قَسَمَتْ بَيْنَهُمْ بَنُو الرِّشِيدِ زَمَانَ الْقَسَمِ لِلدُّوَلِ
حَوَى سُلَيْمَانٌ مَا كَانَ الْأَمِينُ حَوَى مِنَ الْخِلَافَةِ وَالتَّبْلِيغِ لِلْأَمَلِ
وَأَحْمَدُ بْنُ خَصِيبٍ فِي إِمَارَتِهِ كَالْقَاسِمِ بْنِ الرِّشِيدِ الْجَامِعِ السُّبُلِ
أَصْبَحْتَ لَا نَاصِحٌ يَأْتِيكَ مُسْتَتِرًا وَلَا عَلَانِيَةً خَوْفًا مِنَ الْحَيْلِ
سَلِ بَيْتَ مَالِكَ أَيْنَ الْمَالِ تَعْرِفُهُ وَسَلِ خَرَجَكَ عَنْ أَمْوَالِكَ الْجَمَلِ
كَمْ فِي حُبُوسِكَ مِمَّنْ لَا ذُنُوبَ لَهُمْ أَسْرَى التَّكْذِبِ فِي الْأَقْيَادِ وَالْكِبَلِ
سَمَّيْتَ بِاسْمِ الرِّشِيدِ الْمُرْتَضَى فِيهِ تُسَمَّى الْأُمُورُ الَّتِي تُنْجِي مِنَ الزَّلَلِ

عَثَ فِيهِمْ مِثْلَ مَا عَاثَتْ يَدَاهُ مَعَا عَلَى الْبَرَامِكِ بِالْتَهْدِيمِ لِلْقُلُلِ

فلما قرأ الواثق هذا الشعر غاظه، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخنصيب، وأخذ منها ومن أسبابها ألفي ألف دينار فجعلها في بيت المال.

(٦) ابْنُ الْبَوَابِ^(٩٧)

لَمَّا أَتَى الْمَأْمُونُ بِشِعْرِ ابْنِ الْبَوَابِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ:

أَيَخْلُ فَرْدُ الْحَسَنِ فَرْدُ صِفَاتِهِ	عَلِيٍّ وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهِوًى فَرْدٍ
رَأَى اللَّهَ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ	فَمَلَكِهِ وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عَصْمَةٌ	مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّشْدِ

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ:

أَعَيْنِي جُودًا وَابْكِيَا لِي مُحَمَّدًا	وَلَا تَذَخَّرَا دَمْعًا عَلَيْهِ وَأَسْعِدَا
فَلَا فَرَحَ الْمَأْمُونُ بِالْمُلْكِ بَعْدَهُ	وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا شَرِيدًا مُطَرَّدًا

واحدة بواحدة، ولم يصله بشيء. ولما سخط عليه قال قصيدة يمدحه بها، ودس من غناه في بعضها لما وجد منه نشاطًا، فسأل: من قائلها؟ فأخبر به، ففرضي عنه ورده إلى رسمه من الخدمة، وهي:

هَلْ لِلْمَحَبِّ مُعِينٌ	إِذْ شَطَّ عَنْهُ الْقَرِينُ
فَلَيْسَ يَبْكِي لَشَجْوٍ أَلْ	حَزِينٍ إِلَّا الْحَزِينُ
يَا ظَاعِنًا غَابَ عَنَّا	غَدَاةَ بَانَ الْقَطِينُ
أَبْكَى الْعَيُونَ وَكَانَتْ	بِهِ تَقَرَّرَ الْعَيُونَ
يَا أَيُّهَا الْمَأْمُونُ أَلْ	مُبَارَكُ الْمَيْمُونُ
لَقَدْ صَفَتْ بِكَ دُنْيَا	لِلْمُسْلِمِينَ وَدِينُ

عليك نورٌ جلال
القولُ منك فعّال
ما من يديك شِمال
كأنما أنت في الجو
مَنْ نال من كل فضل
تألف الناس منه
كالبدْر يبدو عليه
فالرزق من راحتيه
وكل خصلة فضل

ونور مُلك مُبين
والظن منك يقين
كلتا يديك يمين
د والتقى هارون
ماناله المأمون
فضل وجود ولين
سكينة وسكون
مقسّم مضمون
كانت فمّنه تكون

ومما يغنى فيه قوله:

أفّق أيها القلب المذبّ كم تَصْبُو؟
أقول غداة استخبرت مِمّ علّتي؟
إذا أبصرتك العين من بُعد غاية
ولو أن ركباً يَمُمُّوك لَقَادَهُم

فلا النَّأي عن سَلَمِك يُسلي ولا القربُ
من الحب كُربٌ ليس يُشبهه كُرب
فأدخلت شكّا فيك أثبتك القلب
نسيمك حتى يَسْتَدِلَّ بِكَ الركب

أملق ابن البواب حين جفاه الخليفة وعلت سنه عن الخدمة، فرحل إلى أبي دلف القاسم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها إلى بغداد، فما نفدت حتى مات؛ وهي قوله:

طرقتك صائدة القلوب ربابُ
وتصرّمت منها العهود وغلّقت
فلأصدفنّ عن الهوى وطلابه

ونأت فليس لها إليك مآب
من دون نيل طلابها الأبواب
فالحب فيه بليّة وعذاب

وأخْصُ بالمدح المهذب سيِّداً
 وإلى أبي دُلْفٍ رحلتُ مطَّيتي
 تعلو بنا قُلُلَ الجبال ودونها
 فإذا حللتُ لدى الأمير بأرضه
 مَلِكٌ تأثَّلَ عن أبيه وجده
 وإذا ورَّنتُ قديمَ ذي حَسَبٍ به
 قومَ علَّوا أُملاكَ كلِّ قبيلةٍ
 ضَرَبْتُ عليه المكرماتُ قباها
 عَقِمَ النساءُ بمثله وتعطلت
 نَفَحَاتُهُ لِلْمُجْتَدِينَ رَغَابَ
 قد شَفَّها الإِرْقَالُ^(٩٨) والإِتْعَابُ
 مِمَّا هَوَتْ أَهْوِيَّةٌ وشِعَابُ
 نَلْتُ المني وتَقَضَّتِ الأَرَابُ
 مَجْدًا يَقْصُرُ دونه الطُّلابُ
 خَضَعْتُ لفضل قديمه الأحسابُ
 فالناسُ كلُّهم له أذْنا ب
 فعلا العمودُ وطالت الأطنابُ
 من أن تُضَمَّنَ مثله الأَصْلَابُ

(٧) الخُرَيْمِي

كان متصلاً بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة،^(٩٩) وله فيه مدائح جواد، ثم رثاه بعد موته، فقليل له: يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك وأجود. فقال: كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد.

وهو القائل في عينيه:

أُضْغِي إلى قائدي لِيُخْبِرَنِي
 أريد أن أعْدِلَ السلام وأن
 أسمع ما لا أرى فأَكْرَهُ أن
 لله عيني التي فُجِعْتُ بها
 لو كنتُ خَيْرْتُ ما أَخَذْتُ بها
 إذا التقينا عَمَّنْ يُحْيِينِي
 أَفْصِلُ بين الشريف والدُّونِ
 أَخْطِئُ والسمْعُ غير مأمون
 لو أن دهرًا بها يُوَاتِينِي
 تَعْمِيرَ نوح في مُلْكِ قارون

حقّ أخلائي أن يعودوني وأن يُعزّوا عني ويكونني
وهو القائل:

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً فإن البعض عن بعض قريب
يُمَنِّني الطبيبُ شفاء عيني وهل غير الإله لها طبيب
وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها:

قالوا ولم يلعب الزمانُ ببغ
إذ هي مثلُ العروسِ بادئُها
جَنَّةُ دُنيا ودارُ مَغْبَطَةٍ
دَرَّتْ خُلُوفُ الدُنيا لساكنها
وانفَرَجَتْ بالنعيمِ وانتَبَجَتْ
فالقومُ منها في روضةِ أنفٍ
من غِرِّهِ العيشِ في بُلْهَنِيَّةٍ
دارُ ملوكِ رَسَتْ قواعدها
أهلُ العلا والثرى وأنديةِ الـ
أفراحِ نُعمَى في إرثِ مملكةٍ
فلم يزل والزمانُ ذو غيرِ
حتى تَسَاقَتْ كَأَسَا مُثْمَلَةٍ
وافترقت بعد ألفَةِ شَيْعَا
يا هَلْ رَأَيْتِ الْأَمْلَاقَ ما صَنَعَتْ
أورد أَمْلَاقُنَا نفوسَهُمْ

سداد وتَعَثَّرُ بها عوائِثُها
مُهَوَّلٌ للفتى وحاضِرها
قَلَّ مِنَ النَّائِبَاتِ وائِثُهَا (١٠٠)
وَقَلَّ مَعسُورُها وَعاسِرُها
فِيها بِلذَّاتِها حواضِرُها
أَشْرَقَ غَبَّ القِطارِ زاهِرها
لو أن دُنيا يدوم عامِرها
فِيها وقرَّتْ بها منابِرها
فخِرَ إِذا عُدَّدَتْ مفاخرُها
شَدَّ عُرَها لَها أَكابرُها
يَقْدَحُ في مُلكِها أَصاغرُها
من فِتْنَةٍ لا يُقال عاثرُها
مَقْطُوعَةٌ بَيْنَها أواصرُها
إِذْ لَمْ يَزَعْها بِالنَّصَحِ زاجِرُها
هُوَّةٌ غَيَّ أَغْيَتِ مَصادِرُها

ما ضَرَّها لو وَفَتْ بِمَوْثِقِها
وَلَمْ تُسَافِكْ دِمَاءَ شِيعَتِها
وَأَقْنَعَتْها الدُّنْيا الَّتِي جُمِعَتْ
ما زالَ حَوْضُ الأَملاكِ يَحْفَرُهُ
تُبْقِي فُضُولَ الدُّنْيا مُكَاثِرَةً
تَبِيعَ ما جَمَعَ الأَبْوَةُ لِلـ
يا هَلْ رَأَيْتَ الجَنانَ زاهِرَةً
وَهَلْ رَأَيْتَ القُصُورَ شارِعَةً
وَهَلْ رَأَيْتَ القُرَى الَّتِي غَرَسَها
مَحْفُوفَةً بِالكَرومِ والنَّخْلِ والـ
فإنْها أَصْبَحَتْ خَلايا مِنَ الـ
قَفَرًا خِلاءَ تَعْوِي الكِلابُ بِها
وأَصْبَحَ البُؤْسُ ما يَفارِقُها
بِزَنْدٍ وَرَدٍ والياسِرِيَّةِ والـ
وبالرحى والخِيزُرانيَّةِ الـ
وقَصْرَ عَبدِويهِ عِبرَةً وَهُدًى
فأَيْنَ حَرَّاسِها وحارِئِها
وأَيْنَ خَصِيائِها وحِشوتِها
أَيْنَ الجَرادِيَّةِ الصِّقالِ والـ
يَنْصَدِعُ الجَنْدُ عَنِ مَواكِبِها
بالسِّندِ والهِندِ والصِّقالِ والـ

واستَحَكَمَتْ في التُّقَى بِصائِرِها
وتَبَتَّعِلَ فُتَيَّةً تُكابرُها
لِها وَرَغْبُ النُفُوسِ ضائِرُها
مَسْجُورُها بالهُوى وَساجِرُها
حَتَّى أَبِیَحْتَ كَرَّها ذِخائِرُها
أَبْناءَ لا أَرْبَحْتَ مَناجِرُها
يَروِقُ عَينَ البَصيرِ زاهِرُها
تُكَنَّ مِثْلَ الدُّمى مَقاصِرُها
أَملاكُ مُخَضَّرَةٍ دَساکِرُها
رَیْجانَ قَدِ دَمِيتَ مَناجِرُها^(١٠١)
إِنسانَ قَدِ دَمِيتَ مَناجِرُها^(١٠٢)
يُنْكَرُ مِنْها الرُسُومَ دائِرُها
إِلْفاً لِها والسُرُورَ هاجِرُها
شَطِطِینَ حِثَّ انْتَهتَ مَعايرُها
عُليا الَّتِي أَشْرَفْتَ قَناطِرُها
لِکُلِّ نَفْسٍ زَكَتَ سَرائِرُها
وأَیْنَ مَجبُورُها وَجابرُها
وأَیْنَ سَکَّانُها وَعامِرُها
أَحْبَشَ تَعَدُّوا هُذْلاً مَشافِرُها
تَعَدُّوا بِها سُرَباً ضَوايرُها
نُوبَةً شِیبتَ بِها بَرايرُها

طيراً أبابيل أرسلت عبثاً
 أين الأطباء الأبقار في روضة الـ
 أين غضاراتها ولذتها
 بالمسك والعنبر اليماني والـ
 يرفلن في الخز والمجاسد والـ
 فأين رقاصها وزامرها
 تكاد أسماعهم تسل إذا
 أمست كجوف الحمار خالية
 كأنما أصبحت بساحتهم
 لا تعلم النفس ما يُبايتها
 تُضحى وتُمسي دَريّة غرضاً
 لأسهم الدهر وهو يرشّقها
 يابؤس بغداد دار مملكة
 أمهلها الله ثم عاقبها
 بالخسف والقذف والحريق وبالـ
 كم قد رأينا من المعاصي ببغدا
 حلت ببغداد وهي آمنة
 طالعها سوء من مطالعه
 رق بها الدين واستخفّ بذئ الـ
 وخطم العبد أنف سيّده
 وصار ربّ الجيران فاسقهم
 يقدم سوداتها أحامرها
 مُلك تهادى بها غرائرها
 وأين محبورها وحابرها
 يلنجوج مشبوبة مجامرها
 مَوْشِي مخطومة مزامرها
 يُجبن حيث انتهت حناجرها
 عارض عيدانها مزاهرها
 يسعرها بالجحيم ساعرها
 عادّ ومستهم صراصرها
 من حادث الدهر أو يُياكرها
 حيث استقرّت بها شرارها
 مُحْنَطُها مرة وبقارها
 دارت على أهلها دوائرها
 لما أحاطت بها كبائرها
 حرب التي أصبحت تُساورها
 دَ فهل ذو الجلال غافرها
 داهية لم تكن تُحاذرها
 وأدركت أهلها جرائرها
 فضل وعزّ النَّسَاك فاجرها
 بالرَّغم واستعبدت مخادرها
 وابتزّ أمر الدروب ذاعرها

من ير بغدادَ والجنودُ بها
كلَّ طُحُونٍ شهباءَ باسلةٍ
تُلقي بَغْيِي الردى أوانِسَها
والشيخُ يعدو حَزْمًا كتابُبه
ولزُهَيْرُ بالقول مأسدة
كتائبُ الموت تحت أُلوية
يعلم أن الأقدارَ واقعةٌ
فتلك بغدادُ ما بين من الـ
محفوفةً بالردى منطقةً
وبين شَطِّ الفُراتِ منه إلى
كهادي السُفراءِ نافرُهُ
يُحرقها ذا وذاك يهدمها
والكَرْحُ أسواقها معطلة
أخرجتِ الحربُ من سواقِطِها
من البوارى ترأسُها ومن الـ
تغدو إلى الحربِ في جواشِنِها الـ
كتائبُ الهَرَشِ تحت رايته
لا الرِّزْقُ تبغي ولا العطاء ولا
في كل دَرْبٍ وكل ناحية
بمثل هام الرجال من فلق الـ
كأنما فوق هامها عِدَفُ

قد رَبَّقَتْ حولها عساكرها
تُسْقِطُ أحبالها زَماجِرها
يُرهِقُها للقاء طاهرها
يُقدِّمُ أعجازها يعاورها
مرقومة صُلبَةً مكاسرها
أبرَحَ منصورُها وناصرها
وقعًا على ما أَحَبَّ قادرها
دَلَّه في دُورها عصافرها
بالصُّقْرِ محصورةً جابرها
دجلة حيث انتهت معابرها
تركُض من حولها أشاقِرها
ويشتفي بالنَّهابِ شاطرها
يَسْتَنِّ عَيَّارها وعائِرها
آساد غيل غُلْبًا تُساورها
خُوص إذا استلأمت مَغافرها
صَّوْف إذا ما عَدَّت أساورها
سَاعِد طَرَّارها مُقامرُها
يَحْشُرُها للقاء حاشرها
خَطَّارة يَسْتَهْلُ خاطرها
صخر يزود المقلاع بائرُها
من القطا الكُدْرُ هاج نافرُها

والقوم من تحتها لهم زجل
بل هل رأيت السيوف مضلّة
والخيل تستنّ في أزقتها
والنّفط والنار في طرائقها
والنّهب تعدو به الرجال وقد
مُعْصُوبَات وسط الأزقة قد
كلّ رُقود الضّحى مخبّاة
بيّضة خدر مكنونة برزت
تعثر في ثوبها وتُعجلها
تسأل أين الطريق والهة
لم تجتلّ الشمس حسن بهجتها
يا هل رأيت الشكلى مَوْلولة
في إثر نعش عليه واحدها
فرغاء تُلقِي النّثار من يدها^(١٠٣)
تنظر في وجهه وتهتف بالـ
غرغر بالنّفس ثم أسلمها
وقد رأيت الفتيان في عُرْصة الـ
كلّ فتى مناع حقيقته
باتت عليه الكلاب تنهشه
أما رأيت الخيول جائلة
تعثر بالأوجه الحسان من الـ

وهي تَرامى بها خواطرها
أشهرها في الأسواق شاهرها
بالتُرك مسنونة خناجرها
وهايّا للدخان عامرها
أبدت خلاخيلها حرّائرها
أبرزها للعيون ساترها
لم تبدّ في أهلها محاجرها
للناس منشورة غدائرها
كبّة خيل زيّعت حوافرها
والنار من خلفها تبادرها
حتي اجتلتها حرب تباشرها
في الطرق تسعى والجهد باهرها
في صدره طعنة يساورها
يهرّها بالسّنان شاجرها
شكّل وعزّ الدموع خامرها
مطلولة لا يخاف ثائرها
مَعْرُك معفورة مناخرها
تشقى به في الوغى مساعرها
مخضوبة من دم أظافرها
بالقوم منكوبة دوائرها
قتلى وغلّت دمّا أشاعرها

يَطْأَنَّ أَكْبَادَ فَتِيَةٍ نُجْدٍ
أَمَّا رَأَيْتَ النَّسَاءَ تَحْتَ الْمَجَا
عَقَائِلَ الْقَوْمِ وَالْعَجَائِزَ وَال
يَحْمِلْنَ قَوْتًا مِنَ الطَّحِينَ عَلَى الْ
وَذَاتَ عَيْشٍ ضَنْكَ وَمُقْعَسَةٍ
تَسْأَلُ عَنْ أَهْلِهَا وَقَدْ سُلبَتْ
يَا لَيْتَ مَا وَالدهِرَ ذُو دَوْلٍ
هَلْ تَرْجِعْنَ أَرْضُنَا كَمَا غَنَيْتِ
مَنْ مُبْلَغُ ذَا الرِّيَاسَتَيْنِ رِسَا
بَأَنْ خَيْرَ الْوُلَاةِ قَدْ عَلِمَ الذِّ
خَلِيفَةُ اللَّهِ مِنْ بَرِّيَّتِهِ الْ
سَمَتْ إِلَيْهِ آمَالُ أُمَمِهِ
شَامُوا حَيَا الْعَدْلِ مِنْ مَخَايِلِهِ
وَأَحْمَدُوا مِنْكَ سِيرَةً جَلَّتِ الْ
وَاسْتَجْمَعَتْ طَاعَةُ بَرْفَقِكَ لِلْ
وَأَنْتَ سَمِعَ فِي الْعَالَمِينَ لَهُ
فَاشْكُرْ لَذِي الْعَرْشِ فَضْلَ نِعْمَتِهِ
وَاحْذَرِ فِدَاءَ لَكَ الرِّعْيَةَ وَالْ
لَا تَرِدَنَّ غَمْرَةً بِنَفْسِكَ لَا
عَلَيْكَ ضَحْضَاحَهَا فَلَا تَلِجِ الْ
وَالْقَصْدَ إِنْ الطَّرِيقَ ذُو شُعْبٍ

يَفْلِقُ هَامَاتِهِمْ حَوَافِرَهَا
نِيقَ تَعَادَى شُعْنًا ضَفَائِرَهَا
عُنُسٌ لَمْ تُخْتَبَرْ مَعَاصِرَهَا
أَكْتَفَافَ مَعْصُوبَةٍ مَعَاجِرَهَا
تَشْدُخُهَا صَخْرَةٌ تُعَاوِرَهَا
وَابْتَزَّ عَنْ رَأْسِهَا غَفَائِرَهَا
تُرْجَى وَأُخْرَى تُخْشَى بَوَادِرَهَا
وَقَدْ تَنَاهَتْ بِنَا مَصَايِرَهَا
لَا تَأْتِي لِلنَّصِيحِ شَاعِرَهَا
سَاسٌ إِذَا عُدِدَتْ مَآثِرَهَا
مَأْمُونٌ سَائِسُهَا وَجَابِرَهَا
مَنْقَادَةٌ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا
وَأَصْحَرَتْ بِالتَّقَى بَصَائِرَهَا
شَكٌّ وَأُخْرَى صَحَّتْ مَعَاذِرَهَا
مَأْمُونٌ نَجْدِيَّهَا وَغَائِرَهَا
وَمَقْلَةٌ مَا يَكِلُ نَاطِرَهَا
أَوْجَبَ فَضْلَ الْمَزِيدِ شَاكِرَهَا
أَجْنَادُ مَأْمُورِهَا وَآمِرَهَا
يَصْدُرُ عَنْهَا بِالرَّأْيِ صَادِرَهَا
غَمْرٌ مُلْتَجَّةٌ زَوَاخِرَهَا
أَشْأُمُهَا وَعَثُّهَا وَجَائِرَهَا

أصبحت في أمة أوائلها
وأنت سرُورها وسائسها
أدب رجالاً رأيت سيرتهم
وامدُد إلى الناس كف مرحمة
أمكنك العدل إذ هممت به
وأبصر الناس قصد وجههم
تُشرع أعناقنا إليك إذا السر
كم عندنا من نصيحة لك في الله
وحرمة قربت أواصرها
سعي رجال في العلم مطلبهم
دونك غراء كالوذيلة لا
لا طمعاً قلتها ولا بطراً
سيرها الله بالنصيحة والـ
جاءتك تحكي لك الأمور كما
حملتها صاحباً أخاً ثقة

ومن جيد شعره قوله:

الناس أخلاقهم شتى وإن جيلوا
للخير والشر أهل وُكّلوا بهما
منهم خليل صفاء ذو محافظة
ومُشعر الغدر مخني أضالعه
مُشاكس خدع جم غوائله
على تشابه أرواح وأجساد
كل له من دواعي نفسه هاد
أرسي الوفاء أواخيه بأوتاد
على سريرة غمر غلها باد
يُدي الصفاء ويخفي ضربة الهادي

يَأْتِيكَ بِالْبَغْيِ فِي أَهْلِ الصَّفَاءِ وَلَا
وَمَنْ جَيِّدٌ شَعْرُ الْخَرِيمِيِّ قَوْلُهُ:

أُضَاحِكَ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ
وَمَا الْخَصْبُ لِلْأُضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى
وَمَنْ جَيِّدٌ شَعْرُهُ قَوْلُهُ:

زَادَ مَعْرُوفُكَ عِنْدِي عِظَمًا
وَتَنَاسِيهِ كَأَنْ لَمْ تَأْتِهِ
وَهُوَ الْقَاتِلُ:

وَإِنْ أَشَدَّ النَّاسُ فِي الْحَشْرِ حَسْرَةً
كَفَى سَفَهًا بِالْكَهْلِ أَنْ يَتَّبَعَ الصَّبَا
وَيَسْتَجَادُ لَهُ قَوْلُهُ:

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَنِيَّةٌ
وَوَدَّ الْفَتَى فِي كُلِّ نَيْلٍ يُنِيلُهُ
وَأَعْلَمَ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ
وَأَنَّ أَخِلَاءَ الزَّمَانِ غَنَاؤُهُمْ
تَزَوَّدَ مِنَ الدُّنْيَا مَتَاعًا لغيرِهَا
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ
وَفِي هَذَا الشَّعْرِ يَقُولُ:

أَبَا الصُّغْدِ بِأَسٍّ إِذْ تَعَيَّرَنِي جُمْلُ
سَفَاهًا وَمِنْ أَخْلَاقِ جَارَتِي الْجَهْلُ

فإن تفخري يا جمل أو تتجمل
أرى الناس شرعاً في الحياة ولا يرى
وما ضربي أن لم تلدني مجابر
ولم تشتمل جرماً علي ولا عكل
فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل
لقبر على قبر علاء ولا فضل

وهو القائل:

ما أحسن الغيرة في حينها
من لم يزل متَّهما عرسه
أوشك أن يُغريها بالذي
حسبك من تحصينها وضْعها
لا تطلع منك على ريبة
فيتبع المقرونُ جبل القرين
وأقبح الغيرة في كل حين
مُناصباً فيها لريب الظنون
يخاف أن يُبرزها للعيون
منك إلى عرض صحيح ودين
لا تطلع منك على ريبة

(٨) عبد الله بن طاهر

كان بمحل من علو المنزلة وعظم القدر ولطف مكان من الخلفاء،
يُستغنى به عن التكريظ له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند
الخاصة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يُدفع، وفي السباحة
والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحد. (١٠٤)

وكان أديباً ظريفاً جيد الغناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتاً كثيرة أحسن
فيها ونقلها أهل الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله:

نحن قومٌ تليُّنا الحدقُ النُّجْ
طَوْعُ أيدي الظباء تقتادنا العي
نملك الصيد ثم تملكنا البي
تتقي سخطنا الأسود ونخشى
ل على أننا نلين الحديد
من ونقتاد بالطعان الأسود
ض المصونات أعيناً وخدودا
سخط الحشف حين يُبدي الصدودا

فترانا يوم الكريهة أحرًا رَا وفي السِّلَم للغواني عبيدا

أعطاه المأمون مال مصر لسنة، خراجها وضياعها، فوهبه كله وفرقه في الناس ورجع صفرًا من ذلك، فغاظ المأمون فعله، فدخل إليه يوم مقدمه، فأنشده أبياتًا قالها في هذا المعنى، وهي:

نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَعْنَاقُ خَاضِعَةٌ	لِلنَّائِبَاتِ أَيْيَا غَيْرِ مُهْتَزِّمٍ
إِلَيْكَ أَقْبَلْتُ مِنْ أَرْضٍ أَقَمْتُ بِهَا	حَوْلِينَ بَعْدَكَ فِي شَوْقٍ وَفِي أَلَمٍ
أَقْفُو مَسَاعِيكَ اللَّائِي خُصِّصَتْ بِهَا	حَذُو الشَّرَاكِ عَلَى مِثْلِ مِنَ الْأَدَمِ
فَكَانَ فَضْلِي فِيهَا أَتْنِي تَبَعٌ	لِمَا سَنَنْتَ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالنَّعَمِ
وَلَوْ وُكِّلْتُ إِلَى نَفْسِي عَنِيتُ بِهَا	لَكِنْ بَدَأَتْ فَلَمْ أَعْجِزْ وَلَمْ أَلَمِ

فضحك المأمون وقال: والله ما نفستُ عليك مكرمة نلتها، ولا أحدىثة حسن عندك ذكرها، ولكن هذا شيء إذا عودته نفسك افتقرت، ولم تقدر على لم شعئك وإصلاح حالك. وزال ما كان في نفسه.

لما فتح عبد الله مصر سوَّغه المأمون خراجها، فصعد المنبر فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها، فأتاه معلًى الطائي وقد أعلموه ما صنع بالناس في الجوائز وكان عليه واجدًا، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال: أصلح الله الأمير، أنا معلًى الطائي، وقد بلغ مني ما كان منك من جفاء وغلظ، فلا يغلظن عليَّ قلبك، ولا يستخفنك الذي بلغك، أنا الذي أقول:

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَفْوًا عِنْدَ مَقْدَرَةٍ	وَأَظْلَمَ النَّاسِ عِنْدَ الْجُودِ لِلْمَالِ
لَوْ أَصْبَحَ النِّيلُ يَجْرِي مَاءَهُ ذَهَبًا	لَمَا أَشْرَتْ إِلَى خَزَنِ بِمِثْقَالِ

تُعْلِي بِمَا فِيهِ رَقَّ الْحَمْدُ تَمْلِكُهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْاضَ الْحَمْدَ بِالْغَالِي
تَفُكُّ بِالْيُسْرِ كَفَّ الْعُسْرُ مِنْ زَمَنٍ إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَوْمٍ بِإِقْلَالٍ
لَمْ تَحُلْ كَفُّكَ مِنْ جُودٍ لِمُخْتَبِطٍ وَمُرْهَفٍ قَاتِلٍ فِي رَأْسٍ قَتَالٍ
وَمَا بَثَّتْ رَعِيلَ الْخَيْلِ فِي بَلَدٍ إِلَّا عَصَفْنَ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ
إِنْ كُنْتُ مِنْكَ عَلَى بَالٍ مَنَنْتَ بِهِ فَإِنْ شَكَرَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالٍ
مَا زِلْتُ مُقْتَضِبًا لَوْلَا مَجَاهِرَةٌ مِنْ أَلْسُنٍ خُضْنَ فِي صَدْرِي بِأَقْوَالٍ

فضحك عبد الله وسرَّ بما كان منه وقال: يا أبا السمرءاء، أقرضني عشرة آلاف دينار فما أمسيت أملكها. فأقرضه فدفعها إليه.

كان موسى بن خاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمه وجليسه، وكان له مؤثرًا مقدمًا، فأصاب منه معروفًا كثيرًا وأجازه بجوائز سنوية هناك وقبل ذلك، ثم إنه وجد عليه في بعض الأمر فجفاه وظهر له منه بعض ما لم يحبه، فرجع حينئذ إلى بغداد وقال:

إِنْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَّانَا لَا مُبَدِّلًا عُرْفًا وَإِحْسَانًا
فَحَسْبُنَا اللَّهُ رَضِينَا بِهِ ثُمَّ بَعْدَ اللَّهِ مَوْلَانَا

يعني به المأمون، وغنت فيه جاريته وسمعه المأمون، فاستحسنه ووصله وإياها، فبلغ ذلك عبد الله بن طاهر، فغاضه ذلك وقال: أجل! صنعنا المعروف إلى غير أهله فضاع.

ولعبد الله ألحان صاغها، فمنها ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه في شعر أخت عاصية، فإنه صوت نادر جيد صحيح العمل مزدوج النغم، بين لين وشدة على رسم الحذاق من القدماء، وهو:

نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي
مُضَرَّجٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِإِزْبَادٍ

هَلَّا سَقَيْتُمْ بَنِي سَهْمٍ أَسِيرَكُمْ
الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النِّجْلَاءَ يَتَّبِعُهَا

وَمِنْ غَنَائِهِ أَيْضًا:

مِنْ حَبِيبِ طَلَابُهُ لِي عَنَاءُ
نَفْسِي لَشَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ وَفَاءُ
لَيْسَ لِي مَا حَيْثُ عَنْهُ عَزَاءُ

رَاحَ صَحْبِي وَعَاوَدَ الْقَلْبَ دَاءُ
حَسَنُ الرَّأْيِ وَالْمَوَاعِيدُ لَا يُدْ
مَنْ تَعَزَّى عَمَّنْ يَحِبُّ فَإِنِّي

(٩) مَا قِيلَ فِي هِجَاءِ الْأَمِينِ وَرِثَائِهِ

قِيلَ فِي هِجَائِهِ:

يَا أَبَا مُوسَى وَتَرْوِيحَ اللَّعْبِ
حَرَصًا مِنْهَا عَلَى مَاءِ الْعَنْبِ
وَعَلَى كَوْنِهِ لَا أَخْشَى الْعَطْبَ
لَا وَلَا تَعْرِفُ مَا حَدَّ الْغَضَبِ
تُعْطِكَ الطَّاعَةَ بِالْمَلِكِ الْعَرَبِ
عَيْنٍ مِنْ أَبْكَاءِ إِلَّا لِلْعَجَبِ
لِلْمَجَانِيقِ وَطَوْرًا لِلْسَّلْبِ
لَهُمْ يَبْدُو عَلَى الرَّأْسِ الذَّنْبِ
سَدَّدَ الطَّرْقَ فَلَا وَجْهَ طَلَبِ
كُلِّ مَنْ قَدْ قَالَ هَذَا قَدْ كَذَبِ
مِنْ جَمِيعِ ذَاهِبٍ حَيْثُ ذَهَبِ
فَإِذَا مَا أَوْجَبَ الْأَمْرَ وَجَبِ
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَتَبِ

لَمْ نُبْكِكَ لِمَاذَا لِلطَّرَبِ
وَلَتَرَكِ الْخَمْسَ فِي أَوْقَاتِهَا
وَشَنِيفٍ أَنَا لَا أَبْكِي لَهُ
لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ مَا حَدَّ الرِّضَا
لَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ لِلْمَلِكِ وَلَمْ
أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَيْهِ لَا بَكَتْ
لَمْ نُبْكِكَ لِمَا عَرَّضْتَنَا
وَلَقَوْمٍ صَيَّرُونَا أَعْبُدًا
فِي عَذَابٍ وَحِصَارٍ مُجْهِدِ
زَعَمُوا أَنَّكَ حَيٌّ حَاشِرِ
لَيْتَ مَنْ قَدْ قَالَهُ فِي وَحْدَةٍ
أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا قَتْلَهُ
كَانَ وَاللَّهِ عَلَيْنَا فِتْنَةً

وقال عبد الرحمن بن أبي الهذاهد يرثيه:

يا غَرْبُ جُودِي قَدُبْتُ مِنْ وَذَمِهِ
أَلَوْتُ بِدَنِيَاكَ كَفُّ نَائِبَةٍ
أَصْبَحَ لِلْمَوْتِ عِنْدَنَا عِلْمٌ
مَا اسْتَنْزَلَتْ دَرَّةُ الْمَنُونِ عَلَى
خَلِيفَةِ اللَّهِ فِي بَرِّيَّتِهِ
يَفْتَرُّ عَنْ وَجْهِهِ سَنَا قَمَرٍ
زُلْزَلَتْ الْأَرْضُ مِنْ جَوَانِبِهَا
مَنْ سَكَّتْ نَفْسُهُ لِمَضْرَعَةٍ
رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَاهُ بِهِ
كَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَزِيزَ مَمْلَكَةٍ
يَا مَلِكًا لَيْسَ بَعْدَهُ مَلِكٌ
جَادَ وَحَيٍّ الَّذِي أَقَمْتَ بِهِ
لَوْ أَحْجَمَ الْمَوْتُ عَنْ أَخِي ثَقَّةً
أَوْ مَلِكٍ لَا تَرَامَ سَطَوْتُهُ
خَلَدَكَ الْعِزُّ مَا سَرَى سَدَفٌ
أَصْبَحَ مُلْكُكَ إِذَا اتَّزَرْتَ بِهِ
أَثَرُ ذُو الْعَرْشِ فِي عِدَاكَ كَمَا
لَا يُبْعَدُ اللَّهُ صَيُّورَةً تَلَيْتَ
مَا كُنْتُ إِلَّا كَحُلْمٍ ذِي حُلْمٍ
حَتَّى إِذَا أَطْلَقْتَهُ رَقْدَتُهُ

فَقَدْ فَقَدْنَا الْغَزِيرَ مِنْ دِيَمِهِ
وَصَرَتْ مَغْضَى لَنَا عَلَى نَقَمِهِ
يَضْحَكُ سِنَّ الْمَنُونِ مِنْ عِلْمِهِ
أَكْرَمَ مِنْ حَلٍّ فِي ثَرَى رَحِمِهِ
تَقْصُرُ أَيْدِي الْمُلُوكِ عَنْ شِيَمِهِ
يَنْشَقُّ عَنْ نُورِهِ دُجَى ظِلْمِهِ
إِذْ أَوْلَغَ السِّيفُ مِنْ نَجِيعِ دَمِهِ
مِنْ عُمَمِ النَّاسِ أَوْ ذَوِي رَحِمِهِ
حَتَّى تَذُوقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمِهِ
يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ
لَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ فِي أُمَمِهِ
سَحَّ غَزِيرِ الْوَكَيْفِ مِنْ دِيَمِهِ
أُسْوَى فِي الْعِزِّ مُسْتَوَى قَدَمِهِ
إِلَّا مَرَامَ الشَّتِيمِ فِي أَجْمِهِ
أَوْ قَامَ طِفْلَ الْعَشَى فِي قَدَمِهِ
يَقْرَعُ سِنَّ الشُّقَاةِ مِنْ نَدَمِهِ
أَثَرٌ فِي عَادِهِ وَفِي إِرَمِهِ
لَخَيْرِ دَاعٍ دَعَاهُ فِي حَرَمِهِ
أُولِجَ بَابَ السَّرُورِ فِي حُلْمِهِ
عَادَ إِلَى مَا اعْتَرَاهُ مِنْ عَدَمِهِ

وقال أيضا يرثيه:

أقول وقد دنوت من الفرار
رمتك يدُ الزمان بسهم عَيْن
أبن لي عن جميعك أين حلّوا
وأين محمدٌ وابناه ما لي
كأن لم يُؤنسوا بأنيس مُلك
إمامٌ كان في الحدثان عونًا
لقد ترك الزمان بني أبيه
أضاعوا شمسهم فجرت بنحس
وأجلّوا عنهم قمرًا منيرًا
ولو كانوا لهم كفوًا ومثلاً
ألا بان الأمام ووارثاه
وقالوا الخلد بيع فقلت ذلاً
كذاك الملك يُتبع أوليه

وقال مقدس بن صيفي يرثيه:

خليلي ما أتتكَ به الخطوبُ
تدلّت من شماريخ المنايا
خلال مقابر البستان قبر
لقد عظمت مُصيبته علي من
على أمثاله العبرات تُذرى
فقد أعطاك طاعته النّحيب
منايا ما تقوم لها القلوبُ
يُجاور قبره أسدٌ غريب
له في كل مكرمة نصيب
وتُهتِك في مآتمه الجيوب

وما ادّخرت زُبيدة عنه دمعا
دُعُوا موسى ابنه لبكاء دهر
رأيتُ مشاهد الخلفاء منه
لِيَهْنِكَ أنني كهلٌ عليه
أُصِيبَ به البعيد فخرّ حزنا
أناذي من بطون الأرض شخصا
لئن نعتِ الحروبُ إليه نفسا
لقد فُجعت بمصرعه الحروب

وقال خزيمة بن الحزن يرثيه على لسان أم جعفر:

خير إمام قام من خير عنصر
لوarith علم الأولين وفهمهم
كتبتُ وعيني مُستهلٌ دموعها
وقد مَسَّنِي ضُرٌّ وذل كآبة
وهُمْتُ لما لاقيتُ بعد مصابه
سأشكو الذي لاقيته بعد فقدته
وأرجو لما قد مرَّ بي مذ فقدته
أتى طاهر لا طهر الله طاهرا
فأخرجني مكشوفة الوجه حاسرا
يعزّ على هارون ما قد لقيته
فإن كان ما أسدى بأمر أمرته
تذكر أمير المؤمنين قرابتي

وأفضل سام فوق أعواد منبر
وللملك المأمون من أم جعفر
إلفلؤني ابن عمي محمدي
وأرقّ عيني يا ابن عمي تفكري
فأمري عظيم مُنكرٌ جد مُنكر
إليك شكاة المستهام المقهر
فأنت لبثي خير ربّ مُغير
فما طاهر فيما أتى بمطهر
وأنهب أموالِي وأحرق أدري
وما مرّ بي من ناقص الخلق أعور
صبرتُ لأمر من قدير مُقدّر
فديتُك من ذي حرمة مُتذكر

وقال أيضا يرثيه:

سبحان ربك رب العزة الصمد
وما أصيب به الإسلام قاطبة
من لم يصب بأمر المؤمنين ولم
فقد أصبت به حتى تبين في
يا ليلة يشتكي الإسلام مدتها
غدرت بالملك الميمون طائره
سارت إليه المنايا وهي ترهبه
بشورجين وأعتام يقودهم
فصادفوه وحيداً لا معين له
فجرعوه المنايا غير ممتنع
يلقى الوجوه بوجه غير مبتذل
وا حسرتا وقريش قد أحاط به
فما تحرك بل ما زال منتصباً
حتى إذا السيف وافى وسط مفرقه
وقام فاعتلقت كفاه لبتة
فاجتره ثم أهوى فاستقل به
فكاد يقتله لو لم يكائره
هذا حديث أمير المؤمنين وما
لا زلت أُنذبه حتى الممات وإن

ماذا أصبنا به في صُبحة الأحد
من التضعُّع في رُكنيه والأود
يُصبح بمهلكة والهَمُّ في صُعد
عقلي وديني ودنياي وفي جسدي
والعالمون جميعاً آخر الأبد
وبالإمام وبالضرغامة الأسد
فواجهته بأوغاد ذوي عدد
قريش بالبيض في قمص من الرزد
عليهم غائب الأنصار بالمدد
فرداً فيا لك من مُستسلم فرد
أبهى وأنقى من القُوهِية الجدد
والسيف مُرتعد في كف مُرتعد
منكس الرأس لم يُبدئ ولم يُعد
أذرتَه عنه يدها فعل مُتد
كضیغم شرس مستبسل لبد
للأرض من كف لیت مُحرج حرد
وقام منفلتاً منه ولم يكد
نقصت من أمره حرفاً ولم أزد
أخنى عليه الذي أخنى على لبد

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن أحمد الهاشمي حدثه أن لبابة ابنة علي بن المهدي
قالت البيتين الآتين وقيل إنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مملكة بمحمد:

أَبْكِيكَ لَا لِلنَّعِيمِ وَالْأَنْسِ بَلْ لِلْمَعَالِي وَالرَّمَحِ وَالرُّسِ
أَبْكِي عَلَى هَالِكٍ فَجَعْتُ بِهِ أَرْمَلَنِي قَبْلَ لَيْلَةِ الْعُرْسِ
(١٠) هَجَاءُ يَحْيَى^(١٠٥) بْنِ أَكْثَمَ

وعدناك في المجلد الأول أن نذكر مثلاً من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكثم، وها هو ذا:

أَرْقَهُ بَرْحُ الْهَوَى وَسَدْمُهُ مَثَلُ الْحَرِيقِ فِي الْحَشَا يُضَرُّهُ
طَوْرًا يُعَانِيهِ وَطَوْرًا يَشْتُمُهُ نَمَتْ عَلَيْهِ كُلُّ شَوْقٍ يَكْتُمُهُ
فَفَاضَتْ الْعَيْنُ بِدَمْعٍ تَسْجُمُهُ وَبَاتَ وَالْقَلْبُ يُسَامِي هَمَّهُ
وَبَاحَ بِالْحُبِّ الَّذِي يُجَمِّجُهُ أَصْبَحَ بِالْبَأْسَاءِ عَارَ أَنْغَمُهُ
مَنْ لِمَحَبٍّ قَدْ تَرَاهُ يَرْحُمُهُ وَبَلَى الْجِسْمَ وَرَقَّتْ أَعْظَمُهُ
طَالَ تَصَابِيهِ وَطَالَ سَقَمُهُ يَمْنَعُهُ طَعْمُ الْكُرَى وَيَجْرُمُهُ
يَشْهَدُنِي اللَّهُ عَلَى مَنْ يَظْلِمُهُ أَصْبَحَ هَذَا الدِّينَ رَثَا رَمَّهُ
وَاهَا لَهُ يَصْرَمُ مَنْ لَا يَصْرُمُهُ سَحَّتْ مِنَ الْجَوْرِ عَلَيْهِ دَيْمُهُ
عَظَّلَهُ الْجَوْرَ وَطَالَ قَدَمُهُ إِلَّا بَقَايَا قَوْمِهِ وَجُمُهُ
فَبَادَ مَغْنَى رَبْعِهِ وَأَرْسَمُهُ يَرُودُ فِيهِ شَاؤُهُ وَنَعَمُهُ
أَوْطَنَهُ الْجَوْرَ فَأَضْحَى مَعْلَمُهُ أَنْوَكَ قَاضٍ فِي الْبِلَادِ نَعْلَمُهُ
مَنْ يَشْهَدُ الْجَوْرَ فَنَحْنُ نَعْلَمُهُ مَذُوقِي الْحَكَمِ أَبِيحَ حَرَمُهُ
يَقُولُ حَقًّا لَا تُعَيِّثُ تَرْحُمُهُ وَاضْطَرَبَتْ أَرْكَانُهُ وَدَعَمُهُ
وَانْتَهَكَتْ مِنَ الْقَضَاءِ حُرْمُهُ يَا لَيْتَ يَحْيَى لَمْ يَلِدْهُ أَكْثَمُهُ
وَاللَّهُ يَبْنِيهِ وَنَحْنُ نَهْدُمُهُ مَلْعُونَةُ أَخْلَاقِهِ وَشَيْمُهُ^(١٠٦)
وَلَمْ تَطَأْ أَرْضَ الْعِرَاقِ قَدَمُهُ

والله والله لقد حلَّ دمه لو أن للدين عماداً يدعّمه
يعدل عنه الميل أو يقوّمه لكان قد رنّ عليه مأتمه
أرجو ويقضي الله لا يسلمه من وجهه هذا ولكن يقصمه

بالسيف إذ حلت عليه نقمه

(١١) وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتخريب وفتنة شعواء
وقتل ودماء، فإننا نترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر.

قال الأعمى يصف دمار الحرب:

تقطّعت الأرحام بين العشائر وأسلمهم أهل التقي والبصائر
فذاك انتقام الله من خلقه بهم لما اجترّموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
ولم نستمع من واعظ ومذكر فينجع فينا وعظ ناه وأمر
فابك على الإسلام لما تقطّعت عراه ورجى ضره كل كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم فمن بين مقهور عزيز وقاهر
وصار رئيس القوم يحمل نفسه وصار رئيساً فيهم كل شاطر
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة ولا يستطيع البر دفعاً لفاجر
تراهم كأمثال الذئاب رأّت دماً فأمتّه لا تلوي على زجر زاجر
وأصبح فساق القبائل بينهم تسلّ على أقرانها بالخناجر
فابك لقتلي من صديق ومن أخ كريم ومن جار شفيق مجاور
ووالدة تبكي بحزنٍ على ابنها فيبكي لها من رحمة كل ظائر

و ذات حليل أصبحت وهي أيم
 تقول له قد كنت عزاً وناصرًا
 وابك لإحراق وهدم منازل
 وإبراز ربّات الخدور حواسرًا
 تراها حيارى ليس تعرف مذهبًا
 كأن لم تكن بغداد أحسن منظرًا
 بل هكذا كانت فأذهب حسنّها
 وحلّ بهم ما حلّ بالناس قبلهم
 أبغداد يا دار الملوك ومُحتمى
 ويا جنة الدنيا ومطلّب الغنى
 أبيني لنا أين الذين عهدتهم
 وأين ملوك في المواكب تغتدي
 وأين القضاة الحاكمون برأيهم
 أو القائلون الناطقون بحكمة
 وأين مراحم^(١٠٧) للملوك عهدتها
 تُرشّ بماء المسك والورد أرضها
 وروح الندامى فيه كلّ عشيّة
 وأين قيان تستجيب لنغمها
 وأين الملوك الغرّ من آل هاشم
 يروحون في سلطانهم وكأنهم
 يجادل عما نالهم كبرائهم

وتبكي عليه بالدموع البوار
 فغيب عني اليوم عزي وناصري
 وقتل وإنهاب اللهى والذخائر
 خرجن بلا خمر ولا بمازر
 نوافر أمثال الطباء النوافر
 وملهى رآته عين لاه وناظر
 وبدد منها الشمّل حكم المقادر
 فأضحوا أحاديثًا لبّاد وحاضر
 صروف المنيا مستقرّ المناير
 ومستنبط الأموال عند الضرائر
 يحلون في روض من العيش زاهر
 تشبّه حسنًا بالنجوم الزواهر
 لورد أمور مشكلات الأوامر
 ورصف كلام من خطيب وشاعر
 مزخرقة فيها صنوف الجواهر
 يقوْح بها من بعد ريح المجامر
 إلى كل فياض كريم العناصر
 إذا هو لبّاه حنين المزامر
 وأشياهم فيها اكتفوا بالمعادر
 يروحون في سلطان بعض العشائر
 فنالتهمو بالكره أيدي الأصاغر

فَأَقْسَمُ لَوْ أَنَّ الْمُلُوكَ تَنَاصَرُوا لَزَلْتُ لَهَا خَوْفًا رِقَابُ الْجَبَابِرِ

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكي بغداد ويهجو طاهراً ويعرّض به:

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعينِ
ألم يكن فيك أقوامٌ لهم شرفٌ
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنُهم
صاح الزمانُ بهم بالبينِ فانقرضوا
استوعُ اللهُ قومًا ما ذكرتهمو
كانوا ففرّقهم دهرٌ وصدّعهم
كم كان لي مُسعدٌ منهم على زمني
لله دُرٌّ زمانٌ كان يجمعنا
يا من يُخربُ بغدادًا ليعمرُها
كانت قلوبُ جميع الناسِ واحدةً
لما استبيتهم فرّقتهم فرقا

ولبعض فتيان بغداد:

بكيتُ دَمًا على بغداد لما
تبدّلنا همومًا من سرور
أصابتها من الحساد عينٌ
فقومٌ أحرقوا بالنار قسرا
وصائحةٌ تُنادي وَا صَبَاحًا
وحوراءُ المدامع ذاتُ دَلّ
فقدتُ غَضارةَ العيش الأنيق
ومن سَعَةٍ تبدّلنا بضيق
فأفنت أهلها بالمنجنيق
ونائحةٌ تنوح على غريق
وباكيةٌ لفقدان الشّفيق
مضمخةُ المجاسد بالخلوق

تَفَرَّ من الحريق إلى انتهاب
وَسَالِبَةُ الغزاة مُقْلَتِيهَا
حَيَارَى كالهدايا مُبَكِّرات
يُنَادِين الشفيقَ ولا شفيقُ
وقومٌ أخرجوا من ظلِّ دُنْيَا
ومُغْتَرِبٌ قَرِيبُ الدارِ مُلْقَى
توسَّطَ من قتالهمُ جميعًا
فلا ولد يُقِيمُ على أبيه
ومهما أنسَ من شيءٍ تولى
ووالدها يفرّ إلى الحريق
مَصَاحِكُهَا كَلَأُ لَآةِ البروق
عليهن القلائدُ في الحُلُوق
وقد فُقد الشفيقُ من الشفيق
متاعُهم يُباع بكلِّ سُوق
بلا رأسٍ بقارعةِ الطريق
فما يدرون من أي الفريق
وقد هَرَبَ الصِّديق من صديق
فإني ذاكر دار الرقيق

هوامش

(١) هو أبو علي الحسن بن هانئ، الشاعر المتفنن، الجاد الماجن، صاحب الصيت الطائر، والشعر السائر، ورأس المحدثين بعد بشار. وهو فارسي الأصل. وُلد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ هـ، ونشأ يتيمًا فقَدِمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده، فتعلم العربية ورغب في الأدب، فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته إلى عطار بالبصرة، فمكث عنده لا يفتّر عن معاناة الشعر والاختلاف إلى الأدباء والمجان، إلى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب الشاعر الماجن الكوفي في إحدى قدماته إلى البصرة، فأعجب كل منهما بالآخر، فأخرجه والبة معه إلى الكوفة، فبقي معه ومع ندمائه من خلعاء الكوفة وتخرّج عليهم في الشعر وفاقهم جميعًا. وقدم بغداد وقد أربت سنه على الثلاثين، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم، وبلغ خبره الرشيد فأذن له في مدحه، فمدحه بقصائد طنانة وحبسه مرة على هجوه مضر. وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم؛ ومنهم الخنصيب عامل مصر، ثم انقطع إلى مدح محمد الأمين، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد. وكان أبو نواس جميل الصورة، فكّه المحضر، كثير الدعابة، حاضر البديهة، متينًا في اللغة والشعر والأدب، متعصبًا لليمانية على المضرية. وأجمع أكثر علماء الشعر ونقده وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفتنًا وأرصنهم قولًا وأبدعهم خيالًا مع دقة لفظ وبديع معنى، وأنه شاعر مطبوع برز في كل فن من فنون الشعر. وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمرية ومقطعاته المجونيات، وكان شعره لقاح الفساد والقذوة السيئة، لنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى الذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم؛ إذ لم يكن ذلك معروفًا قبله وقبل شيطانه والبة. وزاد على ذلك انفراده بالإبداع في وصف الخمر،

فكان نموذج سوء لمن تأخر، فافتتن بشعره الشبان في زمانه وبعده، وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعد طريقاً إلا إذا مزج شعره بشيء من ذلك وإن لم يقع في محظوراته. ووصفه عبد الله الجياز فقال: كان أظرف الناس منطقاً، وأعزهم أدباً، وأقدرهم على الكلام، وأسرعهم جواباً، وأكثرهم حياء، وكان أبيض اللون، جميل الوجه، مليح النعمة والإشارة، ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير، مسنون الوجه، قائم الأنف، حسن العينين والمضحك، حلو الصورة، لطيف الكف والأطراف، وكان فصيح اللسان، جيد البيان، عذب الألفاظ، حلو الشائل، كثير النوادر، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب، راوية للأشعار، علامة بالأخبار، كأن كلامه شعر موزون. توفي سنة ١٩٩هـ. وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره في كتاب خاص باسم «أخبار أبي نواس» لابن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤، والأغاني (ج ١٨ ص ٢) و(ج ٦ ص ١١٠، ١٧٠، ١٨٦) و(ج ١٦ ص ١٤٨)، وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥)، وطبقات الأدباء (ص ٩٦)، والشعر والشعراء (ص ٥٠١)، والفهرست (ص ١٦٠)، والعقد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٧).

(٢) المكهمة: الغراس الكثيرة. والسحق: الطويلة، يريد النخل. والجرين هنا: موضع تخفيف التمر.

- (٣) المحش: قشر الجلد عن اللحم.
- (٤) وائلاً: ناجياً. ووأت: لجأت. والشغواء: العقاب. والشعف: رءوس الجبال.
- (٥) اللجف: الغار في الجبل. ومزغب: صار ذا زغب، والزغب صغار الريش. والألغاد جمع لغد بالضم وهو لحمه في الحلق.
- (٦) الطباق والنزع: نوعان من الشجر.
- (٧) القليذم: البئر الغزيرة. والعياليم: جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء. والخسف جمع خسيقة وهي البئر التي حفرت في حجارة فنبع منها ماء غزير لا ينقطع.
- (٨) الجؤشوش: الصدر. والضرم: فرخ العقاب.
- (٩) الشبوب: الشاب من الثيران والغنم. والنثرة: منزلة من منازل القمر.
- (١٠) الوصيد: بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة للمال أي الغنم وغيرها في الجبال. والإياد: التراب يجعل حول الحوض أو الخباء يقوى به أو يمنع ماء المطر. والمهدف: كل مرتفع من بناء أو كتيب رمل أو جبل.
- (١١) ينهفت: يتساقط وينخفض. والقطقط: المطر الصغير أو المتتابع العظيم القطر، وقيل هو دون الرذاذ، وقيل البرد أو صغاره.
- (١٢) سناه تسنية: سهله وفتحه.
- (١٣) طماس بالكسر: دارس. والأسحم: السحاب. والارتجاس: الرعد.
- (١٤) المعتقة: جبل في الرمل.
- (١٥) الاغساس: بياض فيه كدرة. والسفع: يريد بها الأثافي.
- (١٦) الهلاس: الضمور. وهاب: لونه لون الهباء.

- (١٧) بلدة بالشام تنسب إليها الخمر.
- (١٨) جمع قوس.
- (١٩) يعني أن الخمر مصبوب فيها إلى حلوق الصور صرفاً. وقوله: وللماء، يعني أنهم صبوا الماء في مزجها حتى علا رءوسها.
- (٢٠) جمع باشقي، وهو اسم طائر، أعجمي معرب.
- (٢١) المرات: الأرض لا نبات فيها. واقتفر الأثر: اقتناه وتبعه.
- (٢٢) الجزر (بفتحتين): ما يذبح من الشاة ذكراً كان أو أنثى. واحدته: جزرة. وما اشترك: لم يثبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر الذي لا يكاد يظهر.
- (٢٣) عسفها: سلكها متخططاً، والغور: الخطر.
- (٢٤) السدر: النحير.
- (٢٥) الضمر (بالضم وبضميتين): الهزال. والصفير: جمع صفار (بالفتح) وهو ما يشد به البعير من شعر مضفور.
- (٢٦) الجأب: الحمار الغليظ من حمر الوحش.
- (٢٧) الأتباع: جمع ثبج وهو وسط الشيء، والقصر: جمع قصرة وهي أصل العنق.
- (٢٨) جفر: امتنع عن الضراب.
- (٢٩) السفى: كل شجر له شوك، ونش: نضب، والنقر: جمع نقرة وهي الوهدة المستديرة من الأرض.
- (٣٠) المرنان: القوس.
- (٣١) زمت: شدت، ومشزور: مفتول، والمرر: جمع مرة وهي قوة الفتل، واللام: الشديد، والنغر: كصرد البلبل. والعرب تشبه الدقيق بالأوتار وحلاقيم النgran.
- (٣٢) القراري: الخياط.
- (٣٣) القر: القرار، يقال إذا وقع الأمر موقعه: صابت بقر ووقعت بقر. قال طرفه بن العبد البكري:

كنت منهم كالغطى رأسه فانجلى اليوم غطائي وخمر
سادراً أحسب غيي رشداً فتناهيت وقد صابت بقر

- (٣٤) اشتد.
- (٣٥) هبر: قطع.
- (٣٦) المقر: المر.
- (٣٧) أصحرت: برزت إلى الصحراء. ودبوا الخمر: مشوا مختلفين. والخمر: ما سترك من شجر أو بناء أو نحوه.
- (٣٨) الخير والقوة.
- (٣٩) الضيق.

- (٤٠) كشر: أبدى عن ناجذيه، وبسر: عبس.
- (٤١) أي أحكمت فتله.
- (٤٢) جمع ثغرة وهي نقرة النحر.
- (٤٣) الأولى: الشديد الخصومة.
- (٤٤) اعوجَّ وانثنى.
- (٤٥) السبب: شعر الذنب والعرف والناصية، والعذر جمع عذار.
- (٤٦) قصد لفظ هل الاستفهامية فأدخل عليها الألف واللام.
- (٤٧) الثنوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام.
- (٤٨) الحراقات: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمي بها العدو في البحر.
- (٤٩) القعدي من الخوارج: الذي يرى رأي القعدة الذين يرون التحكيم حقاً، غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس.
- (٥٠) وذلك أنه كان للأمين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة، وهي الليث والعقاب والدلفين.
- (٥١) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام؛ لأنه بنى بيت المقدس.
- (٥٢) أهرت الشدق: واسعه. وكالح الأنياب: كاشرها.
- (٥٣) لبوه: أخذوا بلبيه، وهو موضع القلادة في الصدر.
- (٥٤) هو ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر في زمن سابور ذي الأكتاف بن أزدشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السلام. اتخذ له ديناً بين المجوسية والنصرانية. وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم، أن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنها أزليان لم يُزالا ولن يُزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم، وأنها لا يزالان قوتين حساستين سميعتين بصيرتين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان، وفي الحيز متحاذيتان تحاذي الشخص والظل (انظر الملل والنحل للشهرستاني).
- (٥٥) هو الخصب بن عبد الحميد العجمي أمير مصر على الخراج. وإليه تنسب منبة الخصب بالوجه القبلي وليس بابن صاحب نهر أبي الخصب، ذاك عبد المنصور يقال له مرزوق. وكان هذا رئيساً في أراضيه. فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي، ثم انتقل إلى الإمارة.
- (٥٦) الشطار: جمع شاطر وهو من أعيا أهله خبثاً.
- (٥٧) الخلم: الصديق.
- (٥٨) الندور: خروج العظم من موضعه أو زواله. وفي البيت من سوء التركيب ما فيه، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأرساغ اليدين ندور والريح ساكنة.

- (٥٩) أزيغب تصغير أزغب، وهو الفرخ ذو الزغب؛ أي الريش الدقيق اللين. والشكير: الريش أول ما ينبت.
- (٦٠) الضريب: الثلج أو الجليد. ويمور: يتحوك أو يبجيء ويذهب أو يسيل على وجه الأرض.
- (٦١) الحجاجان مثنى حجاج، وهو العظم الذي ينبت عليه شعر الحجاب. والذرور: ما يذور في العين من الدواء.
- (٦٢) تسور: تتب.
- (٦٣) القتير: الشيب.
- (٦٤) عقرقوف: اسم موضع.
- (٦٥) نجدت: عرقت.
- (٦٦) صور: مائلات.
- (٦٧) يرصخن: يكسرن.
- (٦٨) زور: جمع زوراء بمعنى مائلة.
- (٦٩) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له.
- (٧٠) القرلى: كان لحمير وكان لا يسمع لأحد شيئاً إلا جاء إليه ودخله ولا يتخلف عن طعام لأحد، وإذا سمع بخصومة لم يقرب ذلك، ف ضرب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوفي عليه: القرلى.
- (٧١) الفينان: الظل الكثيف، والجرب، أي لا خال فيه.
- (٧٢) الغرب: الذهب.
- (٧٣) الناطور: حافظ النخل والكرم والزرع، وفي البارع: الناطر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع، من كلام أهل السواد وليس بعربي محض.
- (٧٤) الزليل مصدر كالزلزل.
- (٧٥) أي منهزمي هاجرة، وعبورية نسبها إلى الشعري العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد.
- (٧٦) يعني الشمس؛ أي توقفت في الجو عند زوالها. وفاءت بمذقة، أي دخلت عليهم من تلك الخيمة الخلقة التي ثبتت على الأبناء الضعيف من القصب الرث فلم تقوَ الشمس وعليهم لم تمنعهم الخيمة بستر قوي فيصير ظلاً ولكنه شمس وظل، فشبهت بالممدوق من اللبن؛ أي الممزوج.
- (٧٧) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتّابي التغلبي، من ولد عتّاب بن أسيد، ثم من بني تغلب بن وائل، شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر مقدم، من شعراء الدولة العباسية، وكان منقطعاً إلى البرامكة فوصفوه للرشد ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه. وكان حسن الاعتذار في شعره ورسائله، وله مصنفات في المنطق والأدب واللغة، وكان يقيم في رأس عين بعيداً عن دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه إليه، فجاء وعليه قميص غليظ وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الخبر بقدمه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجرة وتقام له وظيفة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أخذ منها رفاقة وملحاً وخلط الملح بالتراب فأكله بها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدم

يتفقدونه ويتعجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه، فأمر بطرده، فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله، فسلم عليه وانتسب له فرحب به وقال له: «ارتفع!» فقال: «لم أتك للجلوس». قال: «فما حاجتك؟» قال: «دابة أبلغ عليها إلى رأس عين». فقال: «يا غلام، أعطه الفرس الفلاني». فقال: «لا حاجة لي في ذلك، ولكن تأمر أن تُشترى لي دابة أُتبلغ عليها». فقال لغلامه: «امض معك فابتع له ما يريد». فمضى معه فعدل به العتاي إلى سوق الحمير فقال الغلام: «إنما أمرني أن أبتاع لك دابة». فقال له: «إنه أرسلك معي ولم يرسلني معك، فإن عملت ما أريد وإلا انصرف!» فمضى معه فاشترى حملاً بائة وخمسين درهماً وقال: «ادفع إليّ ثمنه». فدفعه إليه فركب الحمار عرياً بمرشحة عليه وبرذعة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد: «فضحتني! أمثلي يحمل مثلك على هذا!» فضحك وقال: «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك». ومضى إلى رأس عين. توفي سنة ٢٢٠هـ، وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٢ ص ٢)، وفوات الوفيات (ج ٢ ص ١٣٧).

(٧٨) أي متبلمات بالقليل حتى يصلن إليك.

(٧٩) حسده.

(٨٠) الإيساس: دعوة الناقة إلى الحلب.

(٨١) النجعة: طلب الكلب في موضعه.

(٨٢) الكلب: القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب.

(٨٣) الرائد: الطالب.

(٨٤) الحومة هنا: الجماعة والطائفة.

(٨٥) هو دعبل بن علي بن رزين، من خزاعة، أصله من الكوفة، وجاء بغداد بطلب من الرشيد. وهو شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير، فكان الناس يخافونه ويتقونه حتى المأمون، فإنه هجاء هجاء شديداً واحتمل ذلك منه. توفي سنة ٢٤٦هـ. وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٨ ص ٢٩)، وابن خلكان (ج ١ ص ١٧٨)، والشعر والشعراء (ص ٥٣٩)، والفهرست (ص ١٦١).

(٨٦) يريد أصواتاً منسوبة إلى حنين الحيري المغني.

(٨٧) يريد أصواتاً منسوبة إلى معبد المغني.

(٨٨) قبيلة من همدان، وأصله جبل نزلوا به فنسبوا إليه.

(٨٩) هو مولى باهلة، ولد في البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بني العباس، وكان خليعاً فاسداً، وكان مع ذلك حسن التصرف في النظم، ولشعره قبول ورواق، فهو من المتقنين، وله معانٍ جديدة في الخمر كان أبو نواس يأخذها عنه، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٦٨هـ، والضحاك مات سنة ٢٥٠هـ فقد تعاصرا؛ لأن مولدهما متقارب، لأن ابن الضحاك عمر كثيراً. وهو أول من نادى الأمين وله فيه مدائح كثيرة، وعمر عمرًا طويلاً حتى قارب مائة السنة، ومات في خلافة المستعين أو المنتصر. وتجد أخباره في الأغاني (ج ٦ ص ١٧٠)، وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤).

(٩٠) من بحوث صديقي الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

(٩١) الآء: ثمر شجر، واحدته آءء.

(٩٢) المرهاء: التي لا تكتحل.

(٩٣) مبغض متنكر.

(٩٤) جمع معجر (بالكسر) وهو ثوب تعتجر به المرأة؛ أي تشده على رأسها.

(٩٥) استحكم.

(٩٦) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، واشتهر بابن الزيات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، وكان أديباً شاعراً عالماً بالنحو واللغة، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة، وكان في أول أمره من جملة الكتّاب، ثم صار وزيراً للمعتصم ولابنه الواثق. ولما تولى المتوكل قبض عليه وأمر بإدخاله في تنور من حديد كان ابن الزيات أعده لتعذيب المصادرين وأرباب الدواوين المطالبين بالأموال، وقيد به خمسة عشر رطلاً من حديد، ثم أمر بإخراجه بعد أن مكث فيه أربعين يوماً، فوجدوه ميتاً وذلك سنة ٢٣٣هـ. وتجد ترجمته في الأغاني (ج ٢٠ ص ٤٦)، وابن خلكان (ج ٢ ص ٧٨).

(٩٧) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى، وجيء بجده وجماعة معه رهينة إلى الحجاج بن يوسف، فنزلوا عنده بواسط، فأقطعهم سكة بها، فاختطوها ونزلوها طول أيام بني أمية، ثم انقطعوا من الدولة العباسية إلى الربيع فخدموه، وكان عبد الله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجة الخلفاء، وكان صالح الشعر قليله وراوية لأخبار الخلفاء عالماً بأموالهم.

(٩٨) الإرقال: ضرب من الخبب.

(٩٩) [الخرمي] هو إسحاق بن حسان، ويكنى أبا يعقوب، من العجم، وهو القائل:

إني امرؤ من سراة الصغد ألبسني عرق الأعاجم جلداً طيب الخبر

وكان مولى ابن خريم الذي يقال لأبيه: خريم الناعم. وهو خريم بن عمرو بن بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان. وعمي أبو يعقوب الخرمي بعد ما أسن، وكان يقول في ذلك شعراً، فمنه قوله:

فلن تك عيني خبا نورها فكم قبلها نور عين خبا

فلم يعم قلبي ولكنما أرى نور عيني إليه سرى

فأسرح فيه إلى نوره

سراجاً من العلم يشفي العمى

(١٠٠) مفزعها وذاعرها.

(١٠١) كذا في الطبري في حوادث سنة ١٩٧هـ، طبع بولاق وطبع أوروبا.

(١٠٢) كذا في الطبري في حوادث سنة ١٩٧هـ، طبع بولاق وطبع أوروبا.

(١٠٣) كذا في هامش النسخة الأوروبية من الطبري. وفي نسخة بولاق وأوروبا (في صلبها):

فرغاء ينقى الشنار مريدها

وهي رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى .
(١٠٤) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق، كان سيداً نبيلاً عالي
الهمة شهيراً، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، حسن الالتفات إليه لذاته ورعاية لحق والده وما أسلفه
من الطاعة في خدمته، وكان والياً على الدينور فلما خرج بابك الخرمي على خراسان وأوقع الخوارج
بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون، بعث إلى عبد الله
وهو بالدينور يأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب
سنة ٢١٥هـ. وكان المطر قد انقطع عنها في تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطراً كثيراً، فقام إليه رجل
بزاز من حانوته وأنشده:

قد قحط الناس في زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدرر
غيثان في ساعة لنا قدماً فمرحباً بالأمير والمطر
تولى الشام والعراق ومصر . وتوفي سنة ٢٣٠هـ. وتجد ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩)،
والأغانى (ج ١١ ص ١١).
(١٠٥) انظر ما كتبه عن يحيى بن أكثم في المجلد الأول (ص ٤٤٠).
(١٠٦) حذفنا بعد هذا البيت أربعة أبيات رأينا أنها تنافي الآداب العامة.
(١٠٧) كذا في الأصل، ولعلها صروح.

بيان المصادر العربية والإفرنجية الهامة التي عولنا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون

نثبت لك هنا الهام من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة التي أشرنا إليها في مواضعها من الكتاب وهوامشه. وهي:

المصادر باللغة العربية

- تاريخ الطبري، طبعة مصر وليدن.
- تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر.
- تاريخ مروج الذهب للمسعودي، طبعة مصر وباريس.
- تاريخ اليعقوبي، طبعة ليدن بإشراف المسيو هتسم.
- تاريخ أبي الفدا للملك المؤيد، طبعة الأستانة.
- تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد عبد الله محمد بن يوسف، طبعة أوروبا.
- تجارب الأمم لابن مسكويه، طبعة مصر.
- تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون، طبعة مصر.
- الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري، طبعة ليدن.
- نظم الجواهر لابن البطريق، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للمستشرق إدوار بوكوك.
- تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط.
- تاريخ المشاركة لصليبا بن يوحنا، مخطوط.

- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، مخطوط.
- تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوروبا).
- تاريخ التشريع الإسلامى للمرحوم الخضرى بك، طبعة مصر.
- تاريخ الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن طباطبا، طبعة أوروبا.
- تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبردى، طبعة أوروبا.
- البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو».
- الآثار الباقية للبيرونى، طبعة ليبسك.
- مختصر تاريخ الدول لأبى الفرج الملقبى، طبعة بيروت.
- تاريخ الإسحاقى، طبعة أوروبا.
- فتوح الشام للواقدي، طبعة مصر.
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، طبعة مصر.
- ولاية مصر وقضاتها للكندي، طبعة بيروت.
- مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى، طبعة مصر.
- كشف الظنون لحاجى خليفة، طبعة الأستانة وليبسك ومصر.
- المستطرف للابشيهى، طبعة بولاق.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، طبعة ليبسك ومصر.
- المزهرة للسيوطى، طبعة بولاق.
- الأحكام السلطانية للماوردي، طبعة أوروبا.
- أعلام الناس للأتليدي، طبعة مصر.

- كتاب المعارف لابن قتيبة، طبعة أوروبا.
- معجم الأدباء لياقوت الرومي، طبعة مصر وإشراف مرجليوث.
- الفهرست لابن النديم، طبعة ليبسك.
- طبقات الأئم لابن صاعد، طبعة بيروت.
- طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، طبعة مصر.
- تراجم الحكماء للقفطي، طبعة مصر.
- طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأنباري، طبعة مصر.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، طبعة مصر.
- فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي، طبعة مصر.
- الملل والنحل للشهرستاني، طبعة مصر.
- ألف باء ليو سف البلوي، طبعة مصر.
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، طبعة دار الكتب.
- فتوح البلدان للبلاذري، طبعة ليدن.
- كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني، طبعة ليدن.
- كتاب البلدان لليعقوبي، طبعة ليدن.
- مسالك الممالك للأصطخري، طبعة ليدن.
- المسالك والممالك لابن حوقل، طبعة ليدن.
- أحسن التقاسيم للمقدسي، طبعة ليدن.
- المسال والممالك لابن خرداذبه، طبعة ليدن.
- الأعلاق النفيسة لابن رسته، طبعة ليدن.
- حسن المحاضرة للسيوطي، طبعة مصر.

- بلوغ الأرب في أحوال العرب للألوسي، طبعة بغداد.
- مقدمة إلياذة هوميروس تعريب البستاني، طبعة مصر.
- حضارة الإسلام في دار السلام لجميل مدور، طبعة مصر.
- كتاب الأغاني للأصبهاني، طبعة بولاق والساسي.
- الجزء الأول من كتاب الأغاني، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب المصرية والنسخة الفتوغرافية بالدار.
- صبح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب التاج المنسوب للجاحظ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب الأمالي لأبي علي القالي، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب الكامل للمبرد، طبعة مصر.
- كتاب البيان والتبيين للجاحظ، طبعة مصر.
- العمدة لابن رشيقي، طبعة مصر.
- كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي، طبعة فردرك شوالي.
- كتاب المحاسن والأضداد للجاحظ، طبعة ليدن.
- كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة مصر.
- كتاب الحيوان للجاحظ، (نسخة فتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية).
- كتاب الكشكول للعالمي، طبعة مصر.
- سراج الملوك للطرطوشي، طبعة مصر.
- كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، طبعة ليدن.

- كتاب الخراج لأبي يوسف، طبعة بولاق.
- تاريخ الوزراء المنسوب للصولي، طبعة بيروت.
- أشهر مشاهير الإسلام، للمرحوم رفيق العظم بك، طبعة مصر.
- كتاب نفح الطيب، طبعة مصر وأوروبا.
- مفاتيح العلوم للخوارزمي، طبعة مصر.
- مفيد العلوم للخوارزمي، طبعة مصر.
- كتاب المواهب الفتحية للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر.
- كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر.
- خطط الشام للأستاذ محمد كرد علي، طبعة دمشق.
- مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت.
- مجموعة مجلة المجمع العلمي، طبعة دمشق.
- مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر.
- مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر.
- بعض فصول ومباحث من المجلة الآسيوية.
- حديث الأربعاء للدكتور طه حسين، طبعة مصر.
- منهل الرواد في علم الانتقاد لقسطاكي الحمصي بك، طبعة مصر.
- محاضرات الأستاذ الإسكندري المدرس بدار العلوم، طبعة مصر.
- الوسيط للأستاذ الإسكندري المدرس بدار العلوم، طبعة مصر.
- أدبيات اللغة العربية للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، طبعة مصر.
- أدبيات اللغة العربية للمرحوم عاطف بركات بك وزملائه، طبعة مصر.

- مهذب الأغاني للمرحوم الخضري بك، طبعة مصر.
- بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف، طبعة مصر.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن.
- طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، طبعة ليدن ومصر.
- العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر.
- العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة مصر.
- لطائف المعارف للثعالبي، طبعة ليدن.
- عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب وأوروبا.
- حلبة الكميت، طبعة بولاق.
- خزانة الأدب لابن حجة الحموي، طبعة بولاق.
- خزانة الأدب للبغداد، طبعة بولاق.
- محاضرات الفلسفة لستلانه بالجامعة المصرية.
- محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية للسنور كرلو نلينو، طبعة روما.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاشكبري زاده، طبعة حيدر آباد.
- محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار بالجامعة المصرية.
- محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي بالجامعة المصرية.
- محاضرات الأستاذ الخضري بك في تاريخ الأمم الإسلامية، طبعة مصر.
- محاضرات الأستاذ الخضري بك في تاريخ الدولة الأموية، طبعة مصر.

- التمدن الإسلامي للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر.
- تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر.
- طبقات ابن سعد، طبعة أوروبا.
- طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر.
- المنثور والمنظوم لابن طيفور.
- رسالة بني أمية للجاحظ، خطية.
- كتاب الوزراء والكتّاب لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى، طبعة فيينا سنة ١٩٢٦.
- كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدي، طبعة جوتنجن سنة ١٨٥٤.
- الأوراق للصولي، خطية.
- مطبوعات تذكّار جيب الإنجليزية، وخاصة مؤلفات الأستاذين مرجليوث وبرون.
- زهر الآداب للحصري، طبعة مصر.
- المشتبه في أسماء الرجال للذهبي، طبعة أوروبا.
- الوافي بالوفيات للصفدي (المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩).
- أخبار أبي نواس لابن منظور، طبعة مصر.
- رسائل البلغاء لأستاذ محمد كرد علي، طبعة مصر.
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد، طبعة مصر.
- المفضليات للضبي، طبعة مصر.

- حماسة البحتري، طبعة بيروت.
- الصناعتين لأبي هلال العسكري، طبعة مصر.
- الموشى لأبي الطيب، طبعة أوروبا.
- ديوان الحماسة لأبي تمام، طبعة مصر.
- مجاني الأدب وشرحه، طبعة بيروت.
- مختارات البارودي، طبعة مصر.
- حياة الحيوان للدميري، طبعة مصر.
- عيون التواريخ لابن شاعر الكتبي (أجزاء منه محفوظة بدار الكتب المصرية).
- الفرج بعد الشدة للتنوخي، طبعة مصر.

المصادر الإفرنجية

Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.

Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).

The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).

D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series".

H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs. Omayyades Moawia^{1er} et Yasid^{1er}". (Beyiouth).

Library of Universal History (N. Y.).

History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).

A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).

A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).

Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).

The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).

Annals of the Early Caliphate by Sir W. Muir. (London).

Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).

Encyclopaedia of Islam. (Luzac).

Encyclopaedia Britannica. (London).

La Grande Encyclopédie. Paris.

The Historians' History of the World by H. S. Williams. (New York).

Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).

The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London).

The History of Philosophy in Islam by J. de Boer translated by Jones. (London).

Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).

Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).

Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).

Margoliouth's Works Etc.

R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes. 1927.

Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik, (Leipzig).

عن المؤلف

أحمد فريد رفاعي: مؤرخ وأديب مصري، تخرج في كلية الآداب بجامعة القاهرة. كان مديرًا للصحافة والنشر بجريدة المؤيد، ونشر العديد من المقالات والكتب، ومن أهم أعماله كتاب «عصر المأمون» و«الشخصيات البارزة التاريخية». توفي بالقاهرة عام ١٩٥٦م.

الفهرس

٣	باب المنثور
١٥١	باب الرسائل
٢٤٥	باب المنظوم

طبع بمطابع دار المعارف